

الفهرس

الفصل الأول

مقدمـــــة

بقـرار للرئيس نميـرى، منح المديريات الجنوبيـة الحكم الذاتي الاقليـمى، دخل السـودان حقبة جـديدة انتهت فيها الحرب الأهلية، التى اسـتمرت أكثر من ستة عـشر عاماً مـتواصلة، ظلّت تميّز مايعـرف بمشكلة الجنوب. وبذلك يعود السلام للسودان، ويمكن القول أن المشكلة قـد وجدت الحلّ، ولكن تداعياتها في مـسـتـقـبل السـودان لاتزال تطرح اسـئلة جـادة وهامـة تـنتظر الاجـابة من السودانيين انفســهم.وأهمّ تلك الاسئلة يتمثل فى: هل يـستطيع السودان، الآن، بناء وعيٍ بهوية مشتركة وموحدة، تضمن بناء وحدة وطنية حقيقية ودائمة؟

لقد اختلف التركيز على الجوانب المخـتلفة لمشكلة علاقة الشمال والجنوب باختلاف وجـهات النظر، ولكن الجانب الاكثـر وضوحاً، والأكثر مـثاراً للجدل، يتمـثل فى التركيز علي الـهوية العرقيـة الثقافيـة، حيث يعتـبر الشمال عـربياً ومسلماً، والجنوب زنجـياً ووثنياً بقيادة مسـيحية[1]. والواقـع أن هنـاك الآن اتفاق عـام على صعـوبة تحديد إنتمـاء وهوية الشمـال أو الجنوب على أساس عرقى، لـيس لأن الشمالـى هو مزيج من العناصـر العربيـة والأفريقـية، وإنما ايضاً، لأن الجنوبى ليس زنجياً صافياً، ورغم الـتناقض الذى قد تعكسه حقيقة أن سكان الجنوب هم من بين البشر الاكـثر سواداً في العالم[2]. ولكن المســألة ليست في الجـانب العرقى فـقط، وإنما في الجانب الثـقافى، أيضا. فـالاسلام واللغة العربيـة، اللذان يجمعان ويوحدان الشمال، خـضعا، معاً، لتأثيـر الثقافة القـبلية الشـماليـة السابقـة. وفي الجنوب ، لا يمكن نكران وجـود التأثيـرات الحامية. وهذه التعـقيدات العرقية الثقافـية توضح لنا مدى المرونة والمحافظة، التى كَيفت عملية الانتماء والهوية فى السـودان. فقد تميّز السودانيون بتحديد هويتهم وفقاً لرموز تخـتلف من وقت لآخر ومن مكان لآخر، ترتكز على حقائق الحياة الماثلة وتشدّد، غالباً، على القيم العائلية والقبلية والاثنية، وبشكل اساسى القيم العرقية.

إن مسـألة الانتماء والهـوية في السودان، مـتجذرة، كـما هو واضح، في القيم التـقليدية، وهي مـفهـوم عميق، بقـدر ماهو حـساس، يعبـر عنها بفـخر واعتـزاز ويدافع عنها بيقظة عاليـة ولا يتنازل عنها إلا باكراه. ومع انهـا قابلة

للتغير والتبدل ببطء شديد، فـهى، مع ذلك، مفهوم ديناميكى قادر على التكيف وحتي التحول. ومن جـانب آخر، فان صياغة وتوزيع السلطة السـياسية تطرح قضايا المنافسة والصراع. فالسلطة كقيمة خارجية، تماماً كالملكية الخاصة، تثير مشاكل مفـاجئة حول توزيعها. وايأ كانت حـدة تلك المشاكل وسواء كان الناس مدركـين لها أم غـير ذلك، فان الـسلطة تنزع الى ترتيب البشـر إلى حاكـمين، ومحكومين، مـسيطرين وتابعين، مُمَيـزين ومحرومين. وفي الانتمـاء، قد يكون الفرد نوبرياً (من قبيلة النوير) أو عربياً أو أوربيـاً، وقد يشعر بمزايا أو عيوب مـثل هذا الانتمـاء، ولكنه "ينتـمى". وذلك الانتـماء يمنـح الفرد، في العـادة، شعوراً بالعزة والكرامة. فقط، عندمـا تطرح انتماءات وهويات مختلفة فى اطار تنافسى واحد، بشكل يستلزم ترتيبها، يضطر الناس، فى بعض الاحيان، لابراز شعور بالتأرجح تجاه انتماءهم وهوياتهم.

وعندما يتـعلق الامر بالصراع حول السلطة ومـقاومة السيطرة الاجنـبية، فمن المتـوقع بروز موقف يرفض الآخر. والارتبـاط بمثل هذا الانتماء قـد يجد مايعـرقله اذا لم يتم تحصيـنه. ومثل هذه الحالة تدعـو إلي موازنة دقيـقة فى السيـاسات. فاذا كـان الهدف هو التأثيـر ثقافياً في مـجموعـة معينة، لتـبديل هويتها، فان أفضل النتائج يمكن تحقيـقها عن طريق استراتيجية لا تهدد بنزع سلطة تلك المجـموعة على شـئونهـا الخاصة، وفى الوقت نفـسه تعـزز رموز الهوية المعنيّـة. وهذه هي الطريقة التى اتبـعت فى شمال السـودان، حيث تمت اسلمته وتعـريبه، من خلال عملية قـامت بها الامبراطورية العربية الاسـلامية، أولاً، بغزو السودان، وتمكنت من السيطرة عليـه من علي البعد، وفتحت قنوات الاتصـال مع العـالم العـربى، وأمّنت حـرية حركـة العـرب المسلمين وحـمـاية تجـارتهم واستـقـرارهم في البلاد، وفي الـوقت نفسـه حـافظت، ظاهرياً علي استـقلال السـودانيين. ومع أن الوافدين العـرب كانوا تجاراً فـقط ولم يكونوا حكاماً، فـان مكانتهم المميـزة وثقافتـهم الاكثر حداثة، وهيـمنتهم الاقتـصادية، منحـتهم مـوقعـاً ممتازاً لا يُنافـسون علـيه. وترافق مع كل ذلك أن ديانتـهم، بتوجهاتها المـتحررة، قد فتحت الباب واسعاً "للأخـوة " الانسانية، الامر الذي جعلهم طبقـة مرغوبة للتزاوج مع الاسر السـودانيـة القائدة. وبما أن العرب لم يحضروا معهم زوجاتهم، والدين الاسـلامى يُحرِّم زواج المرأة المسلمة من غير المسلم، فقد كان التزاوج في اتجاه واحد فقط. وعن طريق نظام الارث الامومى Matrilineal descent الذى كان سـائداً فى الشمـال، لذلك استطاع أحـفاد العـرب الوصول الى المواقع القـيـادية وسط مجـموعـات أمـهاتهم وأخـوالهم.

ومنذئذ سيطر النظام الابوى وتعزز نظام النسب العربي الاسلامي الذكورى. فالاطفال اصبحوا يعرفون بنسب آبائهم، وبمرور الزمن اكتملت سيطرة العنصر العربي. وكما يقول د.يوسف فضل، "فان النظام السابق لم يسقط بالقوة بقدر ماحُوِّلَ من داخله" (٣).

وفي الجنوب كانت الحالة مختلفة بشكل واضح. فقد كانت هجرة العرب واستقرارهم في الجنوب صعبة بسبب العوامل الطبيعية والظروف المناخية وصعوبة شروط الحياة هناك، والقلة من العرب، التى اشتغلت في حملات جلب الرقيق من تلك المناطق، لم تكن مهتمة بأسلمة وتعريب الجنوبيين، لأن ذلك سيحولهم من "دار الحرب" الي "دارالاسلام"، وبالتالى يعنى حمايتهم من الاسترقاق. وجاءت حملات الحكم التركى المصرى ودولة المهدية لتعمق من خوف الجنوبي من موجات الغزو المتكررة من الشمال - ومع مجيء الاحتلال البريطاني توقفت الحملات وساد السلام، ولكن الفجوة بين الشمال والجنوب ازدادت اتساعاً وتعززت في الفترة المعاصرة. وبعد الاستقلال، كانت الحكومات المتعاقبة تعتقد أن بامكانها توحيد البلاد من خلال توسيع عمليتى الأسلمة والتعريب الى الجنوب، الامر الذي آدي الي تخوف الجنوبيين من الطمس الثقافي والهيمنة السياسية من قبل الشمال العربي المسلم • وعلى أى حال، فقد شهدت مناطق معينة في الجنوب، قبل اعلان البريطانيين لسياسة فصل الجنوب، درجة من الاسلمة والتعريب، نتيجة لتوفر التمازج السلمى مع الشماليين وعدم وجود خوف من الهيمنة الثقافية والسياسية. فقد شهدت منطقة الدينكا نقوك، وهى مجموعة جنوبية تابعة لادارة مديرية كردفان، احدي المديريات الشمالية، علاقات جيدة وتمازجاً اجتماعياً واسعاً بين السكان الجنوبيين وجيرانهم الشماليين، أحدث درجة من التأثير الثقافى المتبادل بين الطرفين.

إن تجربة الشمال وبعض مناطق الجنوب تكشف لنا أن الانتماء أو الهوية يمكن إعادة صياغتها، إذا ماتوفرت الشروط المناسبة لذلك. وسيولة الانتماء لا تلغى الخوف من المحو أو الطمس الثقافى، لأن مثل هذا الخوف يزداد ويتفاقم، بشكل خاص، عندما يحمل معه ما يعتبر آلية سيطرة خارجية. فالشماليون قاوموا محاولات العرب المسلمين لغزو بلادهم والسيطرة عليها، ولكن عندما جاء العرب للعمل بالتجارة داخل السودان، دون تهديد بالهيمنة على السكان المحليين، ظل نفوذهم يتزايد ويتسع، حتي تغلبوا على النظم السابقة لهم. وكان المتغير الحاسم هو السلطة، رغم انه يظل للهوية، وباستمرار، رموز عاطفية

ظاهرة فى السطح. وجذور هذه النزعة العاطفية ترتكز على الثقافات التقليدية الشمالية والجنوبية. فالثقافات الشمالية التقليدية، السابقة للإسلام، والثقافات الشمالية الحالية، تشترك مع الثقافات الجنوبية في الميل الشديد لنظام الذرية، الذى قد يتخذ اشكالاً متعددة من احترام وتقدير الاسلاف وثقافاتهم، وهذا الميل يمثل، تقليدياً، نظاماً للقيم يعمل على إدامة نفسه، ويقاوم التغيير والتمثُّل الواضح والمباشر. وعلى أى حال، فقد تمكنت عملية الاسلمة والتعريب من التغلب على هذه النظرة التقليدية فى الشمال، ودفعت الشماليين لاستيعاب انفسهم فى مجموعات ثقافية أوسع. وبما ان هذه العملية قد تمت بطريقة إختيارية وارتكزت على مُثُل وقيم الثقافتين الجديدة والقديمة، فقد أدى ذلك الى أن يمتلك الشماليون رباطاً عاطفياً كبيراً بثقافتهم الجديدة، وحماساً عقائدياً لنشرها فى بقية أجزاء القطر. ـ

وفى الجانب الآخر ظل الجنوبيون التقليديون يحتفظون بثقافة تركز على داخلها وترفض أى نوع من الاستيعاب، ولكنها قد تقبل وتتبنى، بشكل انتقائى وتدريجى، بعض جوانب الثقافات الاجنبية، لتكييفها ودمجها في نسيجها الخاص، وبالتالى تفقد طابعها الأجنبي وتصبح جزءاً من الثقافة المحلية. وأبرز ملامح هذا التوجه لاحظه علماء الانثربولوجيا، وتكشفه، بشكل رائع، الأغانى والحكايات الشعبية الغنية بالقيم الثقافية والرمزية والدراما، حيث يُمجد الاسلاف ويربطون بالحقائق المعاصرة، ويؤكد اعتزاز احفادهم بهم وبميراث أسلافهم. وتحكى الاساطير، ويعاد تكرارها فى الاغانى والحكايات الشعبية، لتحقيق نفس الهدف. ففى الحكايات ذات الأهمية التاريخية، يظهر الاجنبى كانسان ردىء وتافه وضحية مهزومة أمام أبطال الاسطورة. ودرجة التركيز على الداخل والهوية، والعزلة الثقافية، وإبعاد الاجنبى، تظهر بشكل جلى فى حكايات الليل، الغنية فى محتواها الثقافى، حيث يشبّه الاجنبى، عادة بالحيوانات التى تمتلك قدرة على التبدل فى شكل بشر عند دخولها الي المجتمعات الانسانية لترتكب أفظع الجرائم (تشير الحكايات الشعبية فى العادة الى خطف الرجال والنساء، فى اشارة واضحة لحملات الاسترقاق)، وتعود ثانية الى عالمها الحيواني. ومفهوم الاسد الآدمي فى تلك الحكايات يؤكد هذه النظرة. فالقبائل النيلية، مثلاً، لا تزال تعتقد فى ظاهرة المخلوقات الشبيهة للانسان فى مظهرها، ولكنها، في حقيقتها، أسود ضارية. وبما أنه ليس هناك ما يقنعنا بوجود مثل هذه المخلوقات، فانه ليس أمامنا سوى الافتراض بأنها تشير الي الاجانب من المجموعات الأثنية والعرقية الاخرى، واذا كان موقف

الجنوبى التقليدى تجاه الثقافات الاجنبية واضحاً وجلياً، فقد تقدم المتعلمون، أيضاً، لمقاومة محاولات المحو الثقافى والهيمنة الاجنبية فى العصر الحديث، والظروف التى أدت الي ذلك أكثر تعقيداً من مجرد تمثيل هؤلاء المتعلمين لمجموعاتهم التقليدية. وذلك لأن هناك عامل الانسلاخ من الثقافة التقليدية، ورد الفعل تجاه هيمنة قياداتها فى مستوى القبيلة، ومواجهة ثقافة تقليدية أخرى وهيمنة قياداتها على المستوى الوطنى. فالسياسات البريطانية في الجنوب كانت تستهدف "تحضير الأهالى" عن طريق الارساليات المسيحية، التى أشرفت على جزء كبير من المدارس ووجدت دعماً مقدراً من الحكومة لتحقيق ذلك الهدف. ومع أن التطور فى هذا المجال كان بطيئاً ومرتكزاً على التراث التقليدى، فقد أدي ذلك الى خلق طبقة من المتعلمين الجنوبيين مسيحية الديانة، وعلمانية فى توجهها الوطنى، وحديثة فى نظرتها العامة، أياً كانت درجة إحتفاظها وإرتباطها بأصولها التقليدية خلال عملية تحولها إلى وضعها الجديد. وفى الجانب الآخر، كان المتعلمون الشماليون نتاج نظام تطور ظل، باستمرار، يرتكز إلي احترام موروث الثقافة العربية وتقاليد الاسلام كأساس لبناء عصرى. ونتيجة لكل ذلك، أصبحوا أكثر التزاماً بتقاليديهم من المتعلمين الجنوبيين. صحيح ان قدراً من التحديث كان محتوماً، وأنه كان ينعكس، بهذا القدر أو ذاك، حسب المصلحة، والحالة المعنية. ولكن لكى تكون قائداً سياسياً فى حزب ما، فان ذلك يتضمن فى العادة انسجاماً معيناً،لأن القيادة السياسية فى السودان تعتمد على الولاءات التقليدية. ولكى تبقى في موقع يعتمد على الولاءات السياسية ويتأثر بها بسهولة، فقد يتطلب ذلك ارتباطاً أكثر بالثقافة التقليدية. وهذا ما يتطلبه أيضاً وجود موظف فى مدينة ريفية صغيرة يتمسك سكانها بتقاليدهم ويتعصبون لقيمهم التقليدية.

كان الوطن يحكم عن طريق سياسات الحكم غير المباشر، وبما أن المناطق الريفية كانت غالبة فى الجنوب، فقد وجد المتعلمون الجنوبيون أنفسهم فى وضع قبلى تسيطر عليه الأوضاع التقليدية والتقليديون، مثل زعماء القبائل وكبار السن. ومع استمرار الصراع بين الطرفين إلا أن المحافظة على قدر من الولاء الاسرى والعرقى واحترام كبار السن، كل ذلك أدى إلى عدم إنتقال الصراع حول السلطة إلى مستوي القبيلة. وقد قاد هذا الوضع، مع الانسلاخ من الثقافة القبلية الريفية، الى هجرة المتعلمين الجنوبيين للمشاركة علي المستوى الوطنى فى المراكز الحضرية. وهناك وجد المتعلم الجنوبى، بجانب الهوية التى تجمعه مع زملائه الجنوبيين، هوية ومشاركة أوسع، ترتكز علي

المبادىء التقليـدية، التى تُرتب الناس على أساس الاصل والعمر، وعلى الثـقافة والعـرق بشكل أسـاسى، ووجـد أن التـركيـز على الاسـلام واللغـة العـربيـة، كمؤهلات للتمييز والتـقدير والمشاركة، يحوله الي مركز ثانوى وتابع، فى وقت كان يُمني نفسه بأن تعليمه سيمكنـه من تنمية التوجه الذى كانت تعكسه إحدى أغاني مدارس الدينكا، حيث تقول(٤):-

انا ولد صغير ولكني زعيم المستقبل
انا طِيبة أرضى وخيرها
وسأعمل مافي وسعى
عَلِمنى، ان عقلى
يمكن ان يقبل كلمة التعليم
التعليم قوة
التعليم هو أفضل شيء.

ولكن المبادىء التقليدية، التى واجـهها المتعلم الجنوبي فى الجنوب، لم تكن آمنة تماماً فى الشمـال، لان ديناميات التحديث كـانت ضعيفة، لكنهـا متواصلة فى تمهيد طريق التغيير الاجتماعى، فالتراتبية، التى نشرتها الاوضـاع التقليدية على المستوى الوطنى، كـانت تعني سيطرة أسرة معينة، مع الجـيل الاكبر سناً، علي السلطة. ولكن ذلك لم يتم دون مقـاومة من الشباب الشمالى المتـعلم. فقد قـاوموا كل الحكومـات التي تعاقـبت على كـراسي الحكم فى مخـتلف فتـرات التاريخ الحديث، وذلك عن طريق استراتيـجيات تطويرية متعددة(٥). ومـع ان الشبـاب الشمالي والجنوبي كانوا غـير قادرين، في البـداية، على الاتصـال مع بعضـهم، وكـسر حواجز عدم الثقة بـينهم، إلا أنهم، بمرور الزمن، بدأوا يلتقون حول مصلحة مشتركة في مقاومة النظام التقليدى القديم.

ان الصـراع بين الاجـيال، والنظرة الاكـثر حداثة وسط الشـباب الشـمالى والجنوبى، مـقارنة مع قـياداتهم التـقليدية، خلقت اهتـمامـاً بفحص ومناقـشة الافكار السـائدة والبـحث عن أسس للهويـة الوطنية أكـثـر اتساعـاً من الاطر التقليدية. وسـاعدت في تغذية هذا الاتجاه ظروف أخري، علي رأسـها: صعود حـركـة التحـرر الوطنـى فى أفريقـيـا وتزايد الاعـتـزاز بالموروث الافـريقى، واكتشاف التشـابه العرقى والثقافى بين السودانيين الشماليين وعـدد كبير من الافـريقـيين الذين يدعـون انفسـهم "أفـارقـة" اذا لم يقـولوا انهم "زنوج"، والتحـقق من وجود اخـتلافات جـوهرية فى السمات العـرقيـة والثقافـية بين السودانيين الشماليين والعرب الآخرين، بالاضافة الي التأثيرات السلبية للحرب

الأهلية فى الجنوب. فى كل ذلك كان الشباب المتعلم يتقدم المسيرة ويقود كبار السن، فهم الذين سافروا الى الخارج، كطلاب أو كموظفين، ولاحظوا تعقيدات الانتماء العرقي وتخلف السياسات الحكومية والحاجة لتسريع عملية التنمية الاقتصادية الاجتماعية. وهؤلاء الشباب صغار السن، هم الذين سمعوا وصفهم "بالأسود" أو "الزنجى" في الاقطار العربية أو بعض الأقطار ذات التركيبة السكانية المختلطة، وعاشوا صدمة أن لايعتبرهم الآخرون عرباً. وفي بعض الاقطار العربية سمع السودانيون الشماليون وصفهم بكلمة "عبيد" وهذا ماقادهم الى إعادة اكتشاف أنفسهم، والاقتراب من المعرفة الحقيقية بتعقيدات الهوية السودانية.

ان الصراع حول السلطة بين كبار السن، المحافظين، وقوى التغيير الشابة، واكتشاف حقيقة التعقيدات العرقية والثقافية في السودان، بالاضافة الى تصميم الجنوب على النضال من أجل الاعتراف بحقوقه، ...كل ذلك شجع عملية الانسلاخ من السياسات القديمة وسط الشباب والأقليات الأثنية فى الشمال. وهذه المجموعات كانت فى السابق محبوسة تحت مظلة "الشمال العربى" الفضفاضة، وتحت ظروف التخلف المريع، مكتفية فقط بلافتة العروبة. وهكذا بدأت عملية استقطاب وتحالفات متنوعة بين هذه العناصر الشابة وبعض المجموعات الأثنية الشمالية المتحررة والمجموعات الجنوبية، واصبح هذا التحالف الواسع، بمرور الزمن، يهدد النظام التقليدى القائم. وكان طلاب جامعة الخرطوم واساتذتها، بمساندة صغار الضباط، هم الذين قادوا انتفاضة ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ الشعبية، التى أجبرت حكومة الفريق عبود العسكرية على التخلى عن الحكم وتسليم السلطة لممثلى الشعب، وبحكم واقعيتها، سمحت هذه القيادة الشابة باجراء انتخابات عامة أعادت الاحزاب التقليدية لكراسى الحكم فى ظل نظام ديمقراطى تعددى. وبعد خمس سنوات استعاد تحالف القوى الشابة السلطة من جديد، بانقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩، تحت قيادة العقيد جعفر محمد نميرى، الذى أعلن منح الجنوب الحكم الذاتى الاقليمي. وكان لنجاح نميرى في حلٍّ مشكلة الجنرب أهميته التاريخية، ليس فقط على مستوى السودان والقارة الافريقية، بل على مستوي العالم. فالحكم الذاتي الاقليمى يمثل أفضل حل يمكن أن يقدمه رئيس الدولة، ولكن يجب النظر إليه كخطوة كبيرة فى اتجاه الحل النهائى. إذ يبدو لى أن مثل هذا الحل يجب أن يكون فى اتجاه التكامل والاندماج الوطنى، اذا أردنا الابقاء على وحدة السودان بحدوده الراهنة، لأنه من الصعب القول بأن الجنوبيين السودانيين

سيكتفون بالمشاركة الإقليمية فقط، وأنهم لن يهتموا بالقضايا الوطنية والعالمية الكبرى، المؤثرة فى هوية السودان.

عندما أعلن الاستقلال في مطلع ١٩٥٦، وصف وزير الخارجية آنذاك دور السودان فى المسرح السياسي العالمى فى الكلمات التالية:

"ان السودان يمثل، بشكل أساسى، جزءاً لايتجزأ من الوطن العربى، وهذا هو السبب الذي جعلنا نسرع فى الإنضمام لجامعة الدول العربية بعد اعلان الاستقلال مباشرة... وعلاقتنا مع الاقطار العربية الشقيقة لا تعنى تجاهل علاقتنا الأفريقية الحميمة... سيمتد نظرنا باستمرار صوب الجنوب، نحو أفريقيا، نقوى علاقتنا مع مختلف الشعوب الأفريقية ونساعدها فى مسيرتها نحو الحرية والحياة الكريمة" (٦).

هذا الموقف الوسطى وجد ترحيباً واسعاً على المستوى الدولى. فالولايات المتحدة الأمريكية أبدت تقديرها لموقف السودان المعلن حيث أكدت:-

" ان السودان، كدولة أفريقية جديدة، سيكون مرتبطاً ارتباطاً عميقاً بمستقبل افريقيا، ولكنه، كدولة شرق أوسطية، إيضاً، سيمثل جسراً لأفريقيا، ينقل اليها الافكار والفلسفات والقوى التي قد يكون لها تأثير كبير على مصير أفريقيا ومستقبلها " (٧).

وبالرغم من أنه كان ينظر الى هذه الإزدواجية، علي الدوام، كميزة كامنة، لها امكانيات كبيرة، إلا أنها في الممارسة العملية كانت مشحونة بالمشاكل. فلكى يتعرف السودانى على امكانياته الكامنة، عليه أن يطور هوية ذات فعالية شاملة يغنيها تنوع وتعدد تركيبتها، أكثر من أن يهددها بالتفكك والتشرذم. وهدفنا في هذه الدراسة أن نستخدم معرفتنا باتجاهات الماضى لنرى امكانية تحقيق وتطوير التكامل الوطنى فى السودان، بطريقة متوازنة وأقل تفرقة وتفكيكاً مماحدث فعلاً فى الفترات السابقة.

الهـوامـش

(١) أحد هذه الجوانب يتمثل فى التفاوت فى التطور الاقتصادى بين الشمال والجنوب، فمن بين الخمس نقاط التى أوردتها لجنة التحقيق فى أحداث تمرد ١٩٥٥ في الجنوب، كأسباب أساسية تقف خلف تلك الأحداث، تمحورت أربع منها حول موضوع الهوية بينما كانت الخامسة حول التنمية الاقتصادية الاجتماعية، وقد أشارت اللجنة الى أنه "لأسباب سياسية ومالية وجغرافية واقتصادية تمكن شمال السودان من التطور بسرعة فى كل المجالات:-الحكم المحلى، انظمة الرى، الصحة، التعليم العالي، التنمية الصناعية. بينما تخلف الجنوب فى كل المجالات المشابهة، وهذا التفاوت البارز فى التنمية بين مجموعتين مختلفتين تعيشان فى بلد واحد يخلق، دون شك، شعوراً وسط المجموعة المتخلفة، سواء كان ذلك حقيقياً أم متوهماً، بأنهم قد خدعوا واستغلوا ولخضعوا بالقوة." جمهورية السودان، حوادث جنوب السودان فى أغسطس ١٩٥٥، (١٩٥٦)، ص ٨١. والبعض يعتقد أن تطوير الجنوب اقتصادياً يجب أن يكون تعويضاً من الشمال على الاخطاء التى ارتكبها اسلافه فى حق الجنوبيين ، اذ يقول أحدهم "نحن الشماليين ارتكبنا بعض الاخطاء الخطيرة في الجنوب. فأجدادنا شاركوا في حملات الاسترقاق، والجنوب كان ميدان تلك الحملات... وقد صممنا نحن أن نعوّض أخطاءهم هذه فى شكل مساعدات مادية وتنمية لقدرات أبناء شعبنا." بشير محمد سعيد The Sudan: Cross Roads of Africa, (London, Bodley Head, 1965), p. 151 لاشك أن التفاوتات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بين الشمال والجنوب تمثل جانباً هاماً من مشكلة الجنوب، ولا يمكن اعتبار هذه الجوانب أقل أهمية من موضع الهوية. وفى الجانب الآخر، فان هذه التفاوتات بنيت علي الفوارق الثقافية بين الشمال والجنوب، وساعدت بعد ذلك على تعميقها. فمجرد تحديد المشكلة كمشكلة جنوب/شمال يكشف لنا هذه الحقيقة. -اذ أن هناك مناطق فى الشمال نفسه أكثر تخلفاً من مناطق الجنوب، ومع ذلك فانها تُربط بالشمال لأغراض تحديد مشكلة العلاقة بين الشمال والجنوب.

(٢) يقول هـ. أ. ماكمايكل "كل هؤلاء الناس (الشماليون) مسلمون وتحتوي عروقهم على دماء عربية، ولكن الملامح العرقية التى ورثوها من أجدادهم غير العرب، ظلت باقية بشكل مستمر A History of the Arabs in the Sudan, (Tuckahoe, N.Y. , De Graff, 1967) 13 أما آركل في كتابه A. J. Arkell, A History of the Arabs 1955, p.22 فقد كتب يقول "هناك فى السودان، بالطبع، درجة من التمازج بين الاعراق السمراء والزنجية". وهكذا، وبكلمات طلال أسد، "أصبح من المتفق عليه انه ليس هناك

قبيلة عربيــة شمالية لاتزال تحتفظ بنقائهــا العرقى، بل أنها، نتيجة للاختــلاط، أصبحت كلها ترتبط بجذور متنوعة"
A Note in the History of the Kababish Tribe, SNR No. XL VII, 1966, p. 79-87.

Seligman, Some Aspects of the Hamitic Problem فى ما يخص الجنوب انــــظر
in the Anglo-Egyptian Sudan, the : Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain, 93(1913), p.p. 610-624.
Pagan Tribes of فى كتابــهما C.G. and B.Z. Seligman وفى نفس الاتجـاه أشـار
إلــى the Nilotic Sudan, (London, Routledge and Kegan Paul,1932), p.20.N
تمازج القبائل النـيلية بعناصر حاميــة قوقازية، أما بروفيـسير ايفانز برتشــارد، فقد
لاحظ أنه "من المشكوك فيه أن هــناك قبيلة أو مجمــوعة فى السودان يمكن أن تدعي
أنها زنجية. لان شـخصــيتها غير الزنجية، وحياتها الرعــوية، لدرجة ما تركيب لغاتها،
"E. E. Evans-Pritchard, Ethnological Survey ترجع الى مزيج وتأثيـر حامى
in the Anglo-Egyptian Sudan from within ed J.A. de. C. :of the Sudan Hamilton, (London, Faber and Faber, 1935) 88, also Mekki Abbas, the Sudan Question, (New York,Prager, 1952) p. 15-16.

Y. F. Hassan, The Arabs and the Sudan, (Edinburgh Univ. Press, 1967), p90 (٣)

Tradition and Modernization, (New Haven, (٤) فى فـرانســـيس دينق،
Yale Univ. Press, 1971) p.43.
The Dinka of the Sudan, (New York, 1972) p. 153.

(٥) ثورة أكتوبر ١٩٦٤، التى أجبـرت الحكم العسكرى الأول على التخلى عن كراسى
El Sir Hasan Fadul, Their الحكم، فـجرها وقـادها طلاب جـامـعة الخـرطوم، انظر،
Finest Hours, (London, Rex Collins 1969). رواية قصيرة حـول أكتوبر ١٩٦٤،
التى فجرت التناقض الحاد بين القوى التقليدية والنظرة الاثـنوقرافيه للشيخ من جهة وقوى
الطلاب ذات النظرة المستنـيرة التى لعبت دوراً نشطاً فى اسـقاط الحكم العسكرى من جــهة
أخرى.

United States, Department of State Background, 1957 (٦) ورد فى p. 20.

Ibid, 1. (٧)

الفصـــل الثـــانى

تعريب شمال السودان

تجربة فى مرونة الهوية

(أ) الجذور القديمة للتعريب:

يمثل تعـريب شمـال السودان جزءاً مـن عمليـة طويلة ومعـقدة، كان لـها تأثيرها علـي سكان واعراق تلك المنطقـة خلال فتـرة تاريخية تمـتد الى بدايات التاريخ المـكتوب. ونتيـجة لتـعتيـد وقدم آثارها، أصـبح من الصعـوبة تحديد الطريقة التى تأثرت بها هذه المنطقة أو نسبـة تأثير المصادر المختلفة فى الناتج النهائـى، بشكل قاطع ودقـيق. ولكن منذ بدايات القرن التـاسع عشـر الميلادى وحتي الآن، حيث تعاقبت علي البلاد عدة أنظمـة سياسية، شملت الحكم التركى المصـرى ودولة المهدية والحكم الثنائـى الانجليزى المصـري ثم الحكم الوطنى، ظلت هذه الانظمـة تعمل، بشكل مـستـمر، على حـماية هوية الشـمال العـربية الاسلامـية، بل على تقويتـها وتعزيزها بشكل فـعال فى بعض الاحيـان، وكلمة "بلاد السـودان"، التى تعنى أرض السـود، كانت تشـير الى "أرض كـوش"، الاسم الذى كان يطلق على المنطقة منذ عـهد المؤرخ اليونانى هيرودوتس، وأول من تسرب وتغـلغل الى المنطقة هم قـدماء المصريين الذين ظل حـكامهم، طوال عهودهم المخـتلفة، يركزون اهتمامهم على الجنـوب بهدف تأمين المناجم الغنية بالذهب، وجلب الرقـيق ذوى الاصول الزنجـية، جمع الضـرائب والاتاوات من الأهالى، التجـارة فى العاج والمواد الخام الأخـرى، وفى بعض الاحيان لتـفادى الغزوات التي كانت تتـعرض لها مصر، باسـتمرار، من جهة الشمـال. ففى عام ٣٠٠٠ ق.م. قام فرعون الاسرة الحاكمة المصرية الاولى بالاستيلاء على وادى حلفا، وبدأ المصـريون القدمـاء فى الاستيطان جنوبهـا فى أعلي النيل، وبمرور الزمن دمجـوا المنطقة وحـولوها الى جزء تابع لملكتـهم، ولكن ذلك لم يستـمر طويلاً، حـيث تمكن النوبيون من الانفـصال وتكوين مملكة النوبة. وفـى القرن

الثامن قبل الميلاد قاموا بغزو مصر نفسها وهزيمتها والسيطرة على وادى النيل بأكمله . وفى عام ٦٦٣ قبل الميلاد تعرضوا لهزيمة من الآشوريين أجبرتهم على التراجع جنوباً الى منطقة مروى. والمهم هنا، ان التمازج بين المصريين والنوبيين قد أدى الى ظهور مجموعة سودانية مختلطة عرقياً، تتحدث اللغة الحامية ولها علاقة قوية بقدماء المصريين. والواقع أن هذا التمازج العرقى لم يكن بعيداً عن تأثير العناصر الزنجية الجنوبية، وذلك بسبب «غزواتهم وهجماتهم المتكررة داخل المناطق الشمالية، التى كان لها تأثيرها المؤكد وسط القبائل الشمالية ....»[1] وفى الوقت نفسه فان «استجلاب الرقيق، خاصة من النساء الجنوبيات، الذي استمر دون انقطاع لعدة قرون ، كان له هو الآخر تأثير واضح...»[2].

بينما ظل النوبيون يتعرضون للتأثير المصرى، فقد بقيت مجموعة البجا، فى الشرق، مستعصية على التأثير الخارجى، ولذلك لم تتعرض «لنفس درجة التأثير المصرى، التى تعرض لها جيرانها فى مناطق وادى النيل»[3]، أما التأثير العربى، فقد جاء بطريقة غير مباشرة، من خلال المصريين، وبطريقة مباشرة من خلال الهجرات العربية المتواصلة. ورغم أن الوافدين العرب كانوا يمثلون أقلية محدودة، وتبنوا اللغة المحلية، وتزوجوا مع السكان المحليين، واصبحوا جزءاً منهم، إلا أنهم كانوا فى وضع مميز؛ وذلك لأنهم إستفادوا من نظام الوراثة الأمومى للوصول الى مواقع السلطة، وقاموا بتعزيز هذه المواقع بقدراتهم المتقدمة فى مجالات التجارة والزراعة وممتلكاتهم الواسعة من الابل والخيول. وبمرور الزمن تحولوا الى طبقة حاكمة.

ب) التعريب كسمة بارزة للأسلمة:

إن التعريب، بمعنى التمازج العرقي والثقافى والدينى، الذى يتخذه الآن، بدأ بعد القرن السابع الميلادى، مع ظهور وانتشار الاسلام فى المنطقة، ومن ضمنها السودان. كانت المسيحية قد دخلت البلاد منذ القرن السادس الميلادى، عندما أرسل جوستنيان إرساليات تبشيريه من مصر لنشر المسيحية وسط النوبيين. ونتيجة لجهود الإرساليات انتشرت المسيحية فى المنطقة الممتدة من وادي حلفا حتى أثيوبيا والجزيرة العربية فى الشرق . وعلى اثر ذلك تكونت ثلاث ممالك؛ وهى: علوة والمقرة والمريس، في بلاد السودان، وذلك قبل

انتشار الاسلام بعدة قرون.

لقد قامت الامبراطورية الاسلامية أولاً بفتح مصر. وإنطلاقاً من هناك بدأت فى إرسال حملاتها العسكرية الى داخل الاراضى السودانية. ومع أنها وُجهت بمقاومة عنيفة حمّلت العرب خسائر فادحة(٤)، إلا أن السودانيين لم يستطيعوا الصمود أمام أسلحتها المتفوقة(٥). ونتيجة لذلك طلبوا التفاوض حول إتفاقية للسلام، وأمام عجزهم عن تحقيق انتصار حاسم، قبل العرب العرض المطروح، وتوصلوا الى إتفاق سلام مع النوبة أولاً ثم مع البجا فى الشرق. ومن المهم هنا أن نشير الى أنه بالرغم من أن هذه الاتفاقيات قد استندت على تفوق قوة العرب العسكرية، وأنها منحت العرب إمتيازات كثيرة على حساب الممالك السودانية، إلا أنها حافظت، أيضاً، على درجة معينة من الاحترام لتلك الممالك، وذلك لأن الطرفين كانا قد توصلا إلى ضرورة انهاء حالة العداء وتحقيق مصالحهما المشتركة تحت ظل اتفاقيةُ سلام دائم(٦). وهكذا، جاءت الاتفاقيات المذكورة لتنظيم علاقاتهما بشكل يحافظ على إستقلال كل منهما، رغم اجحافها بحق الممالك السودانية، ورغم الالتزامات الكثيرة التى فرضتها عليها، لكنها لم تفرض سلطة الحكم العربى على السودانيين.

كانت الاتفاقيات التى عقدت مع النوبيين تشير الى أنها إتفاقية للحماية والهدنة بين المسلمين والنوبيين،أهل الكتاب(٧). وأُعلنت تفاصيلها المحافظة على أمن النوبيين تحت حماية الله، رب العالمين، ورسوله الكريم، محمد، حيث تقول «أننا لن نحاربكم أو نشن حرباً عليكم أو نهاجمكم، طالما التزمتم بشروط الاتفاقية المبرمة بيننا وبينكم». والشروط المذكورة كانت تنص على حق النوبيين فى دخول مصر، كمسافرين وليس كمقيمين، وان عليهم حماية المسلمين، أو حلفائهم، المقيمين أو المسافرين فى أرض النوبة. وعليهم، إيضاً، ارجاع عبيد المسلمين الفارين الى دار الاسلام، وأن لا يستحوذوا عليهم أو يمنعوا أى مسلم من استعادتهم. وبالفعل، فقد كان عليهم تقديم كافة المساعدات المطلوبة لتحقيق هذا الغرض- وعلى النوبيين كذلك صيانة المسجد الذى شيده المسلمون فى عاصمتهم وتنظيفه واسراجه، مع معاملته باحترام وتقدير، وعدم منع أى شخص من الصلاة فيه. وعليهم تسليم إمام المسلمين سنوياً ٣٠٦ رأساً من العبيد الجيدين، غير المشوهين، متوسطى العمر. واذا فشل النوبيون فى الوفاء بأى من هذه الشروط «تصبح الهدنة ملغية ونعود الى حالة الحرب حتى يحكم

الله بيننا وبينكم، وهو أعدل الحاكمين..»[٨].

فى الاتفـاق الأول الذى عقـد مع البجـا، في حوالى نهـاية القرن السـابع الميلادى، وافق البجا على دفع ٣٠٠ رأساً من الابـل سنوياً، وذلك كجزية مقابل السماح لـهم بدخول مصر كـتجار مسافـرين وليس كمقيـمين. ونص الاتفاق، أيضاً، على التزام البجا بعدم قتل أى مسلم أو ذمى، وعدم إخفاء أى من العبيد المسلمين الفارين، والعمل على اعادتهم إلى سـادتهم، كما أشار أيضاً، الى إلزام البجاوي الذى يسرق نعجة أو بقـرة بدفع مقابل يتراوح بين ٤ الى ١٠ دنانير. ولضمان تنفيذ الاتفاق فرض على البجا تسليم مصر بعض الرهائن المهمين.

ويبدو أن هذا الاتفاق لـم يلبي رغبات البجا، فـبالاضافة الى مـصادماتهم المتقطعـة مع العرب المسلمين داخل السودان، فقـد إستمروا أيضـاً فى ممارسة عمليـات النهب والتخـريب فى مصـر العليا. وفى عام ٨٣١م تمـكن العرب من هزيمتهم وإجبارهم على قـبول إتفاقية أخرى، مشابهة، فى الكثـير من جوانبها للاتفاقية التـي عُقدت مع النوبيين، ولكنها أكثر قـسوة فى جوانب أخرى، وذلك يعنى تزايد نفوذ العرب المسلمين على البجا، مقـارنة بنفوذهم عند عقد الاتفاقية الأولى. فحسب هذه الاتفاقية أصـبحت أرض البجا وسكانها جزءاً من ممتلكات خليفة المسلمين، مع الإبقاء علي الملك حاكماً تابعاً، عليه دفع جزية سنوية تعادل مائة رأس من الابل أو ثلاثمـائة دينار، حسب مـايرى الخليفة. وعلى البـجا ان يذكروا الله والقـرآن ومحمد رسـول الله بالاحترام والتـقدير اللازمين، وأن لا يساعدوا أعداء الاسلام بأى طريقة، وعليهم، أيضاً، عدم قتل أى مسلم أو ذمى، وأن لايتعرضوا لهم فى أى مكان كانوا. واذا قام البـجا بقتل عربى واحد فقط، عليهم دفع عـشرة أضعـاف دية البجاوي العـادى وعليهم، أيضاً، دفع عـشرة أضعاف قـيمة أي مسروقـات، بالاضافة الى ارجاع عـبيد المسلمين وماشـيتهم الضالة. وبـجانب ذلك سمـحت الاتفاقـية للعـرب المسلمين بدخول أرض البـجا كمقيمين وتجار ومسافرين وحجاج، دون مضايقات أو معوقات، وألزمت البجا بعدم الاضـرار بأى من المساجـد التى شيـدها المسلمون، والـسماح للمـوظفين المسلمين بجمع الزكـاة والصدقات من الذين اعتنقـوا الاسلام. وسمحت للـبجا بدخول مصر، غير مسلحين، كمـسافرين وتجار، باستثناء مناطق معينة– «واذا فشل الـبجا فى الوفـاء بأى من تلك الشـروط، فان ذلك يعنى إلغـاء الاتفاقـية، وبالتالى يصبح المسلمون فى حلٍ من التزاماتها، ولهم حق مهاجمة البجا...»[٩].

وهكذا يتضح ان تلك الاتفاقيات كانت تستهدف تأمين مصالح العرب المسلمين وفتح بلاد السودان أمام تأثيراتهم ونفوذهم. فالعرب يمكنهم التحرك والاستقرار بحرية تامة فى جميع الأراضى التى شملتها الاتفاقيات المذكورة، بالاضافة الى ضمان حماية مصالحهم التجارية وحريتهم الدينية والشخصية. وبجانب هذه الآليات، التى تضمن لهم السيطرة على البلاد من بعد، ولكن بطريقة فعالة، فقد عملت الحكومة الاسلامية على إحترام إستقلال السودانيين فى إدارة شئونهم، وأحتفظت بحقها فى اللجوء إلى العنف ومواجهة أى محاولة لخرق الاتفاقية وعدم الوفاء بشروطها. وطالما، التزم السودانيون بتنفيذ شروط الاتفاقية، بقدر ما تركوا لادارة شئونهم بأنفسهم والعيش بسلام. وكان العرب يرسلون لهم بعض الهدايا والمنح، وفى بعض الاحيان قد يتساهلون فى تنفيذ شروط الاتفاقية، وذلك لكسب ودّ السودانيين ودفعهم للاستمرار في المحافظة على حالة الهدوء والاستقرار[١٠].

ومع أن السودانيين كانوا يتصادمون مع قوات الحكومة الاسلامية الرسمية، الا أن علاقاتهم مع العرب المسلمين، المقيمين معهم، لم تتأثر بذلك، بل حافظت علي إستقرارها السلمى والودى بشكل عام. وبحكم تفوقهم فى مجالات التجارة والأعمال، وتميز هويتهم، التى ضاعف من مكانتها، ارتباطها بالاسلام وامبراطوريته العظمى، تمكن العرب المسلمون، فى فترة وجيزة، من التزاوج مع الاسر السودانية القائدة. وعن طريق نظام الوراثة الامومى، السائد وقتها، استطاع أحفادهم وراثة مواقع قيادية وسط مجموعات أمهاتهم وأخوالهم، ومن ثم حولوا النظام الامومى الي النظام الأبوى السائد الآن. وبذلك استطاعوا تعزيز الهوية العربية الاسلامية وإدامتها بشكل ثابت ومستقر[١١].

لقد تأثرت الهجرات العربية للسودان وتعريب شمال السودان، أيضاً، بموقف العرب في الصراعات السياسية فى مصر والامبراطورية الاسلامية. فصعود المجموعات السياسية المختلفة «الطولونيين، الاخشيديين، الفاطميين، الأيوبيين والمماليك....» الى السلطة فى مصر كانت له نتائج هامة فى هذا المجال. وفى هذا الاطار كان لصعود المماليك، بشكل خاص، تأثيرات هامة، فصعود هذه المجموعة للسلطة، وهم عبيد العرب ومن أصل تركى، أدى الى تزايد الهجرات العربية للسودان، والى ظهور عملية معقدة من الاصطفاف وإعادة الاصطفاف بين المماليك والعرب والسودانيين. فى هذا المناخ القلق غير

المستقر، إنتشرت المؤامرات والمكايدات بين أفراد الأسر الحاكمة السودانية بهدف الصعود الى كراسى الحكم إستناداً إلى تحالف مع المماليك أو العرب. فعندما فرض المماليك ضرائب باهظة على السودانيين وعقدوا معهم إتفاقيات تضمنت بعض الفقرات المجحفة بحقوق العرب، قام الاخيرون باستغلال إستياء السودانيين من الضرائب الباهظة والتحالف معهم ضد حكام مصر من المماليك. ومن خلال استغلال القرابات الأسرية المطالبة بالسلطة الشرعية والاستفادة من المنافسة على السلطة وسط الاسر الحاكمة، نجح العرب فى توطيد مركزهم. وسط الاسر الحاكمة ومن ثم انتزاع موقع القيادة فى السودان. ومع بداية القرن الخامس عشر الميلادى، كان العرب قد إنتشروا فى داخل البلاد، جنوباً حتى عطبرة وغرباً حتى كردفان، وفى عام ١٥٠٤م قامت مملكة الفونج الاسلامية، في الجنوب الاقصى، بالتحالف مع عرب القواسمة بعد إسقاط الممالك المسيحية، التى تدهورت أوضاعها بمرور الزمن. وبتعريب السودان، بدأت مملكة الفونج تبسط هيمنتها علي عموم مناطق السودان، باستثناء دارفور، التى كانت تحكمها مجموعة تدعى أن أصولها عربية، رغم طغيان ملامحها الزنجية.

إن الطبيعة الذاتية المستقلة لعملية تعريب شمال السودان تؤكد أنها كانت عملية اختيارية لحدود كبيرة. ويمكننا أن نلاحظ بشهولة كيف تحول الزنوج، الذين خضعوا لسلطة وهيمنة العرب، بسرعة واضحة الى إعتناق الإسلام وتبنى العروبة. ففى مقابل الامتيازات الكبيرة التى كان يجدها من يعتنق الإسلام، ويتبنى العروبة، إذا أمكن ذلك، كانت هناك الخسائر والاضرار الكبيرة التى يواجهها الوثنى والاسود بشكل خاص. وذلك لان الاسلام يقسم العالم الى قسمين: "دار الاسلام" و"دار الحرب"[١٢] وطالما أن الاسلام يسمح بتغيير المكانة الاجتماعية عن طريق الاهتداء والتعريب، فإن إغتنام مثل هذه الفرصة ما كان يجد أي مقاومة تذكر، وبالاضافة الى ذلك كان السودانيون يرون فى تزويج بناتهم للعرب المسلمين إرتباطاً بمجموعة تتمتع بامتيازات كبيرة. ومن جانبهم كان العرب يرون في السودانى مدخلاً لاكتساب وضع إجتماعي يمكنهم من غرس جذورهم فى أرض السودان. وبما أن العرب، بشكل عام، قد وفدوا الى البلاد بدون نسائهم، والاسلام لا يسمح بزواج المرأة المسلمة من غير المسلم، فقد كان التزاوج فى اتجاه واحد فقط. ولكن لأنه لم

يركّب تركيباً فوقياً فقد بنى هذا التزاوج على أساس نظام القيم العربى الافريقى المشترك، الذى يقوم على نظام الأسرة والنسب الممتد. وهو نظام يرتبط بمجموعات، وفى هذا الاطار يحافظ علي هوية الفرد والمجموع، ويهدف الى تخليد الفرد عن طريق ذريته، ويقود الى نوع من تقديس النسب كمظهر من مظاهر الديانات الأفريقية التقليدية. ونتيجة لذلك أدت عملية الأسلمة والتعريب إلى تطوير نظام مجموعات النسب فى شمال السودان ليحمل أسماء مؤسسيها الأصليين وفى بغض الاحيان يربطون بمجموعات قبلية تحمل أسماء السلالة المهيمنة[١٣]. وهذه السلالات، كما هو معروف، يمكن متابعتها، بقفزات أو فجوات عديدة، الى الوراء حتى أصولها فى الجزيرة العربية والسلالات السودانية البارزة فى المجالات الدينية والسياسية ترجع بنسبها، فى العادة، الى الرسول العربى، محمد، أو أقربائه أو صحابته أو قبيلته، قريش[١٤].

إن عملية التعريب لم تنتشر فى البلاد بدرجة واحدة، فبعض المناطق شهدت درجة من التعريب أكثر أو أقل من المناطق الأخرى، مثل الفور الذين حافظوا علي ملامحهم وثقافتهم الزنجية أكثر من القبائل الشمالية الأخري[١٥]، والنوبة فى كردفان الذين لم يتأثروا كثيراً بعملية التعريب، والذين تأثروا منهم ظلوا محتفظين بثقافتهم السابقة بشكل أكثر من المجموعات الشمالية الأخرى[١٦]، ومع أن النوبيين فى الشمال قد تأثروا كثيراً بالثقافة العربية الاسلامية، إلا أنهم حافظوا على لغتهم جنباً الى جنب مع اللغة العربية، وكذلك حالة مجموعة البجا[١٧]، .هكذا فإن إحتفاظ الشمال بهويات مجموعاته السابقة يوضح لنا الطريقة التى إرتكزت بها عملية الاسلمة والتعريب على النظم السابقة لها. وهذه العملية ليست خاصة بالسودان وحده، لأن الإسلام، خلال مختلف عهوده، كان يطور نفسه من خلال تفاعله مع الأنظمة السابقة له[١٨]. اذ أنه لابد من إزالة الافكار والمؤسسات الإرواحية، فإنه يحجبها برموز إسلامية خارجية، أى «أن عباداته وطقوسه لا تحلّ محل الاديان الارواحية، بل تكملها..»[١٩]. وهذا المنهج لا يزال متبعاً من قبل المسلمين، فبينما يشتمل اعتناق المسيحية علي أوامر دينية كثيرة، كشرط للتعميد[٢٠]، فإن إعتناق الإسلام يتطلب فقط ترديد كلمات محدّدة، هى «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»[٢١] «وليس هناك أى شروط أخرى، وليس مهماً ان كان الشخص المعني قد سمع، أو لم يسمع، قبل ذلك، بمكة أو حتى القرآن»[٢٢]

في مجرى هذه العملية، وفي نقطة ما، تغلبت القيم والمؤسسات الاسلامية على مفاهيم وممارسات النظم السابقة، بشكل بدا وكأن الثانية قد عززت مكانة الأولـــى[٢٣]. وهذه المرحلة هي التى كـانت فى ذهن جـاك ماندلسـون Jack Mandelsohn عندما أشار الى أن السودانيين الشماليين «قد مارسوا عبقريتهم من أجل الاستيـعاب، وذلك عن طريق اعادة تشكيل دين الرسول مـحمد بشكل يتناسب مع أذواقـهم أكثر من رغـبات علماء اللاهـوت»، «غنّوا و رقصوا فـيه، ووثّنوا جـزءاً كبيـراً منه، ولكنهم التـزموا، دائمـاً، الحقـيقة الخـجولة بوحـدته المتأصلة تحت حكم الله الواحد الأحد»[٢٤].

وهكذا، أصبح الاسلام مرتبطاً بالمجتمع المحلى وابتعد، بسرعة كبيرة، عن إعتباره شيئاً غريباً، وذلك من خلال إعترافه بالنظام التقليدى السابق له والبناء على أساسه، ونظرة سريعة للسودان الشمالى اليوم تكشف لنا «أن الاسلام قد ملأ حياة الأهالى واكتسب موقعاً متماسكاً، وأصبح يمثل حاجزاً منيعاً فى وجه التأثيرات الدينية الأخرى»[٢٥].

لقد كـان استيـعاب الاسلام عنصر تـعزيز، حيث تكون الانماط التـقليدية مشابهة للمبادىء الاسلامية، كما هو حال العلاقة بين الدين والنظام العام، وفى أفريقـيا التـقليدية، تشـمل المعتقـدات الدينية «الميـتافـيزيقيـا والكوزمولوجـيا، بالاضـافة الى نظرية الاخـلاق والدين»[٢٦] وموقف الاسـلام يتضـمن، أيضاً، لسياسة، كجزء لا يتجـزأ من النظام الاسلامى. وهكذا، «الحكومة الاسلامية لا يمكنها أن تفصل الجانب الدنيـوى من الجانب الدينى فى الحياة»[٢٧]، ولذلـك كان موقف الثـقافة الشماليـة صلباً، بحيث تمكن من الصمود والبـقاء فى وجه التوجهات العلمانية للادارة الاستعمارية البريطانية.

(ج) حماية الاسلام والتعريب فى الشمال:-

إن ارتباط هوية شمـال السودان بالاسلام والثقافة العـربية لم يكن، فقط، نتيجـة احتكاكات مبكـرة مع العرب، بل كان، أيضاً، نتـاجاً للسياسـات الحديثة التى انتهجـها الحكم التركى المصرى والإدارات السيـاسية اللاحقة. فـقد كانت السياسات الحكومية ترتكز، باستـمرار، على تمايز وإختلاف الجنوب والشمال، والتنوع الدينى الذى يقـف خلف هذا التمـايز والاختـلاف. نتـيجـة لذلك، ظلت «السياسة والدين فى السودان مترابطين لا ينفصلان»[٢٨] وفى معظم الاحيان كانت الاعتبارات الدينية تجد القدح المعلى[٢٩].

لقد كان الحكم التركى المصرى يمثل إستثناءً، فى الدرجة فقط، بالنسبة للسياسات التى توجهت لحماية وتشجيع الاسلام والتعريب فى السودان. فالحكام لم يكونوا يتحدثون العربية بشكل جيد، كما أنهم لم يكونوا يمارسون الاسلام بالطريقة الاصولية التى يلتزمها السودانيون. ولكن، للمفارقة، إن الإسلام أصبح أداة للتوحيد والاندماج الوطني وسلاحاً أخلاقياً لمحاربة ومقاومة مفاسد الحكم التركى، كما أصبح التعريب مكوناً هاماً فى هوية السودانيين. فالحكام الاتراك/المصريون، بعكس الغرب، جاءوا منذ البداية، كقوى استعمارية، حيث قام محمد على باشا، الألبانى الاصل وممثل الامبراطورية العثمانية مصر، بغزو السودان فى عام ١٨٢١م، لأهداف واضحة ومحددة من بينها ملاحقة خصومه المماليك الذين هربوا الى داخل السودان. وكان، أيضاً، يستهدف الذهب والعاج ومصادر الدخل الأخرى فى البلاد. والهدف الذى عبر عنه بوضوح شديد تمثل فى الحصول على جنود للجيش المصرى من الزنوج الاقوياء. فقد كتب فى وقت لاحق لممثله فى السودان، يقول «إنك تعلم هدف كل جهودنا وأنفاقنا هو الحصول على الزنوج، الرجاء زيادة حماسكم لتحقيق رغبتنا فى هذا الموضوع..»(٣٠) وهكذا، تحولت كل هذه الاهداف المتعددة الى سيطرة استعمارية قاسية، واجهها السودانيون بالرفض والاستياء. تحرك جيش محمد على باشا، المكون من عناصر غير عربية، ألبانية وتركية، بشكل عام،إلى داخل السودان بقيادة ابنه إسماعيل، وكان جيشاً متفوقاً فى أسلحته ولم تستطع مقاومة السودانيين ايقاف زحفه، رغم بسالتها وقوتها. وبذلك تمكن من إنهاء حكم سلاطين الفونج وتأسيس الحكم التركى المصرى، الذى شملت سلطته فى البداية معظم مناطق الشمال وضُمت اليها دارفور فى عام ١٨٧٥.

كانت الطريقة التى بدأ بها الحكم التركى المصرى تأسيس نظامه قد تحددت فى رد فعله تجاه إغتيال إسماعيل إبن محمد على باشا، نتيجة اساءته للزعيم المحلى، نمر محمد نمر، زعيم قبيلة الجعليين. فقد طلب اسماعيل ٣٠٠٠٠ دولار و٦٠٠٠ رأس من العبيد خلال يومين فقط، ولكن الملك نمر اعترض بحجة ان قبيلته لا يمكنها تقديم مثل هذا المبلغ الكبير خلال الوقت القصير المحدد. وتقول رواية الجعليين ان الباشا احتد فى النقاش وإشتد غضبه «فقام بضرب الملك في وجهه بغليونه، وكان رد فعل الملك نمر عادياً. وفى

المساء قـام بقتل إسمـاعيل ومعـيته. وتبع ذلك إنتـشار ثورة عارمـة في معظم مناطق الشـمـال[٣١] وكان رد فعل الحكومـة سريعاً وحاسمـاً. فـخلال عامين متـواليين قام الدفتردار، زوج بنـت محمد على باشـا، بأبشع عملية إنتـقام في تاريخ البلاد، شـملت القتل العـشوائي والتدمـير والتخـريب، وظلت ذكري هذا العـمل الوحشي حـية حـتى إنفجـار الثورة المهـدية في عام ١٨٨١ وبعـد هذا العرض الوحشي لوجه السلطة الجديدة، لم تواجـه الادارة التركية في السودان تحـدياً طوال سنواتها السـتين»[٣٢]. ولكنهـا لم تنجح قط في كـسب ثقـة أهل البلاد.

كـانت الادارة التـركيـة المصـرية منظمـة على شكل تسلسل هرمي، ركـز السلطة، بشكل كـبيـر، في أيدي الحـاكم العام، الذي تضـاعف نفوذه وتأثيـره نتيـجة لبعـده عن القاهرة. وكانت الحكومـة المصرية قد قـامت بمحاولتين في ١٨٤٣ و ١٨٥٧، لتوزيع السلطة على أساس نظام المحافظات، ولكنها لم تنجح وفي الوقت نفسه لم يكن الخديوي، رئيس الحكومة في القاهرة، يثق كثيراً في حكام الخرطوم. لذلك كان يقوم تبديلهم من وقت لآخر، بهدف إختبارهم، الأمر الذي تسبب في عدم إستقرار الحكام وعدم تأكدهم من البقاء في مناصبهم في أي لحظة. لنفس السبب، كان الاعتماد على الجيش كبيراً في مجال حفظ النظام وضمان السـيطرة، وقد أدى كل ذلك، في النهاية، إلى تأكيد المركزيـة وسياسة العنف والقـمع، لذلك قـامت السلطة الحـاكمـة بالمحـافظة على النظام القـبلي وتقويته وإستخدامه لأغراضـها. ولكن زعماء القبائل تحولوا الى أبواق للسلطة المركزية، وأصـبح وجود الزعـيم القادر على المحافظة علـى إستقـلاله وتأثيره وتقديره وسط قـبيلته إستثناءً نادراً، ونـتيجة لذلك «فجع السـودانيون، بأسى عميق، لفـقدان إستقلالهم القـبلي لصلحة حكومة أجنبيـة، غير محتـرمة، تقوم سياسـتها على النهب ومطالبة الشعب بما يفـوق طاقته»[٣٣] فقـد كان مـصدر الحكومة التـركية المصرية الرئيـسي لدخلها في السودان يتمـثل في الضرائب، وهذا مـا آدى الى استـياء وسـخط الأهالي[٣٤]، وذلك لأن «.. الاتراك كـــانوا يتدخلون في كل شيء، ويفرضون ضـرائب علي كل شخص .. كان السلاطين، وخلفاؤهم، الفترات، يفـرضون من الضرائب مايكفي لتسيـير خدمات دولتهم البسـيطة، أما الأتراك المصريون فـقد عمـلوا على الحصول على ضـرائب فوق طاقة السودانيين... وبتطبيق نظام جديد للضرائب، لم يجربّه السودان من قبل،

وقد أدخل الحكم التركى الفوضى فى حياة البلاد الاقتصادية»[٣٥].

وفى المجال الدينى، اتّبع الحكم التركي المصرى الاسلام الا رثوذكسى، وادخل نظام المحاكم الدينية لتطبيق احكام الشريعة، أو القانون الاسلامي، بدلاً من القانون والاعراف القبلية والمحلية. وكان ذلك بالنسبة للسودانيين، بمثابة فرض قانون أجنبى عليهم، لأنهم كانوا يعتقدون في إسلامية قانونهم وأعرافهم التقليدية، رغم أنها كانت نتاج تفاعل بين المبادىء الاسلامية والقانون والاعراف التقليدية السابقة[٣٦]. وكانوا، عملياً، يرون أنهم أكثر تمسكاً بالاسلام من الحكومة التركية المصرية، التى يصعب تمييز إسلامها فـ «المستوى المتدنى لاخلاقيات موظفى الحكومة التركية، عند محاكمتها بالمقاييس الأصولية للاسلام الشعبى، كان يقابل بالاحتقار والأستياء وسط السودانيين»[٣٧].

المهم كانت المسألة الأساسية فى النزاع والخلاف بين الشماليين والحكم التركى تتمثل فى محاولات الحكم التركى الاخيرة منع تجارة الرقيق[٣٨]، فقد كانت حملات جلب الرقيق، كما ذكرنا سابقاً، فى مقدمة أهداف غزو محمد على باشا للسودان. وخلال عهد الخديوي إسماعيل أُضطرت الحكومة التركية، تحت ضغط الحكومة البريطانية، إلى إتخاذ إجراءات محددة فى إتجاه منع حملات وتجارة الرقيق، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً. وهذا الفشل كان يرجع، فى جانب من جوانبه، إلى حقيقة أن الحكومة ظلت مستمرة فى فرض ضرائب باهظة على السودانيين. وذلك لأن فرض المزيد من الضرائب كان يعنى ضرورة إستمرار تجارة الرقيق. فالشماليون كانوا يرون أنه ليس من المنطقى أن تُفرض عليهم ضرائب باهظة، غير عادلة، في الوقت الذى يحرمون فيه من مصدرهم الرئيسى للدخل، باعتباره نشاطاً غير مشروع، وهم ينظرون لهذا النشاط كـ «نشاط مشروع ومصدر شريف للربح، وينظرون إلى كل محاولات منعه باعتبارها تدخلاً غير عادل وغير مبرر فى عرف أقرّه القرآن الكريم وفى عمل مشرّف ومقدس»[٣٩].

قادت هذه العوامل، فى مجملها، الى سلسلة انتفاضات وتمردات، كانت الحكومة قادرة على سحقها فى البداية بسياسة العنف والقمع. ولكن مثل هذه السياسة كانت، فى الواقع، توفر المزيد من العوامل والشروط لانتفاضات وتمردات أخرى. وهكذا، تضافرت عدة عوامل، تمثلت فى: تدهور الاقتصاد

المصرى، تدنى الروح المعنوية للجيش المصرى في السودان وضعف مرتباته، إستياء السودانيين من الجيش المصرى الخ... كل هذه العوامل تضافرت لتؤدى الى تفجر الثورة المهدية فى عام ١٨٨١، كحركة وطنية شعبية وحّدت عموم شمال السودان وامتد تأثيرها الي الجنوب.

كانت المهدية، بشكل أساسى، ثورة اسلامية ووطنية، إستطاعت أن تفجّر طاقات هائلة مكنت السودانيين من مواجهة أسلحة الجيش التركى المتفوقة بالحراب والسكاكين، ومن الانتصار عليه معركة بعد معركة حتى اسقاط الخرطوم فى مطلع ١٨٨٥ وقتل غردون باشا، وبالتالى انهاء الحكم التركى المصرى واقامة دولة المهدية[٤٠]، ومع ان المهدى لم يعش طويلاً ليجنى ثمار انتصاره الاعجازى، فقد واصل الخليفة عبدالله، الذى خلفه، فى حمل الرسالة، وبدأ فى تطبيق الشريعة الاسلامية بشكل حرفى، وشرع فى نشر الرسالة المقدسة[٤١]، وكان هدف المهدية يتمثل فى ضم كل بلدان العالم الى دار الاسلام. وبالفعل شرع الخليفة فى الاتصال بعدد كبير من حكام العالم، من بينهم الملكة فكتوريا، ملكة بريطانيا، وطلب منهم الاستسلام أو مواجهة الحرب[٤٢]. وفى عام ١٨٩٨م تجمعت عدة عوامل أدت إلى سقوط دولة المهدية وإستعادة السودان بواسطة الجيش المصرى الانجليزى، تحت قيادة كتشنر. كان البريطانيون فى البداية، غير راضين فى توريط انفسهم فى السودان، ويركزون فقط على إصلاح وتطوير الوضع الاقتصادى فى مصر، ولكنهم وافقوا، فى النهاية، لايقاف الجيش الفرنسى الزاحف من الجنوب لاحتلال السودان وضمها للامبراطورية الفرنسية. ولولا ذلك لكان من المحتمل ان لا يوافقوا على إستعادة السودان، لأن سيطرة الفرنسيين على أعالى النيل ستهدد المصالح المصرية وبالتالي المصالح البريطانية[٤٣].

لقد كانت بريطانيا الحاكم الفعلى للسودان، من خلال ماسمى الحكم الثنائى الانجليزى المصرى، الذى أُعلن بعد انتصار قوات كتشنر مباشرة. ومنذ البداية عملت الادارة البريطانية على الاعتراف باسلام وعروبة الشمال وحمايتها. فاذا كانت دولة المهدية قد سقطت، فإن التقاليد الاسلامية، التى تربط السياسة بالاسلام، ظلت حية ومستمرة. ومن هنا، شعرت الحكومة بضرورة بناء سياساتها العملية على هذا الأساس، إذا أرادت أن تكون مقبولة وفعالة. لذلك «قرر انه طالما القطر مسلم، فان حكومته يجب اعتبارها مسلمة»[٤٤].

وهكذا أصبح يوم الجمعة، وليس يوم الاحد، يوم العطلة الاسبوعية الرسمى، وقررت الحكومة، كذلك، استبعاد الارساليات المسيحية من الشمال، وفى وقت لاحق سمح لها بالنشاط فى بعض المدن الشمالية، التى كان يتواجد فيها مسيحيون من أوربا وبلدان الشرق الأوسط، وأُشترط عليها عدم القيام بمحاولات لتنصير الشماليين، مع السماح لها بتقديم خدماتها التعليمية والصحية فى أوساطهم. وقد عبّر القنصل العام فى مصر، وقتها، لورد كرومر، عن دوافع هذه السياسة فى الكلمات الآتية: «فى الجزء الشمالى من السودان، ليس من الممكن الآن تبنى سياسة ليبرالية ومتسامحة، كتلك التى أُتبعت في مصر، بدون التعرض لاخطار كبيرة... فاذا ما تركت الارساليات المسيحية لتعمل بحرية، فان ذلك لن يكون فقط غير مفيد فى النهاية، بل من المحتمل أن يتسبب فى اضطرابات حقيقية، قد تدفع عملنا الحضارى هذا كله الي الوراء، بدلاً من تطويره وترقيته، وهو أمل يعمل كل من ارتبط بهذا القطر، سواء كان مرتبطاً أم غير مرتبط بنشاط تبشيرى، على تحقيقه فى ارض الواقع»(٤٥).

وفى حديث الى جمهور شمالى فى عام ١٩١٤، أكد الحاكم العام أن سياسة حكومته تعمل على دعم وتشجيع الاسلام، حيث قال «اشهد الله، أننا تفقدنا الاماكن المقدسة فى الخرطوم خلال الأسابيع القليلة الماضية، وأننا دعمنا وساعدنا رجال الدين، وبنينا وساعدنا فى بناء مساجد فى كل انحاء القطر، وأن القضاة وغيرهم قد تلقوا تعليماً مجانياً وشاملاً فى القرآن والعقائد المحمدية»(٤٦).

ولكن السياسة البريطانية المؤيدة للعرب والاسلام واجهت أزمة فى ما يتعلق بالنظام القانونى.. فقد «وجدت أنه ليس هناك نظام عدلى يستحق هذا الاسم قد أسس فى القطر»(٤٧) ،من جهة أخري اكتشفت أنه «ليس هناك حكومة اسلامية يمكن أن تفصل الجانب الدنيوى من الجانب الدينى للحياة»(٤٨) فالنظام الذي انشىء كان حلاً وسطاً، إتجه فى القانون الجنائى الى سن قانون عقوبات، عبارة عن تكييف للقانون الهندى، المرتكز، هو الآخر، على القانون الانجليزى، حتى يتناسب مع ظروف السودان(٤٩).

أما القانون المدنى، القانون الأساسى فى القطر، فقد ارتكز على القانون الانجليزى المستورد لتطبقه المحاكم المدنية(٥٠) وفى الأحوال الشخصية، مثل

الورثة والزواج والطلاق وعلاقات الاسرة والأوقاف وغيرها، فان قانون القضاء المدنى لسنة ١٩٠٠ «أعيد سنّه فى عام ١٩٢٩» قد اشترط أن «المحاكم المدنية سوف لن تكون مؤهلة لتقرر فى دعوى كل أطرافها مسلمون، إلا بموافقة كل هذه الأطراف» وحسب القسم السادس من قانون محاكم القانون المحمدى، تقع مثل هذه المسائل تحت سلطة المحاكم الشرعية، وتحكم بأحكام الشريعة الأسلامية، وفي المجتمعات القبلية الشمالية، حيث يمتزج القانون العرفى مع الشريعة الاسلامية، قامت الدولة بتأسيس المحاكم المحلية لادارة شئونها القانونية.

وفى مجال التعليم، قامت السياسة البريطانية على ..«طالما أنه ليس هناك حكومة إسلامية تفصل الجانب الدنيوى عن الدينى للحياة، وخاصة فى مجال التعليم، فان النظام التعليمى يجب أن يرتكز على الاسلام،بدلاً من أن يكون علمانياً»(٥١) وفى المدارس الحكومية، يدرس الدين الاسلامى كجزء من المنهج العام، أما المدارس السودانية الخاصة، فأما أنها كانت تدرس العلوم الاسلامية، بشكل رئيسى، أو أن هذه العلوم كانت تمثل جزءاً هاماً من برنامجها. أما السياسات البريطانية تجاه الجنوب، كما سنرى لاحقاً، فقد كانت مختلفة، لان الجنوب ظلّ وثنياً بشكل عام، بجانب أقلية مسيحية متعلمة. المهم أن المشكلة الأساسية، التى واجهت السودانيين بعد الاستقلال، تمثلت فى الدور الذى سيلعبه الدين فى دستور البلاد الجديد. وفى هذا الخصوص، يقول قاضى القضاة، رئيس قسم القضاء الشرعى فى النظام القانونى، فى مذكرة للجنة الدستور، مايلى: «فى بلد مسلم مثل السودان، بنيت تنظيماته الاجتماعية على التقاليد العربية والمبادىء الاسلامية وأغلبيته تعتنق الدين الاسلامى، من الضرورى أن ترتكز مبادىء دستور مثل هذا البلد على مبادىء الاسلام... و .. بالتالى فان القوانين، التى تحكم شعبه، يجب أن تستوحى من مبادىء دستور اسلامى وبما يتماشى مع المثل الاسلامية التى صاغت مثل هذا المجتمع»(٥٢).

وبالطبع، لايتفق كل الشماليين مع مثل هذا الدستور المقترح، ولكن العقبة الاساسية كانت تتمثل في معارضة الاعضاء الجنوبيين ورفضهم لأى دستور دينى.. .الواقع أنه، حتى صعود نميرى للسلطة، ظلّ الدين يلعب دوره فى الاحزاب السياسية. وكان الصراع من أجل السلطة يتركز، بشكل رئيسى، حول قيادتين دينتين مبجلتين وقويتين :السيد على الميرغنى الذى كان يقود طائفة

الختمية، والسيد عبدالرحمن المهدى زعيم الانصار.
وهكذا ظلت عملية الاسلمة والتعريب، التى تمتد جذورها الى القرن السابع الميلادى، تجد الحماية والتشجيع، طوال مختلف مراحل تاريخ السودان الشمالى، وحتى الحكومة الكولونيالية البريطانية، غير المسلمة، واصلت السير فى هذا الاتجاه. وجاءت حكومات مابعد الاستقلال لتخطو خطوات أكثر، وتمدّ عمليتى الأسلمة والتعريب الى جنوب القطر، بأمل تحقيق تماثل ثقافى ووحدة وطنية... ولكن هذا التطوير يمثل مرحلة معاصرة فى المواجهة الطويلة بين الجنوب والشمال، سنناقشه فى الفصل القادم.

الهـوامــــش

(١) Yusuf Fadl Hasan, op. cit. p.3.

(٢) MacMichael, op. cit (1922) 13.

(٣) Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 10.

(٤) Abdel Fatah Ibrahim Baddour, Sudanese Egyptian Relations, (The Hague, M. Nisheff, 1960) 17. يشير الى أن النوبيين (قاموا بعدة حملات عسكرية ضد مصر وخربوا اطراف مصر العليا..)

(٥) عبدالله بن سعد «قام بقذف مدينة دنقلا، عاصمة النوبة السفلى، بالمنجنيق وفرض عليها حصاراً» نفس المصدر السابق.

(٦) Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 2.

(٧) أهل الكتاب هم اليهود والمسيحيون الذين يعيشون تحت حماية المسلمين.

(٨) حول نصوص الاتفاقية انظر، Abdel Fatah Ibrahim Baddour, pp.17-20 و يوسف فضل ٢٢-٢٤

(٩) Abdel Fatah, p. 21, Yusuf Fadl Hasan, p. 31

(١٠) خلال عهد الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥)، مثلا، اشتكى النوبيون من ارسال البقط (الجزية) بشكل منتظم لان جمع الرقيق يتم عن طريق حملات دورية في مناطق الزنوج في الجنوب البعيد، وفي حالة فشلهم في ذلك فانهم يضطرون الى ارسال ابنائهم- ولتخفيف هذا العبء وجهم المهدي بارسال البقط مرة كل ثلاث سنوات. وفي فترة لاحقة تباطأ النوبيون وتراخوا في الوفاء بالتزاماتهم، فأوقف العرب ارسال الهدايا والمنح لزعمائهم وهددوا بشن حملات على النوبيين اذا لم يقوموا بدفع متأخرات ١٤ عاماً. وقام النوبيون بمناقشة الأمر، وأرسل ملكهم، زكريا بن ياهنوس، إبنه وزعيم البجا الى بغداد لعرض قضيتهم أمام خليفة المسلمين، الذى قابلهم بكرم وترحاب وأمر بشطب متأخرات البقط وحملهم بالهدايا والمنح.

وفى عام ٨٥٤م رفض البجا، في عهد الملك على بابا، دفع الجزية، وقتلوا الموظفين المسلمين والعرب العاملين فى منطقة المنلجم، كما قاموا بمهاجمة مصر العليا ونهب بعض مدنها وطرد سكانها منها، وفي الحال أمر الخليفة جعفر المتوكل على الله والى مصر بمعاقبة المتمردين... وارسل الوالي حملة بقيادة محمد بن عبدالله القيمي، استطاعت، بعد قتال عنيف، هزيمة البجا، واجبار ملكهم على الاستسلام واعلان التزامه بشروط الاتفاقية السابقة وبعدم العودة الى خرقها مرة أخرى، وقام قائد الحملة باستقباله باحترام وتقدير وقدم له هدايا ثمينة ودعاه لزيارة مصر ثم بغداد لمقابلة الخليفة.

(١١) وبالفعل، كما أشار يوسف فضل حسن «ليس هناك مايشير الى أن حكام المسلمين فى مصر قد أبدوا آى حماس لنشر الاسلام فى السودان، باستثناء اشارة واحدة

فقط فى عهد الفاطمـيين. فانتشار الاسلام في السودان كان، بشكل رئيسى، نتـيجة للتفاعل والتعـامل السلمى من قـبل التجار الـعرب والمجمـوعات العـربية التى اسـتقرت فـي البلاد وتزاوجت مـع السكان المحـليين» The Arabs and the Sudan, p.18 انظر ايضـاً The Penetration of Islam in the Eastern Sudan, S. N. R. No. XLIV, (1963)1-8

حيث يقول يوسف فـضل حسن، أيضاً، «ان الحكام المسلمين في مصـر لم يعملوا على نشر الاسلام بحماس تبشيرى فى أرض النوبة والسودان الشرقى»،٢.

(١٢) S.N. R., XXIV, (1941), 189 تحـتـوى على قـصـة صـدام مع احـدى الحمـلات العربية لجلـب الرقيق من الجنوب، ترجع الى عـام ١٩٠٩م، كتبـها الكابتن R.C. Greenwood وبقراءتها يمكن ان نرى أن نظرة العرب المسلمين للأسود "الوثنى البدائى" قد إنحطـت به الى مستـوى أدنى من البشـر. أما سـلاطين باشا، النمـساوى الأصل، الذى أصبح مسلماً وخدم الحكم التركي المصرى، ثم عاد اسيراً فى دولة المهدية، وبعد ذلك أصبح موظفاً كبيراً فى إدارة الحكم الثنائي الانجليـزى المصرى، فقد كتب فى خطاب شخصـى، فى بداية التـدخل البريطاني، مـايلى :«لقد إسـتغـربت كثـيراً من كـما جـاء فى خطابكم للأمـير فـرنسـيس تيك Francies Y. Teck الذى وصـلنى عن طـريق الجنرال رونـرال روندل Runeral Rundle، حول عدم تقدير صاحبة الجلالة ملكة انجلترا للموقف الذى اتخذته من قـضيـة الرقيق.. إننى لا أشك أن صـاحبـة الجلالة تجـهل الطبائع الشـريرة والفـاسدة للاعراق الزنجـية، التي نحاول عبـثاً أن نرفعهـا الى مستـوانا... هؤلاء الخنازير، المنبوذون، لايستحقون ان يعاملوا كرجال لأحرار مستقلين»

Richard Hill, Slatin Pasha, (London, Oxford Univ. Press, 1965), 55.

(١٣) فى مـقـالـة حـول الهـدندوة نـشـرت في S. N. R., XX, 2, (1937), 147-208 لاحظ Owen محاولة الهدندوة في بعض ممارساتهم في البحث عن اصول عربية. وفي مـقال الرباطاب في 162-167, كـتب F. C. S. Lorimer يقول أن الرباطاب (يدعون أنهم عباسيون اصلاء ينحدرون مباشرة من العباس، عم الرسول، أى من فرع بنى العباس فى قبيلة قريش، قبيلة الـرسول..) وعلى أى حال، فان ماكمايكل يرفض هذا الادعاء. حول الاسـر والمجموعـات المختلفـة التى تدعى الانتماء الى سـلالات من الجزيرة العـربية، انظر يوسف فضل، مصدرسابق.

(١٤) هذه النقطة أشارت اليها، دون اختلاف، كل الدراسات الخاصة بالقبائل الشمالية، نوهنا إلى بعـضـها فى الصـفـحـات السابقـة -للمـزيد انظر G. E. R. Sandars, "The Amarar', S. N. R., XVIII, 2, (1935). 195-219..

كتب ساندرز يقول «لقد بذل الامـرار جهداً مقدراً، تماماً كما فعلت مـعظم قبائل البجا، لدفن تاريخـهم السابق لاعـتناقـهم الاسلام، ولكن، رغم أنهم قـدموا سـلسلة نسب تربطهم بأنقى الدماء العربية، إلا أنهم يعترفون بأصـولهم المحلية البجاوية، وهم الآن يذكرون شيئاً من تاريخهم السـابق للاسلام» ص ١٩٨ ويدعون أن جدهم الكبيـر «رجل من الكواهلة، جاء وتزوج من امرأة من السكان المحليين... الخ» نفس المصدر.

(١٥) يصف آركل الاثار فى دارفـور ويشـيـر الى أن روابط المنطقـة بممـالك غـرب

افريقيا لها جذور عميقة، وان أهل دار فور قبلوا الاسلام لاعتبارات تتعلق بالمصالح والنفوذ، وأن الاسلام دخل الى هناك عن طريق غرب أو شمال افريقيا أكثر من مصر والشرق
A.J. Arkell, The History of Darfur 1200-1700, S. N. R., No. XXXII, Parts 1 and II, 1951, pp. 37-70.
أيضـــا) G. D. Lampen, History of Darfur, S. N. R., XXXI, 2, 1950, pp. 177-209

(١٦) يقـــول R. c. Stevenson «أن تغلغل الاسلام في حـياة النوبة اتبع عـمليات التسرب التدريجي والتوفيقية الغادية التى سبق رشحها مع قبائل أخرى- فالجوانب الثقافية تأسملت جزئياً، أو أعـيد تشكـيلها أو ظلت كـما كانت، مـع احتفـاظها بطابع اســلامى» فى السودان في مذكـرات ومدونات العدد S.N.R., XLIV, (1963), 9-20. تحـت عنـوان "بعض جوانب الاسلام في مناطق جبال النوبة".

(١٧) MacMichael, op. cit, 1,35.

(١٨) يبدو ان نفس العملية قد تمت فى كل انحاء افريقيا.. انظر
Heintzen, The Role of Islam in the Era of Nationalism, in :- The New Forces in Africa, 1962, p. 42.
بالنسـبـة للوضـع فى شـرق أفريقـيـا، أنظر Trimigham, J. S., Islam in East Afirca, (Oxford Clarendon Press, 1964), pp. 39, 61-63, 74, 163-164,
أنـظر أيـضـــا) Anderson, J. N. D., Tropical Africa Infiltration and Expanding Horizon, in:- Unity and Diversity in Muslim Civilization, Oxford, 1955, 263.

(١٩) Heintzen, op. cit, 44.

(٢٠) C. D. Farran, Matrimonial Laws of the Sudan, (London, Butterworth 1963), 228.

(٢١) Ibid, J. S. Trimingham, The Christian Approach to Islam in the Sudan, (London, Oxford Univ. Press, 1948), p. 34, Farran, op. cit., 277.

(٢٢) Farran, p. 227.

(٢٣) Anderson, op. cit., p. 265. Heintzen, op. cit., p. 42.

(٢٤) J. Mendelsohn, "God, Allah, and Juju, Religion in Africa Today", London, Nelson, 1962, 102.

(٢٥) J. S. Trimingham, "The Christian Church in Post-War Sudan (World Dominion Press, 1949), 23. أيضاً، لاحظ ترمنجهام أن ...(... الاسلام دين يجمع معتقدات دينية متعارضة ملتـحمة فى نظام موحد، فالعنصر النبوى يمنح شرعية وتماسكاً للدين الشعـبى الشرقى والافريقى عندمـا يتم استيعـابه، والاسلام، كقوة روحـية، يمثل غطاء سطحيـاً، ومع ذلك فان الارتباط بالنظام لها قدرة عـالية على أن تستدعى مـقدماً

شعوراً بالتفوق الدينى، والاخلاص والطاعة العمياء، والتعصب الأعمى فى الانصار الذين لا يعملون أى شىء عن معتقداته ولم يتقيدوا قط بتعاليمه ووصاياه..).
Christian Approach to Islam in the Sudan, London, 1948, p.44.

(٢٦) Thomas Hodgkin, Nationalism in Colonial Africa, (New York Univ. Press 1927) p. 95.

وكما يقول تيلر «لاتميز يمكن ان يحدد بين الدينى والدنيوى، بين الطبيعى وفوق الطبيعى، لان الطبيعة والانسان وماوراء الطبيعة كلها، متلازمة ومترابطة مع بعضها البعض فى مجتمع كلى». J. V. Taylor, Primal Vision, London, 1963, p. 72

(٢٧) Trimingham, The Christian Approach op. cit, p. 25.

(٢٨) U.S. Dep. of State, op. cit., 12.

(٢٩) Ibid

(٣٠) Richard Hill, Egypt in the Sudan 1820-1881, (London, Oxford Univ. 1959), p. 13.

(٣١) Ibid, p. 16.

(٣٢) Robert Collins, The Southern Sudan 1883-1898, A Struggle for Control, (Yale Univ. Press, 1962),p. 14.

(٣٣) Ibid.p. 21

(٣٤) Ibid.p. II

(٣٥) Ibid.p. 14.

(٣٦) نتيجة للطريقة الانتقائية لعملية الاسلمة التى ناقشناها قبل قليل، لاحظ فران Farran ان.«معظم، ان لم يكن كل، القبائل ذات الصلة قد حولت إلى الاسلام منذ فترة طويلة، ونتيجة لذلك، وعن طريق عملية تغيير تدريجى، من الممكن افتراض ان عاداتها السابقة لاسلامها قد اندثرت وأن تعاليم الاسلامية قد حلت محلها... كعادات للقبائل ذات الصلة ... وماتطبقه المحاكم المحلية فى شمال السودان، فى الواقع، ليس قانوناً محمدياً صافياً... لكنه قانون محمدى مطعم بعادات وتقاليد محلية» .op. cit, p. 254
وفى اشارة الى نفس عملية الدمج والاستيعاب فى اجزاء أخرى من أفريقيا، يقول بروفسير اندرسون«ان القانون الاسلامى لم يتجاوز قط الاعراف والقوانين المحلية، ولكنه أما أن تعايش معها كنظام منفصل ومتميز، كل منهما يطبق فى الحالات المناسبة أو ان يندمج فيها فى مركب واحد قد يسمى "قانوناً اسلامياً" أو "عادات وقوانين محلية؛ ..حسب الذوق أو الممارسة المحلية» .op.cit., 153

(٣٧) Ropert O. Collins, op. cit, p. 13.

(٣٨) هذه النقطة أكدها رتشارد قرى فى R. Gray, in:- A History of the Southern Sudan, 1838-1889, London, 1961

(٣٩) Richard Hill op. cit., p. 102.

(٤٠) راجع Francis R. Wingate, Mahdism and the Egyptian Sudan,

Holt, P. M., The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, 1891كـــذلك,
(London Oxford Univ. Press, 1958), A. B. Theobald, The Mahdiya,
A History of the Anglo-Egptian Sudan, 1881-1899.(London,
Longmans, 1951)

P. M. Holt, op.cit. (٤١)

Muddathir Abdel-Rahim, Imperialism and Nationalism in the (٤٢)
Sudan 1898-1956 (London, Clarendon Press, 1969) 89

G. N. Sanderson, England, Europe and the Upper Nile, (٤٣)
1882-1899, (Edinburgh, Univ. Press, 1965) ; R. O. Collins, King
Leopold, England and the Upper Nile (New Haven, Yale Univ. Press,
1968);; J. A. S. Greenville, Lord Salisbury and Foreign Policy,
(London, Oxford Univ. Press) 1964,
Muddathir Abdel-Rahim, op. cit., p. 24.
A. B. Theobald, the Mahdiya, op. cit
Mekki Shibeika, The Independent Sudan, (London, Paterson,
1960),Chapter XIII to XVI ; R. Robinson, J. Gallagher and A. Denny,
Africa and the Victorian, (New York, St. Martins Press,1961)

Trimingham, (The Christian Approach..) op.. cit., 25. (٤٤)

أوردهLord Cromer, Report on the Sudan,1904, p. 50. (٤٥)
Trimingham op.cit.,(1948) p. 16

Trimingham, op. cit., p. 26. (٤٦)

A. N. Allot, Essays in African Law, London, Butterworth (٤٧)
1960, p.10.

Trimingham, The Christian Approach to Islam in the Sudan, (٤٨)
(1948),p. 25.

(٤٩) مستر قوتمان بالغ كثيراً فى وصف نجاح عملية التكييف، عندما اشار الى أن
(قانون عقوبات السودان لم يكن بريطانيا أو فرنسيا، ولايشبه أى نظام مطبق فى إى بلد
أخر- انه مشروع يمكن وصفه، بكل دقة، بأنه سوداني، بمعنى أنه وضع حقيقة بهدف
E. Guttman, The Reception of Common Law in.(مقابلة احتياجات السودان
the Sudan,61. C. L. Q. (1957), 401-417

W. Twining, Some Aspects of Reception, S.L.J.R., (1957), (٥٠)
والمرجع السابق .229

Trimingham, (1948) op. cit., 25. (٥١)

Hasan Muddathir, A Memorandom For the Enactment of a (٥٢)
Sudan Constitution Derived from the Principles of Islam, (1956).

الفصل الثالث

المواجهة مع الجنوب

يمكننا متابعة العلاقة بين جنوب وشمال السودان خلال ثلاث فترات: فترة ماقبل الحكم البريطاني، فترة الاستعمار البريطاني وفترة مابعد الاستقلال. وفي فترة ماقبل الحكم البريطاني، كان الجنوب والشمال منطقتين مستقلتين، إذا ما استثنينا حملات الاسترقاق، التى كان يقوم بها العرب داخل الجنوب، ومحاولات الحكم التركي المصرى ودولة المهدية، غير الناجحة، لتوحيد جميع الأراضي السودانية تحت حكم إسلامى، ومع مجيء الحكم البريطانى فرض نوع من الوحدة فى إطار التنوع، دون سياسات محددة وواضحة حول توجهات المستقبل. وفى وقت لاحق، قرر البريطانيون، بحماقة، دمج المنطقتين، مع المحافظة على قدر كبير من التنوع والاختلاف القائم بينهما -ووصل هذه التوجه مرحلته الاخيرة عشية الاستقلال بسودنة الادارة البريطانية وفرض وحدة غير شرعية، تحت ظل سيطرة الايدولوجية العربية الاسلامية، جعلت الجنوب فى موقع ثانوى ودرجة أدنى من الشمال.وكرد فعل على هذا التطور لجأ الجنوبيون الى أسلوب المقاومة المسلحة، طوال سنوات فترة مابعد الاستقلال، حتى اتفاقية ١٩٧٢ التى قضت بانهاء الحرب الاهلية ومنح الجنوب الحكم الذاتى الاقليمى.

(أ) فترة ماقبل الحكم البريطانى:

بالرغم من استمرار العرب، طوال هذه الفترة، فى حملات جلب الرقيق من داخل الجنوب، فانهم لم يتغلغلوا بعيداً، ولم يحاولوا الاستقرار هناك. وذلك بسبب كثرة المستنقعات والذباب والرطوبة الاستوائية، والمقاومة الشرسة التى وجدوها من قبل القبائل الجنوبية. وأكثر من ذلك فقد كان العرب يرغبون في القيمة الفعلية أو الكامنة للزنوج كرقيق، لذلك لم يهتموا بالتعامل معهم بنفس الطريقة التى اتبعوها مع الشماليين. فأسلمة الزنوج كانت تعني، من جهة أخرى، ايقاف حملات استرقاقهم، ومع ان « تجارة الرقيق فى السودان ترجع الى عصور قديمة، وتمتد الى بدايات التاريخ المدون. لكنها لم تتخذ شكلاً واسعاً إلا بعد أن فتح الحكم التركى المصرى مديريات بحر الغزال والاستوائية

وفرض نوعاً من الاستقرار واستتباب الأمن ودرجة من الوحدة بين الجنوب والشمال».[1] ومع ان الحكم التركى المصرى كان يدعى السيطرة على السودان بجميع أراضيه، فانه، حتى سبعينات القرن التاسع عشر، ماكان ليدعى أى درجة من السيطرة على الجنوب. فقد كانت نظرة القبائل الجنوبية للاتراك نظرة عدائية، تماماً كنظرتها للعرب تجار الرقيق، واعتبرتهم مثل هؤلاء لا شىء يميزهم عنهم. وحتى أناس مثل صمويل بيكر، الذى جاء لايقاف تجارة الرقيق، لم يجدوا أى تعاون، حيث يقول:«من المستحيل وصف التغيير الذى جرى منذ زيارتي الاخيرة لهذه المنطقة. فقد كانت وقتها، حديقة حقيقية، مليئة بالسكان وتنتج كل مايشتهيه الانسان... كانت هناك قرى عديدة وبساتين تغطى ضفاف النهر، ،وكان الأهالى يلبسون لحاء أشجار المنطقة فى مظهر نظيف. أما الآن، فقد تغير المشهد: كل ذلك أصبح قفراً.. السكان هربوا والقري اختفت... ذلك بالتأكيد، بسبب قدوم تجار الخرطوم واستقرارهم فى المنطقة... أنهم يخطفون النساء والأطفال لاسترقاقهم، ويسلبون ويخربون أى مكان تصله أقدامهم»[2].

وفى محاولة لتأكيد سلطتها فى الجنوب، قامت الحكومة التركية باكراه القبائل على الطاعة من خلال حملات تأديبية وحشية، شملت ضرب الزعماء، قتل الابرياء وخطف الماشية والمحاصيل عنوة. وفى ظل هذه الظروف، كان من الطبيعى أن يرحب الجنوبيون بالمهدى وثورته ضد طغيان الحكم التركي المصرى.. وتمثل هذا الترحيب مثلاً، فى ابتهاج قبيلة الدينكا، أكبر قبائل الجنوب، بشخصية المهدى الدينية لدرجة أنها نظرت إليه كمرشد وموجه واستوعبته فى دينها التقليدى الخاص - فالمهدى، كروح مقدس، أصبح ينظر اليه كابن دينق Deng، الروح العظيمة التى يقدسها جميع أفراد القبيلة. والترنيمة التالية نظمت فى مدحه وتبجيله:

أنه المهدى، بن دينق
نصلى له، نحن النمل، على الأرض، دينقنا
نتضرع لآلهة العشيرة وكذا دينق.....
قد ظل الرجال التعساء ثمانى سنوات
ماضرنا واساءنا هو فى الماضى
الذى تحدث عنه الاعظم، من أعلى
أنه المهدى، بن دينق، نصلى له على الارض، دينقنا
نتضرع لآلهة القبيلة طويلاً طويلاً....[3]

ومع ذلك، لم يعتنق الدينكا الاسلام، بل دخلوا، بعد حين، فى صراع مع

المهدويين، الذين، بحكم تعصبهم الديني وتمسكهم برسالتهم المقدسة لتطهير الدنيا من الكفرة، شنوا حربا مقدسة في الجنوب، ومعها عادت تجارة الرقيق بشكل كامل، ومع أن الجنوبيين كانوا تواقين للتخلص من الحكم التركي المصرى، إلا انهم لم يجدوا الحاكم الاجنبى الجديد مقبولاً، خاصة أنه كان من تجار الرقيق. لذلك كان لابد أن يقاوموه، فحاربوا المهدويين وتجار الرقيق، واستخدموا نفس الترنيمة، التى نظموها فى مدح المهدى وتبجيله، فى صلواتهم وتضرعهم لروح المهدى، بن دينق، لمساعدتهم فى مقاومة الغزاة. وهنا يشير الدينكا الى فترات الحكم التركي المصرى والمهدية باعتبارها ... "الايام التى فسد فيها العالم"، كما تظهر كثيراً فى آدابهم الشفاهية، مثل الاغانى والحكايات الشعبية وغيرها، ككارثة كونية وانهيار فى المجتمع نفسه.

فى هذا الخصوص، شهد قييرديت Giirdit، البالغ من العمر حوالى التسعين عاماً، وهو أحد الزعماء القياديين، شهد فترتى الحكم التركى المصرى والمهدية، وأفاد المؤلف فى مقابلة معه، بالآتى:-

«الدناقله (السودانيون الشماليون) والاتراك هم الذين أفسدوا المنطقة، كانوا يخطفون الناس ويبيعونهم... أنهم يذهبون، يهاجمون أى قرية، ويخطفون سكانها... انهم لم يبسطوا الأمن والاستقرار، ولم يوحدوا القطر.. كانوا يهاجمون المنطقة ويخربونها، وعند انتصارهم يخطفون الاهالي ويضيفونهم الى جيشهم كعبيد، يستخدمونهم لمهاجمة القبيلة المجاورة... قرى كثيرة إختفت، أعداد كبيرة من الدينكا دخلوا الأدغال ولم يظهروا... فى بعض القرى بقى فقط ثلاثون أو أربعون شخصاً... قرية فيها خمسون شخصاً كانت تعتبر قرية كبيرة ... أنتم لم تشاهدوا أي تخريب.. التخريب والتدمير فى الفترات المبكرة دفع الناس للنوم في الغابات.. واذا رأيت رجلاً تعتبر نفسك ميتاً.. أى رجل كان، حتي لو كان أسوداً، اذا رأيته، تعتبر نفسك ميتاً اذا لم يكن عندك قوة خاصة أكبر... أنه سيأخذ أشياءك... زعماء كبار نُهبت أشياؤهم وتركوا دون أى شىء».

لقد كان الجنوبيون، حتى أربعينات القرن الحالى، يعتقدون، بشكل عام، أن العرب يخطفون الناس وخاصة الأطفال. وكانت كلمات «العرب هناك» تمثل طريقة لتخويف الطفل الناشز والعصى على السيطرة[٤]. وعلى أى حال، هناك موقف متشدد وسط الشماليين ضد مناقشة تجارة الرقيق. وعندما كانت تُدرّس فى المدارس، خلال عهد الحكم الثنائى، صوروا الأمر كأنه تشجيع لتغذية الكراهية بين الشمال والجنوب، تقف خلفه السياسة الغربية وعملاؤها..

أى اعتبر جزءاً مما اسماه السيد اسماعيل الازهرى، رئيس الجمهورية السابق، «مخطط شرير، رسم بدقة، بهدف تشجيع وتغذية العداوة والتباعد بين ابناء الوطن الواحد».[٥] ومن ناحيتى فأنى اعتقد أنه يجب أن نميز بين مناقشة تجارة الرقيق بشكل يثير العداوة بين الشمال والجنوب، وتلك التى تستهدف الفهم الواقعي لتأثيرات الماضى فى واقعنا الراهن، حتى نتمكن من مواجهة سلبياتها في خططنا المستقبلية.

(ب) الحكم الثنائى الانجليزى المصرى:-

مع مجيء الحكم الانجليزى المصرى، وضعت الحكومة الجديدة حداً لعداوات الزنوج والعرب، ودشنت بداية المرحلة الثانية في علاقات الشمال والجنوب. وفى البداية أبدى الجنوبيون مقاومة باسلة للسيطرة البريطانية، ولذلك واجهت الحكومة عدة انتفاضات قامت بها معظم القبائل، وظلت متواصلة حتي أواخر العشرينات، حيث أخمد آخر اشكال المقاومة القبلية فى الجنوب. ولكن البريطانيين أثبتوا انهم اكثر ذكاءً عندما عملوا علي انهاء تجارة الرقيق. وحملات الاسترقاق الشمالية وتأسيس نظام يحفظ الأمن والنظام. فنتيجة لظروف الفوضى، التي كان يعيشها السودان خلال الفترة السابقة، تمثل الهدف الرئيسى للحكومة البريطانية فى استعادة القانون والنظام العام[٦]، وكانت تعتقد في إمكانية تحقيقه عن طريق الشروع في بناء يرتكز على الثقافات السائدة السابقة. وهكذا قامت الادارة بالاعتراف بالاختلافات الثقافية القائمة بين الجنوب والشمال، وبدأت البناء فوق هذا الأساس، وقد عبر لورد كرومر، باللغة السائدة آنذاك قبل ظهور علم الانثربولوجيا، عن امكانية حفظ الأمن والنظام وسط أولئك «المتوحشين الذين يسكنون هذه المنطقة» عن طريق القانون القبلى، مع اشراف عسكرى قوى ومباشر، حيث يقول:

«أتصور أن أكثر المحامين دفاعاً وحماساً، سواء للأممية أو المساواة أو الحرية لكل العقائد والاجناس، يمكنه أن يؤكد، بجدية، أنه من الممكن، فى الممارسة العملية، عمل نظام قادر على محاكمة أمثال كوات ود أويلبونق (شلكاوى، قام بقتل أجاك ود دينق، لأن الأخير سحر ابنه وتسبب فى أن يأكله التمساح) باجراءات مماثلة أو حتي قريبة من تلك المتبعة فى باريس أو ليون»[٧].

ومثل هذه النظرة تعني أن ادارة الجنوب يجب أن لا تتخذ شكلاً "متحضراً" لأن ذلك سيقود الى "مخاطر جدية"[٨] المهم، أن الحكومة قد

وجدت وسيلة مجانية للقيام بتحديث الجنوب، تمثلت فى ارساليات التبشير المسيحية. وكان من المؤمل أن يؤدى تأثيرها الى تحديث المنطقة وكسب ثقة سكانها، بعد التخريب الذى أحدثته تجارة الرقيق. ووجد هذا التوجه معارضة من المسلمين المصريين، لكن إدارة الحكم الثنائى أجابت بأن مجال التبشير مفتوح لكل من له الرغبة والوسائل الضرورية لذلك، وهو أمر لا يتوفر عند المسلمين، وعلى أى حال، فقد أدت ظروف الاستقرار واستتباب الأمن، التى صاحبت مجيء الحكم الثنائى، الى تزايد تأثير الاسلام، عن طريق التجار وموظفى الخدمة المدنية المسلمين، بطريقة تماثل طريقة اسلمة وتعريب الشمال فمع أن القبائل النيلية، مثلاً، لم تكن لها أى قابلية للتأثر بالثقافة العربية الاسلامية، إلا أن بعضها، خاصة في المراكز الحضرية، بدأ يتبني الاسماء العربية والملابس الشمالية ومظاهر الثقافة العربية الأخرى[٩].

بعد اندلاع ثورة ١٩١٩ المصرية، قام البريطانيون بأضعاف الارتباطات القوية بين مصر والسودان واصبحوا أكثر تشدداً فى سياستهم بفصل تطور كل من الجنوب والشمال، وذلك لعرقلة انتشار التأثير العربى والوطنى فى وادى النيل. وهذا التطور إفتتح مرحلة جديدة فيما أصبح يعرف بـ (السياسة الجنوبية...) وهكذا بدأ تشجيع فرض اللغة الانجليزية كلغة رسمية فى الجنوب، والاهتمام بالعادات والتقاليد المحلية الجنوبية، بهدف استبعاد التأثير الشمالى[١٠]. وفي عام ١٩٢٢ صدر قانون الجوازات والاجازات، الذي حدد دخول الاجانب للسودان ودخول الشماليين للجنوب، بطريقة تربطه بمزاج السلطة المخولة[١١]. وفى عام ١٩٢٨ قررت الحكومة استشارة علماء الانثروبولوجيا في كيفية تطبيق كل جوانب السياسة الجنوبية. واستناداً على هذه الاستشارات الفنية، توصلت الحكومة إلى طرق أكثر قوة لاعادة التنظيم. ففى مجال الادارة العدلية، صدر قانون محاكم زعماء القبائل لسنة ١٩٣١ لتأكيد وتنظيم سلطات المؤسسات القبلية. وفى مجال التعليم، فرض تعليم اللغات المحلية فى المدارس الأولية، بجانب اللغة الانجليزية، التى أصبحت لغة التعليم في المراحل الأعلي. وبعد المرحلة الوسطى اتجهت السلطات إلي إرسال الطلاب الجنوبيين الى يوغندة لإكمال تعليمهم. وفى الوقت نفسه صار يوم الأحد هو يوم العطلة الرسمية، وليس يوم الجمعة، كما هو الحال فى الشمال، ومع أن كبح الحركة الوطنية، النامية فى الشمال، كان هو الهدف الرئيسى للسياسة الجنوبية، فاننا لا يمكن أن ننكر أن البريطانيين قد اعطوا هدف حماية الجنوب الاهتمام الكافى -وفى ذلك يقول السير ستيوارت سايمز: «ان

الذكريات المؤلمة للسكان، الذين نجوا أو شوهوا، في كل مكان، بسبب حركة الاسترقاق، خلفت جواً خانقاً من عدم الثقة في أي تدخل خارجي، انتهي الان باتساع الاحتكاك مع موظفي حكومة جديدة أكدت أنها عادلة وقوية في نفس الوقت. فبعد أكثر من ثلاثين عاماً من الصبر، بدأ تغلغل نفوذ الموظفين والآخرين، بما في ذلك ارساليات التبشير المسيحي، في جني ثماره ممثلة في إعادة توحيد وتكامل الحياة القبلية، والأمن العام والتعامل الودي من قبل الأهالي مع السلطات الحكومية... هذه المجتمعات الجنوبية تسير الآن في اتجاه اعادة تشكيلها على أساس الانماط التقليدية بتوافق مع قدراتها واحتياجاتها المادية. وذلك هو، بكل بساطه، هدف ماسمي بالسياسة الجنوبية»[١٢].

لقد أدى هذا التخطيط الدقيق، والحساسية المفرطة تجاه ردود أفعال الجنوبيين، إلى زيادة ثقة الأهالي في البريطانيين، الذي يؤكد نجاح استراتيجياتهم للتطوير في الجنوب. فالبريطاني، من وجهة نظر الجنوبيين المتوحشين، لم يكن مستغلاً امبريالياً، بل "انسان طيب" وفي ذلك يقول الزعمي قيرديت: (... البريطانيون هم الذين حرروا الناس من استعباد المهدية .. الدينكا وجدوا في البريطانيين أناساً طيبين. أنهم لايعطونك أي شيء ولايساعدونك لتمضى في طريقك، لكنهم طيبون.. لا يغشونك ولايحتالون على أشيائك. البريطاني قد يأكل أشياءك، لكنه يفعل ذلك بدهاء وذكاء وليس بشكل طائش ومكشوف، فالشخص الذى يأخذ ممتلكات الآخرين بطريقة ذكية ومخفية، فانه ليس ردئياً... البريطاني اذا وجد أشياءك وسط ممتلكاته، يخرجها ويرجعها لك. اما جيراننا في الشمال فأنهم يغطونها وسط ممتلكاتهم ويغشونك...).

وهكذا، بدأ الجنوبيون ينظرون للبريطانيين، ويقتربون منهم بشكل ايجابي ويثقون فيهم، حتى أصبحوا يتقبلون افكارهم وخططهم. ووقتها بدأ نشاط الارساليات المسيحية، المرتبط بالسياسة الحكومية، يثمر نتائجه الطيبة. ووضح ان سياسة تحديث الجنوب عن طريق الارساليات، كانت أكثر ثورية مما كان متوقعاً. فالطريقة المسيحية في التثقيف الديني تختلف، بشكل بارز، عن الطريقة الاسلامية، اذ بينما تقوم الثانية على التكامل مع الثقافات القائمة، فان الأولى تستهدف الحلول محل النظام القديم. وقد أوضح ولسون كاش.Rev Wilson Cash هذا الاسلوب الراديكالي في الكلمات التالية:

«عندما نظرت الارساليات المسيحية للسودان كمجال للتبشير، كانت تستهدف نشر رسالة المسيح وسط أناس أدخلوا إلى العصر الحديث عن

طريق مجـهودات غربيين. وهى مـجهودات تؤكـد أنه بدون المسيحـية لا يمكن تحقيق تقدم حقيقى... لقد توافقت بدايـة العمل مع بداية غجر جديد. والتغييرات التى رآها معظم الذين جـاءوا الى السودان لم تؤثر، بدرجة كبيـرة، فى القبائل الوثنية، ولكن الذين نظروا بعـمق في المستقبل رأوا أن الأوضـاع القديمة يجب أن تنتهى وتترك المجال لشروط حياة جديدة»[١٣].

ومع ان اعتناق المسيحية كان يتضـمن تغييراً شاملاً فى كل جوانب النظام الاجتماعي، الا أن المسيحية لم تتابع الدور السياسى للاديان التقليدية، كما فعل الاسـلام فى الشمـال. ففى الجـنوب أصبح الدين شـأناً خـاصاً بحـياة الفـرد الروحية، لا علاقة له بالحياة السـياسية.. ومع أن الحكومة كانت تحابى وتدعم المسيحية، إلا أن سـياستها تجاه الجماعات التبـشيرية، التى كانت تمثل كنائس متعددة، كانت تقوم على «عدم الانحياز الصارم»[١٤] ونتيجة لاستبعاد العلاقة بين الدين والسياسة فى المجـتمعات التقليدية، وفصل العقـيدة الدينية الجديدة عن السياسة الوطنية، تولد وسط الجنوبـيين موقف مختلف عن الموقف السائد وسط المسلمين الشماليين. فالمسلم، كمـا سبق أن رأينا، «الاسلام يمثل بالنسبة له عقيدة ومعاملات فى نفس الوقت، أى دين ودولة لا يمكن فصلهما».[١٥] أما الجنوبى فانه يرى أن «الدين مسألة ترتبط بضمير الفرد».[١٦] المهم أن النتائج البعيدة المدى لاتباع سياسة منفصلة لكل من الجنوب والشمال لم تكن واضحة للبريطانيين، ولكن إمكانية ربط الجنوب، فى النهاية، ببلدان شـرق أفريقيا، كان متوقعاً[١٧]. فحكام الجنوب، بشكل عام، لم يكونوا مطالبين بحضور إجتماعات الحكام السنوية في الخرطوم، بل بتنسـيق عملهم مع زملائهم في مسـتعمرات شرق أفريقيا، وخريجو المدارس الوسطي فـى الجنوب كانوا يبعثون لاستكمال تعليمهم فى كلية مـاكريرى بيوغندا، والمستقبل الاقـتصادى للجنوب كان ينظر اليه في التـخطيط المشتـرك لبلدان شرق أفـريقيا. ولكـن حتي وسط الاداريين البريطانيين، كـان هناك من يفكر بشكل مختلف فى مـستقبل الجنوب، مـشيراً الى صعوبة تعيين الحدود بشكل مرضٍ للجنوب والشـمال اذا ما أريد فصلهما، وإن ترك الشمال وحده سيعرضـه للاطماع العربية وخاصة المصرية، وأن الدم الافـريقى لم يعـد ينحـصـر فى الجنوب بل إمـتزج فى عـروق كل القـبـائل الشمـالية، أن الجنوب يمتلـك الإمكانيات الاقتـصادية الموجـودة فى يوغندا... هؤلاء كانوا يعـتقـدون أن «الجنوب إذا ظل يحافظ علي طابعـه الخاص، ويمثل جزءاً من سودان مـستقل، فان ذلك سيـساعد على ردم الفجوة المحـتومة بين المسلمين وغير المسلمين، الاسيويين والافـريقيين والبيض أو السمر والسود فى

افريقيا المستقبل».[١٨] وفى غضون ذلك بقي الجنوب فى حالة جمود سياسى واقتصادى، بينما كان الشمال يتطور بشكل مستمر- وفي عام ١٩٣٦، أدت ظروف سياسية، داخلية وخارجية، الى استعادة مصر لموقعها فى السودان. وفى وقت وجيز تمكنت الضغوط المصرية وضغوط القوى الداخلية من إجراء تغيير كامل فى السياسة الجنوبية. فقد بدأ مؤتمر الخريجين الخطوة الأولى في عام ١٩٤٢ عندما طالب الحكومة بالغاء القيود المفروضة على التجارة، وعلى حركة السودانيين داخل بلادهم، وتوحيد النظام التعليمى فى الجنوب والشمال. وفي عام ١٩٤٤ أقامت الحكومة مجلساً استشارياً فى الشمال، كان له تأثير كبير، رغم أنه لم تكن له سلطات تشريعية. وبما أن الجنوب لم يشارك فى هذا المجلس، فقد كان وارداً فصله عن الشمال وضمه الى احدى دول شرق أفريقيا أو تحويله الى دولة مستقلة. هذا الوضع يلخصه لنا تقرير مكتب المستعمرات التابع للجمعية الفابية البريطانية في الكلمات التالية:

«إن مشكلة جنوب السودان تمثل أكبر مشكلة انسانية في القطر. فالمتعلمون السودانيون ينظرون للجنوب كما تنظر اليهم مصر ... ضياعه يستفز كرامتهم ويثير قلقهم إلي حدود كبيرة، بالاضافة الى آمالهم فى اكتشاف ثروات ضخمة في الجنوب تدعم تطلعهم لسودان مستقل. والجنوب، تماماً كالشمال بالنسبة لمصر، يمثل أيضاً، مصدر عمل وخدمات رخيصة... لكل ذلك يصرون على إبقاء الجنوب موحداً مع الشمال العربى، مع انه ينتمي الى أفريقيا الجنوبية»[١٩]، في ضوء التغيرات السريعة الجارية فى الشمال، بدأ الجميع يلمسون الظلم الذي أوقعته السياسات الحكومية بالجنوب. وهذا مايوضحه لنا ترمنجهام، سكرتير جمعية التبشير المسيحى، حيث يقول:

«لقد أكدت سياسة عدم التدخل استحالتها في الواقع العملي، حيث شهدت سنوات الحرب بدايات يقظة في الجنوب... ازداد احتكاك الجنوبيين فى مجالات عديدة بالحضارة الغربية... والذين تلقوا تعليمهم فى مدارس الارساليات أصبحوا أكثر وعياً بضعفهم الاقتصادى والثقافي والظروف الصعبة التى يعيشون في إطارها... هذه اليقظة أعادت تذكير الحكومة بواجبها الاخلاقي تجاه رعاية وتعزيز رفاهيتهم المادية والروحية وتمكينهم من القيام بدورهم فى أفريقيا الحديثة، التى تعدُّ الآن (١٩٤٥) الخطط الخاصة بتطورها ومستقبلها»[٢٠].

وفى عام ١٩٤٦ نظم الحاكم العام مؤتمراً إدارياً بهدف المساعدة فى تحديد الخطوات الضرورية لنقل السلطة للسوادنيين. ومرة أخرى لم يشارك

الجنوب، مع أن المؤتمر سيقرر في مصيره. وعندما طالب المندوبون الشماليون بتوحيد الشمال والجنوب، سافر مشاركون الي الجنوب لاجراء استطلاع انطباعى حول الاوضاع هناك، وعادوا بتوصية بوحدة شقى الوطن، والبدء بمشاركة الجنوب فى الجمعية التشريعية، المزمع تكوينها -تحت ضغوط قوية من مصر والقوى الشمالية، قرر السير جيمس روبرتسون، السكرتير الاداري الذى أعقب السير دوقلاس نيوبولد (أحد مهندسي السياسة الجنوبية) فى منصب السكرتير الادارى، سياسة وحدة السودان[٢١] فى النهاية، وأشار الى أن خطط شرق أفريقيا الخاصة بتطوير الاتصالات مع الجنوب غير محددة، وان «نجاحنا يعتمد، في اعتقادى، علي تركيز نشاطنا فى هدف واحد يتمثل فى تطوير التجارة في الجنوب وبين الشمال والجنوب».[٢٢] ومن هنا، فأن السياسة الجديدة الخاصة بالجنوب ستقوم على «العمل انطلاقاً من حقيقة ان شعب الجنوب شعب افريقي وزنجي، ولكن عوامل الجغرافيا والاقتصاد، معاً، (على الأقل كما يري فى الوقت الحالى) تفرض عليه فى مستقبله الارتباط بالسودان الشمالى، الشرق أوسطى والعربى».[٢٣] وطلب السكرتير الادارى من الاداريين البريطانيين العاملين في الجنوب إبداء ملاحظاتهم حول هذه السياسة.. فاعترضوا عليها، بعد أن اكتشفوا أن أهداف الشمال، كما تعكسها وقائع المؤتمر الادارى، تتركز فى وحدة غير مؤهلة، وذلك استناداً إلى أنها من جانب واحد، واقترحوا مؤتمراً ادارياً للجنوب يعقد فى الجنوب نفسه... ووافق السكرتير الادارى على الاقتراح، وهكذا كان مؤتمر جوبا، الذى عقد فى ١٢ يونيو ١٩٤٧. وشمل حضوره حكام المديريات الجنوبية، مدير ديوان شئون الخدمة، ١٧ جنوبياً من زعماء القبائل وموظفى الخدمة المدنية وستة من الشماليين[٢٤]. وفي اليوم الأول للمؤتمر طالب الجنوبيون، مع تسليمهم بوحدة السودان، بمجلس استشاري منفصل الجنوب لفترة زمنية كافية لتمكينهم من تكوين جهاز تشريعى على قدم المساواة مع الشماليين. وفي الوقت الراهن أبدوا رغبتهم في التعامل مع المجلس التشريعي القادم كمراقبين فقط[٢٥] وعلي الفور أسرع الاعضاء الشماليون لاقناع الجنوبيين بالموافقة علي الوحدة غير المشروطة والمشاركة فى الجمعية التشريعية، وإن عدم الموافقة على ذلك يعنى خدمة المصالح الاستعمارية. وفى اجتماع اليوم الثانى[٢٦] حدث تغيير وسط بعض الجنوبيين، حين ظنوا أن الأمر قد حسم، كما ذكروا، وقرروا الذهاب الي الخرطوم، ليس فقط كمراقبين وانما، أيضاً، للمشاركة الكاملة فى الجمعية التشريعية، ولكن الزعماء القبليين ظلوا متمسكين بموقفهم السابق[٢٧].

واتفق كل الجنوبيين والاداريون البريطانيـون العاملون فى الجنوب علي ادخال فقـرات حول حماية الجنوب. وفى النـهاية، أوصي المؤتمر بادخال فقـرة حول حماية مصـالح الجنوب فى قانون الجمعية التشريعـية والمجلس التنفيذى[٢٨].
وبالرغم من عدم موافقـة الجنوبيين الظاهرة، إلا أن الحكومة شرعت في العمل على أساس أن وجهة نظر الجنوبيين، المؤيدة لعلاقات وطيدة مع الشمال، كانت هى قـرار مـؤتمر جـوبا. لكن فى تأييـدهم لعـلاقـة قوية مـع الشمـال، كـان الجنوبيـون، للمفارقـة، معـتمدين علـى الحكومة الاستـعمـارية لحمايـتهم من الشـمـاليين، حـتى لايـهـيـمنوا على الجنوب. فـعندمـا سـئل رئـيس المندوبين الجنوبيين، (ماذا سيكون ضمـانكم، اذا أجازت الجمعية التشريعـية قانوناً ضد مصالح الجنوب، بالرغم من معارضة الأعضاء الجنوبيين؟..) أجاب بأن ...(علي الحكومة حماية الجنوب...) والمفارقـة، أيضاً، أن نفس العناصر التى وقفت مع الشمال هم الذين أصبحوا، في وقت لاحق، المدافعين السياسيين عن الجنوب.

فى ذلك الوقت كان السودان يقترب من إعلان إستقلاله. ففى نفس السنة، التى شهـدت تغيير السـياسة الجنوبيـة، نشرت الحكومة مذكـرة، كانت لاتزال تدور حول إمكانيـة فصل الجنوب، فى النهـاية، عن الشمال، حـيث جاء فيـها: «هناك حجج كثـيرة للدفاع عن هذا الخيار أو ذاك، انطلاقـاً من مصلحة جنوب السودان أو بقيـة أفريقيا، والمسألة برمـتها قد تشكل، فى وقت ما، مـوضوعاً لاهتمـام لجنة دولية. وفي الوقت الراهن، فان الحكومـة الحالية... تعـتزم ربط الشمـاليين المتعاطفين مع تـطبيق سيـاسة تهدف الى نح الجنوب نفس فـرصة تقرير المصير، تماماً كما وعدنا الشمال.»[٢٩].

وفى الفترة الممتدة بين إعلان السياسـة الجنوبية الجديدة وتوقيع الاتفاقية المصـرية الانجليزية بمنح السـودان حق تقـرير المصيـر، شهـد الجنوب تطوراً مـدهشـاً. وفى ذلك الـوقت كـان البـريطانيـون يظنون أنـه لايزال هناك وقت للتفكيـر. وفى ذلك يقول مدثر عبـدالرحيم: «كانت حكومة السـودان، فى عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٠، ترى أن أى مطالبة بالحكم الذاتى في المستقـبل القريب تعتبر مطالبة، غـير ناضجـة، وحتي ٢٠ فبراير ١٩٥٢ ظل مكـتب المستعمـرات يؤكد للسكرتير الادارى: "أنه ليس من سياسـة حكومة جلالة الملك أن السودان يجب أن يكون مستعداً لتقرير المصير فى عام ١٩٥٣.." ووفقاً لذلك صرح السكرتير الادارى بأنه "يجب علينا العمل لكسب الوقت.." بينما أشار أحد زملائه الى أن "وظيفـة البريطانيين في هذا القطر تتـمثل فى تأخيـر يوم الحكم الذاتي لأطول فـتـرة ممكنة دون إبعـاد أولئك السـودانيين الـذين لا يمكن أن نسـتـغنى عن

تعاونهم»[٣٠].

إن السياسة الجنوبية الجديدة بكلمات الحاكم العام البريطاني السابق ... «ان هذه السياسة تمخضت في وقت كان الرجال يفكرون ببعد نظر لفترة تتعدي نصف قرن زماني... صممت لتطوير الجنوب حتي يتمكن من ان يحدد خياره الخاص في وقت كاف»[٣١]، ولكن الاحداث تطورات بأسرع مما كان متوقعاً. فقد افتتحت الجمعية التشريعية الوطنية في ١٥ ديسمبر ١٩٤٨، بمشاركة ممثلين للجنوب. وفى ديسمبر ١٩٥٠، كونت لجنة لتعديل الدستور لدراسة الوضع وتحديد الخطوات اللازمة للوصول للحكم الذاتى، وفى عام ١٩٥٢ أطاح الجيش المصري بالملك فاروق وتولى السلطة، بقيادة اللواء محمد نجيب، الذى عاش فى السودان وله علاقات سوادنية قوية -وبعد فترة وجيزة من استلام السلطة، أجرى نجيب مشاورات مع الشماليين حول مبادىء الحكم الذاتي وتقرير المصير، وبدأ مفاوضاته مع البريطانيين حول استقلال السودان.. وفي ١٢ فبراير ١٩٥٣ أعلنت الاتفاقية المصرية الانجليزية لتصفية الحكم الثنائى ومنح السودانيين الحكم الذاتي كخطوة في الطريق نحو تقرير المصير -ومع اعلان الاتفاقية ارتفع الوعى السياسى وسط الجنوبيين، وبدأت حركتهم، للدفاع عن حقوق الجنوب، تتخذ شكلاً منظماً، وتمثل أساس هذه الحركة فى أن الجنوب لم يشارك في القرارات التى قادت الي تقرير المصير، وان الوضع الدستورى الذى حدد للسودان المستقل لم يمنح الجنوب الاعتراف المطلوب بهويته، وأنه -فى ظل النظام الموحد- سيجد الجنوب نفسه خاضعاً ومُسيطراً عليه من قبل الشمال، وان الوحدة مع الشمال ممكنة فقط تحت نظام حكم يحترم التنوع -ومع السير الصعب فى اتجاه قيام سودان موحد ومستقل، ظل خوف الجنوبيين من هيمنة الشمال يزداد ويتعمق بتراكم الأحداث اليومية. فموقف الموظفين الشماليين تجاه الجنوبيين، ودعايات الأحزاب الشمالية ضد بعضها من أجل كسب الاصوات الجنوبية والاستراتيجيات الاقصائية التى حاولت الحكومة ان تُكره بها الجنوبيين على الاستسلام، واهم من كل ذلك، اعلان نتائج سودنة الـ٨٠٠ وظيفة، التى كان يشغلها البريطانيون، والتى لم يجد فيها الجنوبيون سوى أربع وظائف دنيا فقط. كل هذه التطورات أدت الي إثارة المعارضة الجنوبية وتطورها الى ثورة لتنتشر فى كل أنحاء مديرية الاستوائية وتتحول الى انتفاضة عامة، أدت الى قتل عدة مئات من الشماليين. ومحاولات استخدام القوة في مثل هذه الحالة يمكن فقط أن يقود الي اشعال حرب أهلية واسعة. ولذلك اتجهت الحكومة الانتقالية، الحديثة التكوين،

لاستخدام نفوذ الحاكم العام البريطاني، الذي كان رئيساً رمزياً للدولة، ويمثل الحماية البريطانية في نظر الجنوبيين، وقد أدي تدخله الشخصى وتعهده بمعالجة عادلة لمظالم الجنوبيين، جنباً الى جنب مع مجهودات البرلمانيين الجنوبيين، الى انهاء الانتفاضة واستسلام عدد كبير من الجنود وتسليم اسلحتهم للسلطات الحكومية ولكن ...(بعض المتمردين والمدنيين ...دخلوا الغابة ولم يرجعوا ..ليشرعوا فى حرب، كحرب الماوماو، لكنها طويلة الأمد..)[٣٢].

(ج) فترة الاستقلال ومابعدها:

لقد أيد الجنوب، رغم مظالمه العديدة، استقلال السودان، بشكل مطلق علي أساس وعد من الشماليين باعطاء "الاعتبار الكافى" لمطلب الجنوب بنظام الحكم الفيدرالى. وفى يناير ١٩٥٦ احتفل السودان رسمياً باعلان إستقلاله كدولة موحدة يحكمها دستور مؤقت. وفي سبتمبر ١٩٥٦، تم تكوين لجنة وطنية لإعداد مسودة الدستور الدائم وتقديمها للبرلمان، كجمعية تأسيسية، لإجازتها. وبعد مناقشات استمرت أكثر من عام رفضت اللجنة فكرة النظام الفيدرالي، دون أى إعتبار لموقف الجنوبيين ومطالبهم. ولتأكيد الوحدة الوطنية ، من خلال التكامل الثقافى، تم وضع سياسة جديدة للاسلمة والتعريب، هدفها تصفية السياسة البريطانية الانفصالية القديمة فى الجنوب. وارتكزت هذه السياسة على أن الجنوب، وقيادته السياسية، هما نتاج النظام الثقافي، الذي فرضه الاستعمارالبريطانى، وعملاؤه وسط الارساليات المسيحية، لتقسيم البلاد خدمة لمصالحه الاستعمارية. وبينما يظل تحليل الأسباب السابقة صحيحاً لدرجة كبيرة، إلا أن تقييم تجلياتها لم يحالفه التوفيق –فاللجنة، التى قامت بالتحقيق فى أسباب تمرد ١٩٥٥ في الجنوب، تقول في تقريرها:– (...لقد وجدنا أدلة كافية تؤكد أن المشكلة الحقيقية فى الجنوب مشكلة سياسة وليست دينية. ..فالمسيحيون والوثنيون والمسلمون الجنوبيون شاركوا جميعهم في الاحداث، وبعض الذين قادوا الدعاية المضادة للشمال كانوا من المسلمين الجنوبيين..)[٣٣].

وفي وقت لاحق تمحورت السياسة الجديدة، تحت ظل الحكم العسكرى الأول، حول طرد المبشرين الأجانب من الجنوب، حيث جاء فى مذكرة الحكومة في هذا الشأن:–

(لقد أصبح من المؤكد، دون أدنى شك، أن السياسة البريطانية فى السودان كانت تتمحور حول فصل الجنوب عن الشمال. ولتحقيق ذلك تمت

تهيئة التركيبة الجنوبية بشكل ملائم. وكانت الارساليات التبشيرية هى الاكثر استعداداً وأفضل من أن يقوم بهذه المهمة. فأطلقت يدها لتمد نفوذها دون رقابة أو منازعة، ولتقوم باستغلال اختلافات اللغة والثقافة والعقائد، وسط القبائل الجنوبية، بشكل فعال لخدمة أغلبية أغراضها. والواقع أن الحاكم العام قد وجه بتبنى هذه السياسة منذ عام ١٩٢٩، عندما أكد في تقريره السنوى .. "ان الارساليات تمثل خط دفاعنا الأول ضد الاسلام فى السودان...)[٣٤] (ولهذا السبب) واصلت المذكرة لتؤكد أن (الواجب الأول للحكومات الوطنية يتمثل فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتسريع التكامل الوطنى وازالة الحوارق بين اجزاء القطر بهدف تحقيق وحدة وطنية كاملة..)[٣٥]، ونتيجة لذلك، أنشئت ادارة للشئون الدينية لتقوم بتنظيم المعاهد الاسلامية والاشراف عليها، بالاضافة الى الدراسات الأكاديمية الاسلامية الأخرى[٣٦]. ولأجل تسريع التكامل الوطنى بين أجزاء القطر، قامت الحكومة السودانية، في عجلة من أمرها، بتوحيد النظام التعليمى فى البلاد علي أساس (موجهات جديدة)[٣٧]، وكانت الخطوة الأولى قد اتخذت فى عام ١٩٥٧ بتأميم جميع مدارس الارساليات فى الجنوب، بينما سمح للمدارس الخاصة فى الشمال، بما فى ذلك المدارس التابعة للارساليات، بالاستمرار في نشاطها. وفى فبراير ١٩٦٠ قرر مجلس الوزراء اعتبار يوم الجمعة، بدلاً من يو الأحد، عطلة رسمية فى كل انحاء الجنوب. وفى مواجهة هذا الاجراء دخلت كل مدارس الجنوب فى اضراب عن الدراسة، واجهته الادارة الحكومية برد فعل عنيف. ففى قضية (حكومة السودان ضد بولينو دوقالى وآخرين)[٣٨]، حكم على القس الجنوبى، بولينو دوقالى، بالسجن لمدة ١٢ عاماً، تحت قانون دفاع السودان لسنة ١٩٥٨، بسبب طباعة وتوزيع منشور ضد قرار حكومة السودان المشار اليه سابقاً، كما حكم على اثنين من طلاب المدارس الثانوية بنفس التهمة بالسجن عشر سنوات لكل منهما[٣٩]. وفى محكمة الاستئناف، أورد السيد أبو رنات، قاضى المحكمة، الآتى:

[...أريد أن أشير الى بعض الفقرات التى وردت فى المنشور، الذي قام المتهم الأول، حسب إعترافه، بطبعه بماكينة وفى ورق يخص كنيسته. أحدى هذه الفقرات تقول:- (ولكن قرار حكومتنا الأخير يقضى بأن يصبح يوم الأحد، يوم العطلة الدينية، يوم عمل عادى، وأن يصبح يوم الجمعة، يوم عطلة المسلمين، يوم العطلة الاسبوعية الوحيد لكل الناس بمختلف عقائدهم. هذا الإجراء يعنى بوضوح أن نتخلى نحن، المسيحيون، عن عقيدتنا، وأن يفرض

الاسلام علينا بقرارات من النظام القائم..؟) وفقرة أخرى تقول: (منذ الاستقلال ...لم نسمع بمثل هذا القرار..ولأننا نحكم بقوة السلاح، وتكميم الأفواه، علينا أن نعطى ظهورنا للسيد المسيح، علينا أن نتخلى عن ديننا الحبيب، بالقوة..) وفقرة ثالثة تقول: (علينا ان نقاوم، اذن، جميعنا، بأرواحنا وقلوبنا وأجسامنا، بالطرق السلمية ...ندعو كل المسيحين فى كل مجالات الحياة، من مساعدى الحكام حتي العامل الذى يقوم بتنظيف الشوارع، للامتناع عن العمل يوم الأحد...) وبقراءة المنشور ككل، لم يساورنى أى شك فى أن هدفه يتمثل فى التحريض على معارضة الحكومة وإشانة سمعتها. وأحد أهدافه يتمثل فى إثارة نزعات الاختلاف والصراع بين المسلمين والمسيحين.. إن السوادن دولة علمانية وهدف قرار مجلس الوزراء، الصادر في فبراير ١٩٦٠، هو توحيد أيام العمل في القطر ككل. والتفسير الذي وضعه المنشور يعني أن الحكومة تريد أن تفرض الدين الاسلامى ومحاربة الدين المسيحى...][٤٠].

ان شعور الجنوب بأن الحكومة كانت تقوم بحرب دينية ضد المسيحية ولنشر الاسلام، قد تأكد بصدور قانون الجمعيات التبشيرية لسنة ١٩٦٢ لتنظيم نشاط ارساليات التبشير الدينى والخدمى –الفقرة ٣ من القانون تقول:–

(..ليس من حق أى جمعية تبشيرية، أو أى عضو من اعضاءها، القيام بأي عمل تبشيرى في السودان إلا وفق شروط رخصة يمنحها له مجلس الوزراء –وهذه الرخصة ستكون في شكل محدد يتضمن دين أو طائفة أو عقيدة الجمعية، المنطقة أو الأماكن التي يمكن أن تعمل فيها، بالاضافة الى فرض أى شروط أخري يرى المجلس ضرورة تحديدها، بشكل عام أو فى أى حالة محددة). والفقرة السادسة من القانون تخول مجلس الوزراء حق رفض منح الرخصة أو تجديدها أو سحبها بتوجيه منه –والفقرة السابقة تضع حدوداً مكانية لنشاط الجمعيات وتمنعها من القيام (بأى نشاط تبشيرى مع أى شخص أو أشخاص منتمين لأى دين أو طائفة أو عقيدة غير المحددة في الترخيص) وهى، ايضاً، غير مسموح لها (بممارسة أى نشاطات اجتماعية خارج الحدود والطريقة التي تحدد من وقت لأخر باجراءات قانونية) والفقرة الثامنة تشير الى أنه ..(ليس من حق أى جمعية تحويل أى شخص يقل عمره عن ثمانية عشر عاماً إلى آى دين، أو يفسح له مجال فى نظام دينى، بدون موافقة ولى أمره القانونى.. ومثل هذه الموافقة يجب أن تتم كتابة أمام شخص تعينه سلطات المديرية لهذا الغرض) والفقرة التاسعة تقول أنه (ليس من حق

أى جمعية تبنى أى طفل لقيط أو إعالته بدون موافقة سلطات المديرية) أما الفقرة العاشرة فأنها تحدد اجراءات وزارية معينة لتكوين الاندية، أنشاء الجمعيات، النشاطات الاجتماعية الاخرى، جمع المال، أعمال الاغاثة، تملك الاراضى، ونشر وتوزيع المطبوعات(٤١).

وفي مارس ١٩٦٤ قامت حكومة السودان بطرد المبشرين الاجانب من الجنوب. وفى تبريرها لهذه الخطوة، أكدت الحكومة. ..(لقد إتضح الآن، دون أدنى شك، أن المنظمات التبشيرية الاجنبية قد تجاوزت حدود نشاطها التبشيرى المقدس. حيث قامت باستغلال الدين لزرع الكراهية والخوف والحقد فى عقول الجنوبيين ضد اشقائهم في الشمال، وذلك بهدف تشجيع قيام وضعية سياسية منفصلة للمديريات الجنوبية، وبالتالي تعريض وحدة البلاد وسلامتها للخطر)(٤٢).

وفى الوقت الذى كانت تستهدف فيه هذه الاجراءات تحقيق التكامل الثقافى، كخطوة فى طريق تدعيم الوحدة الوطنية، كان تأثيرها العملى يسير فى اتجاه إثارة العداوة والكراهية ضد الشمال وتعميق وتوسيع الانقسام بين شقى البلاد فى الشمال والجنوب. وبذلك تصاعدت المعارضة الجنوبية، داخل القطر وفى البلدان المجاورة والاجنبية، لتؤدى الى تعميق حالة عدم الاستقرار السياسى فى البلاد، التى أدت، بدورها، الي انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ بقيادة الفريق ابراهيم عبود، ومع تزايد سياسات العنف والقمع، التى صاحبت مجىء الحكم العسكرى، أضطرت المعارضة الجنوبية الداخلية الى اللجوء للعمل السرى، واعادة تنظيم نفسها وسط مجموعات اللاجئين، المتزايدة فى البلدان المجاورة، وتكوين جناح عسكرى، عرف باسم الانيانيا، ومواصلة العمل لتحرير الجنوب من الهيمنة الشمالية.

إن حالة الانقسام واتساع الفجوة بين شقي البلاد، التى خلّفتها سياسات الأسلمة والتعريب ومنهج العنف والعمل العسكرى لحل مشكلة الجنوب، يلخصها لنا حديث أقرى جادين، (كان وقتها رئيس الحكومة الجنوبية فى المنفى) فى مؤتمر المائدة المستديرة، الذى عقد فى الخرطوم عام ١٩٦٥. فبعد ان يبرز انقسام السودان بين مجموعة "عرقية عربية هجينة" فى الشمال ومجموعة "أفريقية" فى الجنوب، يؤكد أقرى جادين أنه (مع هذا الانقسام الحقيقى، هناك، فى الواقع، سودانان. والأمر الأهم أنه ليس هناك آى أساس لتوحيدهما ليس هناك شىء مشترك يجمع مجموعات المجتمع المختلفة ليس هناك عقيدة مشتركة، ولا مصالح مشتركة أو سمات موحدة، ..وفوق كل ذلك

فقد فشل السودان فى أن يشكل مجتمعاً موحداً. ومطالبة الشماليين بالوحدة مبنية فقط على حدث تاريخى تمّ بالصدفة وفرض هيمنة سياسة على جنوب السودان والمجتمعان لايستطيعان النظر الى بعضهما حتى اذا أجبرا علي حالة استيعاب مفروضة بالقوة "كذا")(٤٣).

والواقع أن شعور جادين هذا يشاركه فيه قطاع كبير من الجنوبيين فى الوقت الحالى. فعندما كان مؤتمر المائدة المستديرة يواصل اجتماعاته فى الخرطوم نشرت جريدة The Vigilant، جريدة يومية كانت تصدرها جبهة الجنوب، فى الخرطوم، في افتتاحيتها مايلى:-

(ان ما يجمع بين الشمال والجنوب لايكاد يذكر، اذا ما استثنينا النيل العظيم .. والصدفة التي جمعتهما تحت سيطرة قوى استعمارية واحدة ..والجنوبيون يعتقدون ان السودان يمثل دولة متعددة الاعراق ومتعددة القوميات ويجب أن يقوم تطورها على هذا الاساس. ولكن الواقع يؤكد، لسوء الحظ، ان تجربة التعايش المشترك بين العرب والافارقة قد فشلت)(٤٤).

المهم، أن القيادات الجنوبية فى الخارج لم تكن موحدة، بأى شكل من الأشكال. ولذلك ظهرت عدة محاولات لتكوين حكومة فى المنفى، لكنها لم تنجح، بسبب المطامع السياسية والتحالفات المتغيرة وسط هذه القيادات. وفى النهاية تمكن جوزيف لاقو، ضابط تخرج من الكلية العسكرية بالخرطوم، وخدم في الجيش السوداني، من توحيد الحركة المسلحة الجنوبية. وبعد أن تسلمت القيادة مجموعة من الضباط المقتدرين والمدربين تدريباً جيداً، قاموا بتوحيد المجموعات المقاتلة، ومنع المناورات والخلافات السياسية، وتسليح قواتهم المقاتلة بأحدث الأسلحة وإعادة تنظيمها بشكل أكثر فعالية وملاءمة لاغراض حرب الأدغال، وذلك بتمويل من مصادر أجنبية حكومية وغير حكومية. واصبح من الواضح أن المقاومة الجنوبية قد دخلت منعطفاً قوياً وحاسماً، قد لا يمكنها من هزيمة قوات الحكومة ولكنه حوّلها الى قوة لا يمكن القضاء عليها بسهولة.

وهكذا، كان هذا واقع الحال، الذى ورثته حكومة نميرى، وانتهي بها الى مواجهته بكل واقعية ومسؤلية. فدخلت فى مفاضات مع حركة تحرير جنوب السوادن ووافقت على منح الجنوب حكماً ذاتياً اقليمياً، ونتيجة لكل ذلك، كانت فترة مابعد الاستقلال، بشكل كبير، فترة عنف وصراع مسلح بين الشمال والجنوب. وطوال هذه الفترة تحولت الثقافة العربية الاسلامية، التى كان يأمل الشماليون في استخدامها كعامل توحيد وتكامل وطني، الى رمز عنف وقمع فى مواجهة الجنوبيين، الذين قاوموها كجزء من مقاومتهم ونضالهم من أجل

حقوقهم. ومع ذلك، كان الجنوبيون راغبون في تبنى الاسلام والعناصر الاخرى للثقافة الشمالية، فى السنوات الأولى للحكم الاستعمارى البريطانى، عندما ساد علاقات الشمال والجنوب مناخ تفاعل سلمى وطوعى. وفى بعض فترات المشاعر الودية الظاهرة، مثل مؤتمر جوبا وعند اعلان الاستقلال، شارك الجنوبيون الشماليين فى الهوية والانتماء -وهذه الحقائق تشير الى أن التمثُّل الثقافى المتبادل والوحدة الوطنية لم ترفض من حيث المبدأ، وانما فى اطار مقاومة الحرمان والتهميش. وهذه النظرة تأكدت، بوضوح، في تجربة علاقة الدينكا نقوك Ngok Dinka وعرب المسيرية الحُمر فى جنوب كردفان، كما سنشرح فى الفصل القادم.

الهوامش

Robert O. Collins, The Southern Sudan, 1883-1898:-A(١) Struggle for Control, op.cit.,14

Sir Samuell Baker, Quoted in W. W. Cash, The Changing(٢) Sudan, (London Church Missionary, Society 1930), 12.

(٣) اخبار المهدى، الذى ظهر في شمال السودان وصلت الى أرض الدينكا، وفى بعض الأماكن المجهولة المعروفة باسمائها فقط، قام الدينكا بتمثُّل المهدى (باللغة الدينكاوية مادى) روحياً وفكرياً فى انبياء القوة.

أنـظـر G. Lienhart, Divinty and Experience, Religion of the Dinka, (New York, OUP, 1961), 164.

وبعد ان أورد الترنيمة الخاصة بذلك، لاحظ لينهارت (أن الرجل العجوز الذى انشد هذه الترنيمة ذكر في اجابة عن احدى الاسئلة بأن المادى كان نبياً عظيماً، سمعوا بظهوره فى الشمال سمعنا أن روح الاله قد ظهرت فى الشمال) ص ١٦٥، للمزيد من المناقشة حول هذه النقطة انظر Deng, Tradition and Modernization, 48-49.

(٤) هذه التجارب جعلت الجنوبيين يشكُون في أى شخص غريب. فالا رساليات التبشيرية الأولى، التى وصلت الجنوب قبل استعادة السودان، وجدت صعوبات كبيرة فى تقديم نفسها واقناع السكان بقبول وجودها. وفى ذلك يشير الاسقف قوين Gwynne إلى أنه (.. بينما كانت بعض الارساليات تقوم بتنظيف الأرض ونصب الخيام لتجهيز المعسكر، جاءت مجموعة من الأهالي المتطفلين والمتشككين تستطلع مايجري حولها -وبادر رئيس المجموعة بالسؤال: لماذا جاءوا الى هنا؟ هل هم رجال الحكومة؟ لا جاءوا يطلبون صداقتكم، يعلمونكم لغتهم، ويعطونكم دروساً حول الاله.. ليطورونكم درجة أعلى فى سلم الحضارة، العرب اعتادوا على اطلاق وعود مماثلة بهدف كسب ثقتكم، وفجأة يخرجون بنادقهم، ذات ليلة، ويحاصرون القرى ويقتلون كباركم ويخطفون ابناءكم لاسترقاقهم..)،.Cash, op.cit 74.

كما قام الرائد تثيرنقتون Titherington بتلخيص تجربة الدينكا فى الكلمات الآتية:

(ليس هناك أدنى شك فى أن النظام الاجتماعى والنظرة الشخصية كانت، كما وجدناها مؤخراً، فى حالة تدهور نتجت، بشكل مباشر، من الغزوات المتواصلة التى كانوا يتعرضون لها من تجار الرقيق الشماليين، ومن تأثيرات نصف قرن من الجرائم التى كان يقترفها الاجانب قبل مجيء الحكومة البريطانية الحالية -ويبدو أن عدم استسلامهم وانتهائهم، كما فعلت قبائل جنوبية عديدة، كان بفضل عزيمتهم القوية، التى منعتهم، ايضاً، من الانحطاط وممارسة بيع أبنائهم وزملائهم لتجار الرقيق ..فقدوا مئات الآلاف من الأبقار، وآلاف الرجال والنساء والأطفال نبحوا أو استرقوا أو ماتوا من المجاعة ولكن الذين بقوا على قيد الحياة فى المستنقعات العميقة، كانوا يهاجمون الغزاة بشجاعة عندما يستطيعون

ذلك، ومعالجة الجروح المتعفنة، واحتقار الغرباء، وكل أساليبهم التى استراحوا منها الآن فقط..) .The Raik Dinka, S. N. R., 10, (1927), 159-160

(٥) اسماعيل الازهرى، في مخاطبته مؤتمر المائدة المستديرة حول مشكلة جنوب السودان، فى مارس ١٩٦٥. وفى نفس الوقت قدم رئيس المندوبين الجنوبيين نظرته لقضية تجارة الرقيق بطريقة مختلفة، حيث ذكر:

(ماهى الجوانب التاريخية المناسبة، التى يجب على اعضاء هذا المؤتمر أن يضعوها نصب أعينهم في مناقشاتهم؟ إن تاريخ تجارة الرقيق يفرض علينا نفسه مباشرة. وسوف يتهرب بعضنا هنا، بالطبع، كما فعلنا دائماً، من مناقشتها وقتها سنبتعد عن الشجاعة والصرامة فى مناقشة قضايانا ، تجارة الرقيق حدثت بالفعل. فى التاريخ، ولاتزال ذكراها حية، وبالتالى لا يمكن نسيانها، خاصة اذا لم يجرى أى تغيير واضح فى موقف أحفاد المسؤلين عن ممارسة تلك التجارة إننا نعيد تذكير المؤتمر بهذا الحدث التاريخى، لأننا نعتقد أن هناك دروساً يجب استخلاصها من استعادة تفاصيله فذلك قد يلهمنا الحكمة لتحاشى المزيد من الخطوات الخاطئة فى الحاضر والمستقبل ..ويمكن ان يمثل أساساً للتفاهم، أياً كانت العلاقة المستقبلية التى قد نتفق عليها.).

(٦) كتب السير هارولد ماكمايكل يقول:

ان البلاءات التي مارستها الحكومة في مناطق المستنقعات فى أعالى النيل، سواء فى الحدود الاثيوبية أو قليلاً جهة الغرب، يمكن تسجيلها باختصار فحدوثها فى كل الحالات يرجع الى مزيج من عدم الثقة الطبيعى، المرتكز على تجارب الفترات السابقة المريرة، التى كان يشعر بها هؤلاء المتوحشون من احتكاكهم بأى حكومة فى الشمال . ومن حوادث العرّافين والسحرة وحماسة المحاربين الشباب لا دماء انفسهم. The Anglo- Egpytian Sudan p. 101.

(٧) قام لورد كرومر، القنصل البريطانى العام فى القاهرة، الذي كان يمثل الحاكم الفعلى لمصر والسودان، بصياغة هذه السياسة على النحو الآتى: (لقد فكرت باهتمام شديد فيما اذا لم يكن من الممكن السماح للمسائل السير على غير هدى، ،تسوية كل نقطة من المشكلة بوقائعها الموضوعية، كما تتجه نحو الحل-فاذا كان علينا التعامل مع الأهالى فى جنوب السودان فقط (كذا) فالكثير يمكن أن يقال لمصلحة تبنى هذا الاتجاه- اذ أن احتياجات الأهالى تتميز، في الواقع بالبساطة. وكل ماتحتاجه في الوقت الراهن يتمثل فى نظام بسيط للضرائب، اشكال بسيطة جداً لادارة المحاكم الجنائية والمدنية، وتعين عدد قليل من الموظفين، المختارين بدقة، مع سلطة تقديرية واسعة نوعاً ما للتعامل مع التفاصيل المحلية). مذكرة لماركيز سالسبورى، فى مكى عباس، مرجع سابق، ١٠١.Annual Report for 1904 (Egypt, No 1, 1905, Ed. 240 g) p.11

فى Muddathir: The Development of British Policy in the Southern Sudan, Middle East Studies, 2, (3) April 1966, 227-249.

(٩) Ibid.,

(١٠) كتب ولسون كاش، الذي أزعجه ذلك «ان الحكومة تمثل مرفقاً عادلاً ومناسباً

للمسلمين والوثنيين، وفي الجوانب الدينية تتبنى موقفاً غير منحاز بشكل صارم، والنشاط التبشيرى لا يشكل جزءاً من عمل الحكومة، وانما يقع عبئه على الارساليات وحدها، وهى التى تحدد اذا ما كان أولئك الجنوبيون الوثنيون سيتركون للوقوع فى قبضة الدين الاسلامى أم يمكن كسبهم للمسيحية». Cash, op. cit., 54.

(١١) فى يناير ١٩٣٠، قام السكرتير الادارى بتوجيه من الحاكم العام، بتوضيح السياسة الجديدة فى الآتى:-

ان سياسة الحكومة في جنوب السودان تهدف الي بناء مجموعة وحدات قبلية أو عرقية مستقلة بتركيب وتنظيم قائم على المعتقدات والعادات والتقاليد المحلية الى المدى الذي تتطلبه احتياجات العدالة والمساواة وقيام حكومة محترمة ..ان حكومة السودان ستشجع، بقدر الامكان، التجار اليونانيين والسوريين، أكثر من الجلابة (التجار الشماليين .. والسماح للمجموعة الاخيرة يجب أن يقرر دون مجاملة، ولكن بشكل تدرجي، وفقط لأفضل الجلابة الذين ترتبط مصالهم، بشكل واضح، بالعمل التجارى ويلتزمون بالطرق التجارية المشروعة، ومن المهم جداً تحديد تجارتهم في المدن أو الطرق المعبدة ..(هـ) يجب بذل الجهد المطلوب لجعل اللغة الانجليزية وسيلة الاتصال الاساسية وسط الناس واستبعاد اللغة العربية كلية ....No.
CS/1 C.I. Central Archives Office, Ministry of Interior, Khartoum,
فى *Said, op.cit., 30-37.*

تقوم السلطات المفوضة بمنح اذن السماح بالعمل التجارى فى الجنوب، بحكم القانون. ولها مطلق الحق فى رفض أو تجديد الاذن بعد انتهاء مدته، دون تحديد الاسباب، وفى الحالات المماثلة لها الحق فى الغاء أى إذن، دون اخطار، وعلى المستفيد إنهاء اعماله فى المنطقة المحددة فى الاذن خلال وقت تحدده السلطات المختصة .op. cit., 5

(١٢) اشار هندرسون إلى بعض أسباب منع الشماليين من وجهة نظر الاداريين البريطانيين حيث يقول:

« الشمالى بالنسبة للادارى البريطانى أما تاجر أو تاجر رقيق. فحتى منتصف العشرينات كان البقارة مستمرين في جمع الرقيق من مناطق جنوب النهر ليبيعونهم فى أسواق الشمال البعيدة، بالاضافة الى صيد الأفيال والزراف ونهب الماشية. وعندما يعلمون فى التجارة البسيطة، كانوا، فى الغالب، يخدعون ابناء القبائل النيلية البدائية ويغشونهم ويتعاملون معهم بطريقة مزيفة. أما التاجر الجلابى، فقد كان فى رأى البريطانيين، شخصاً غير مرغوب فيه فى الجنوب، لأنه يشرى على حساب القرويين، ويبيع سلعاً تافهة بأرباح عالية، وينشر الامراض الجنسية. وكان، دائماً، يقوم بالاحتيال علي الجنوبيين، والآن يهدد بالمضاربة، تماماً كما كان يفعل الهنود فى شرق افريقيا، عن طريق احتكار تجارة القطاعى والزراعة التجارية ».
فى تقرير حول ادارة السودان..App. IV., Para. 1937,pp. 136-37, K. D. D
Henderson.

(١٣) Cash, op.cit., 45.

(١٤) Trimingham, (1948) op.cit., 47.

(١٥) Mudathir, Grand Kadi (Chief Muslim Justice) of the Sudan,

A Memorandum for the Enactment of a Sudan Constitution Devrised from the Principles of Islam,19, 1956.

(١٦) SANU, Petition to the U. N., op. cit., 10.

(١٧) فى عام ١٩٤٤، اشار السير دوقلاس نيوبولد، السكرتير الادارى آنذاك، إلى (التخوف من وجود سياسة سرية لتقسيم السودان الى دولتين) ،أكد أنه .(لم يتخذ قرار بهذا الخصوص، وان حكومة السودان ليست مفوضة لاتخاذ مثل هذا القرار، وليس لنا رأى مسبق حول مستقبل جنوب السودان) Henderson, The Sudan, op.cit, p. 165 p. 164.

(١٨) Ibid, p. 164

(١٩) Fabian Society, the Sudan: The Road Ahhead, London, 1945, 25.

(٢٠) Trimingham, op. cit., p. 73.

(٢١) Memorandum on Southern Policy, CS/SCR/ 1.C.I.,

(٢٢) Ibid,

(٢٣) Ibid,

(٢٤) يشير الشماليون كثيراً الى هذا المؤتمر باعتباره المناسبة التى قرر فيها الجنوبيون الوقوف مع وحدة السودان الكاملة، ولكن ذلك أمر مختلف عليه.

انظر ايضا: Basic Facts About the Southern Provinces, op. cit,p. 18:

ونفس النقطة أكدها متحدثون جنوبيون في مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٦٥ –حول وجهة نظر الجنوبيين انظر، Deng and Oduho, The Problem of the Southern Sudan, Oliver Albino, The Sudan: A Southern Viewpoint, London, Oxford Univ. Press, 1970,pp. 25-28.

(٢٥) وجهة النظر هذه أكدها كل زعماء القبائل تقريباً، وظلوا متمسكين بها حتى عندما تراجع عدد كبير من موظفى الحكومة عن موقفهم الأول. فالزعيم كير ريحان Cier Rihan أكد أن (الناس فى مجالس التونج وقوقريال لا اعتراض لديهم للعيش كأخوان مع الشماليين، ولكنهم قبل ذلك يريدون تدريب وتأهيل انفسهم..) والزعيم لابانيا Lappanya أشار الى أن ..(مبدأ الوحدة يمكن تقريره فقط بعد فترة يتمكن الجنوبيون خلالها من تأهيل انفسهم بشكل يساعدهم على اتخاذ قرار الارتباط بالشمال أو الكنغو البلجيكى، أو يوغندا..) واتخذ الموظفون الجنوبيون والبريطانيون موقفاً مماثلاً لموقف زعماء القبائل، وأكد جيمس طمبرة، فى حديثه، ان التعليم لم يتطور في الجنوب بدرجة تسمح له بتمثيل كامل كالشمال.

(٢٦) فى افتتاح المؤتمر، فى اليوم التالى (استنكر) الرئيس (الشكوك المتبادلة بين الجنوبيين والشماليين) فالشماليون يتهمون الجنوبيين بالعمل على فصل الجنوب، والجنوبيون يتهمون الشماليين بالرغبة فى الهيمنة على الجنوب. ولذلك حثّ رئيس المؤتمر الاعضاء على طرح هذه الشكوك والاتهامات المتبادلة بعيداً لتسهيل المناقشة الموضوعية وتبادل الآراء.

(٢٧) ذكر الزعيم تيت Tete أنه يريد أن يدرس فى الجنوب حتى يؤهل نفسه قبل الذهاب للشمال، لأن الشخص لا يمكن أن يبدأ عملاً دون معرفة ودارية كافية، وأكد كير ريهان ولوليك أنهما تحدثا مع أهلهما فى اليوم السابق وانهم لم يغيروا موقفهم.

(٢٨) المسودة الاولى للقانون منحت الحاكم العام سلطة تعليق تطبيق أى قانون في الجنوب أو تحديد شروط معينة لتطبيقه. ولكن هذه الفقرة ألغيت لأن الحاكم العام منح سلطة الاعتراض على قرارات الجمعية، وكان يعتقد أن ذلك يلبى حاجة الجنوبيين للحماية ضد نزعة الهيمنة الشمالية.

(٢٩) The Sudan: A Record of Progress (1987).

(٣٠) Muddathir Abdel-Rahim, Imperialism and Nationalism in the Sudan, p.181.

(٣١) فى رسالة خاصة للمؤلف، لجنة التحقيق فى حوادث ١٩٥٥ أشارت في تقريرها إلى أنه (فى عام ١٩٤٧ لم يكن هناك من يتصور التطورات السياسية التى ستحدث فى السودان عام ١٩٥٥).

(٣٢) K. D. D. Henderson, The Sudan, op.cit,p. 177.

(٣٣) Report of the Commission of Enquiry, op. cit., 6.

(٣٤) The Republic of Sudan, Expulsion of Foreign Missionaries and Priests from the Southern Sudan, 1964,p. 3.

(٣٥) Ibid.,p. 5.

(٣٦) وفى محاولة لدفع السودانيين لدعم الحكومة فى جهودها لنشر الاسلام فى الجنوب، كتبت الرأى العام، الصحيفة اليومية فى ٨ أبريل ١٩٦٠، تقول: (لاشك أن كثيرين في هذا القطر يعلمون كم يحتاج الاسلام فى الجنوب الى جهود شعبية لدعم الحكومة. فالسلطات الادارية ورجال التربية ومصلحة الشئون الدينية لاتزال تبذل جهوداً جبارة فى هذا المجال، ولكن ذلك وحده لا يكفى).

أما جريدة أنباء السودان الاسبوعية، فقد كتبت، فى ٩ مارس من نفس العام، تقول: (لقد ظلت المسيحية تنتشر في جنوب السودان علي الرغم من الاجراءات التى اتخذتها الحكومة فى هذا الشأن ...ومن حق الحكومة ان تدعو منظمات الدعوة الاسلامية من الهند وباكستان والبلدان الاسلامية الأخرى للعمل فى نشر الاسلام فى الجنوب).

(٣٧) جاء فى The Sudan Almanac، لسنة ١٩٦٣، فى صفحة ١٤٩، مايلى: (ان الحكومة تعمل على توحيد النظام التعليمى فى عموم القطر، وأى تمييز بين المديريات الشمالية والجنوبية، قد يظهر ادناه، هو للشرح وسهولة الرجوع اليه فقط).

(٣٨) S. L. J. R. (1962)p. 83.

(٣٩) هذه العقوبات خفضت عند الاستئناف الى خمس وثلاث سنوات علي التوالى.

(٤٠) P. NO

(٤١) اشارت الحكومة الى الاسباب التى دفعتها الى اصدار القانون ولخصتها في الآتى:

من الواضح أن منظمات التبشير قد وجهت معظم جهودها، الداخلية والخارجية، ضد الحكومات الوطنية، كان هدفها الرئيسي يتمثل فى اضعاف الحكومة وتمزيق الوحدة الوطنية. لذلك اصبح من الضرورى اصدار قانون لتنظيم نشاط الجمعيات التبشيرية.Expulsion of the Missionaries, p. 17.

(٤٢) فى مقالها الافتتاحى كتبت America فى مايو ١٩٦٤، تحت عنوان (حقوق الانسان فى السودان)، تقول:- (افادتنا وزارة الخارجية... ان السودان قطر كبير يعانى من مشكلة وحدة وطنية، فسكان المديريات الشمالية الست "مسلمون يتكلمون اللغة العربية، بشكل رئيسى ومتميزون ثقافياً عن سكان المديريات الجنوبية الثلاث" ومنذ استقلاله، فى مطلع عام ١٩٥٦، ظلت الحكومة العربية فى الخرطوم تبذل جهوداً كبيرة لتعزيز الوحدة "والتكامل الثقافى والاقتصادى بين سكان الجنوب والشمال". وترى وزارة الخارجية أن التكامل الثقافي والاقتصادى بين الجنوب والشمال فى السودان يمثل قضية سياسية فى المقام الأول. وبالنسبة لسودانيين كثيرين، يمثل الحل، الذى تحاول أن تفرضه الحكومة، عامل تمزيق داخل شخصية الفرد السودانى... اكثر عامل من تكامل اقتصادى. فاذا تدخلت المسيحية فى الجنوب فى مسألة التكامل الاقتصادى والثقافى ...فان ذلك يعنى، فى الواقع العملى، افساد الانسان ودينه.

(٤٣) حديث أقرى جادين فى مؤتمر المائدة المستديرة، ٤.

(٤٤) الافتتاحية، عدد ٢٣ مارس ١٩٦٥.

الفصـــل الرابـــع

علاقات الدينكا نقوك والمسيرية الحُمر:

تجربة فى التوافق وصراع المصالح

مع تحول مـشكلة علاقـات الشمال/الجـنوب الى حرب أهلية، وتفـاقمـها خلال سنوات مابعـد الاستقلال، تطورت، بشكل مماثل، أوضـاع الدينكا أنقوك، الذين يمثلون صورة مـصغرة لمشكلة الشـمال/الجنوب، مع بعض الاختـلافات الهامة. وأوضاع دينكا نقوك تكشف لنا جوانب الشـبه والاختلاف مع العمليات والاتجـاهات التـاريخيـة التى وصـفناها فى الفـصلين الأول والثـانى من هذا الكتاب. فالتعـريب فى الشمال تم من خلال عملية منسـجمة، ولكن فى الجنوب ظهرت المقاومة، كـجزء من الصراع حول السلطة. أما وسط نقـوك، فقد حدثت العمليتان معاً، حيث خضعوا لقدر من التعريب وعاشوا فى وحدة وانسجام مع العرب، نتيجـة للتفـاعل والتآخى العـربى الافريقى. ومع تطور الصـراع حول السلطة بين الشـمال والجنوب، وامتـداده الى داخل المنطقة، بدأ نـقوك فى ربط هويتهم وانتـمائهم مع الجنوب، بينما ربـط جيرانهم المسيـرية الحمر أنفـسهم ببقية الشمال.

ان دينكا نقوك يعيشون فى مـديرية كردفان، «الآن جنوب كردفان» احدى المديريات الشـماليـة الست، بينما يعـيش الدينكا، بشكل رئيـسى، فى المديريات الجنوبية. وجيرانهم المباشرون فى الشمـال هم عرب المسيرية (البقارة) الحمر، الذين عاشوا وتفاعلوا معهم لمئات السنين، قبل الحكم الاستعمارى البريطانى.

والعـلاقة بين نقـوك والحمـر يمكن تقسـيمـها إلى ثلاث مـراحل مقـارنة بمراحل العلاقـات الشماليـة-الجنوبية. ففـى المرحلة الأولى، وهى فترة مـاقبل الحكم الاستـعمارى البريـطانى، تميزت العلاقة باسـتقلال الطرفين والعـلاقات الدبلوماسـية الودية، بالرغم من استـمرار تجارة الرقيق. وفى المرحلة الثـانية، وهى فترة الحكم البريطانى، توقفت تجارة الرقـيق واتسعت العلاقات السلمية، وخضع الطرفان لسلطـة مجلس واحد، تحت إشراف البريطانيين، الذين خـفَّفوا من تخوف نقـوك من هيمنة الأغلبـية العربيـة. أما المرحلة الثالثـة، وهى مرحلة

مابعد الاستقلال، فقد تميزت بحلول السودانيين الشماليين محل الموظفين البريطانيين، وضعف دور الحكومة فى التوسط والتسويات، وتزايد التوجهات المركزية واتساع دائرة الصراع حول السلطة.لمراحل كانت العلاقات بين مراكز القوي في الجانبين هي التي تحدد نوعية علاقات دينكا نقوك والحمر.

(أ) مرحلة ماقبل الحكم البريطانى:--

منذ عام ١٧٤٥م ظل الانقوك والحمر يعيشون فى المناطق التى يحتلونها اليوم[1]، وخلال فترة الحكم التركى المصرى كان الطرفان تحت ادارة واحدة هى مديرية كردفان. وبما أن الادارة التركية المصرية لم تكن مسيطرة سيطرة كاملة على المجموعات القبلية، فقد ظلت القبيلتان تحتفظان باستقلالهما السياسى الذاتى فى اطار المديرية المشتركة، وكانت علاقاتهما تتميز بالصداقة الودية، وبشكل ثابت، طوال تلك الفترة. وفى هذا الخصوص، تتحدث السجلات التاريخية عن زعماء نقوك كمستعربين، وتطلق عليها ألقاباً عربية مثل مك وسلطان وناظر، كإنعكاس لعملية تمازج ثقافي معقد كان لها تأثيرها على الطرفين. فالبقارة رغم انهم يعتبرون من القبائل الشمالية الأوضح عروبة، فهم، أيضاً، أكثر سواداً وأكثر أفريقية فى تعبيراتهم الثقافية مثل الموسيقى والرقص، وأكثر ليبرالية فى نظرتهم للمرأة، ومرتبطون بالأبقار أكثر من الابل، ويلبسون ملابس خفيفة (المرأة غير المتزوجة تلبس ملابس تستر خاصرتها فقط)، ومع انهم متعصبون فأن اسلامهم تشوبه مظاهر وثنية عديدة. وكل ذلك لابد من ربطه بتأثير الدينكا، نتيجة للعلاقات القوية بين الطرفين. وهذا التأثير الثقافى المتبادل، يصفه د. مدثر عبد الرحيم بشكل بليغ، رغم أنه يركز على العرب المهاجرين وأجدادهم المحليين، بعيداً عن جيرانهم، حيث يقول:--

«ان مدى تأقلم المهاجرين مع بيئتهم، وتعريب السكان المحليين، أو اذا نظرنا الى الموضوع من الزاوية الأخرى، تأفرق المهاجرين، يمكن توضيحه، كأفضل مايكون، بالنظر الى عرب البقارة، بلونهم الاسود الابنوسى، الذين تركوا الابل وارتبطوا بالابقار، يركبون على ظهورها ويعاملونها كأنها أبل، وذلك تأقلماً مع الظروف المادية فى كردفان ودار فور، الطينية التربة والكثيرة الامطار»[2].

ويشير د. د. هندرسون، أيضاً، الى ملاحظات مشابهة، حول تأثير الدينكا فى عرب البقارة:

«اكتسبوا الابقار الزنجية والدماء الزنجية، ولغة محلية متميزة، وحربة طويلة متميزة بمدية تشبه ورقة النبات، وجبة دراويش بكُم طويل تميزهم عن

الجلابة والأبّالة (رعاة الابل). نساؤهم الأكثر حرية في العالم الاسلامي. وفي مناطق الرعي، البنات غير المتزوجات ويرحن أرجلهن وينطلقن دون أي ملابس سوى قطعة قماش حول الرجلين فوق رحط من السيور الجلدية ليقعْن في الارض على ظهورهن أو بطونهن ...وهم راقصون ممتازون، يضربون الطبول طوال الليل، وفي بعض الأحيان طوال النهار، لأكثر من ثمان وأربعين ساعة أو أكثر من ذلك»(٣).

علينا، بالطبع، ان لا نضخم درجة التأثير الثقافي المتبادل بين البقارة والدينكا، لأن تبني الدينكا للتأثيرات الثقافية، كما سبق أن أوضحنا، له شروطه وينتج عنه، في الغالب، تمثُّل بعض العناصر الثقافية الاجنبية، بطريقة تصعب معها متابعة جذورها. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن البقارة أو جذورهم الافريقية المحلية. وبقاء الدينكا نقوك مرتبطون بثقافتهم، تماماً كمجموعة الدينكا الرئيسية في الجنوب، رغم علاقاتهم القوية مع الشماليين، هو، في الأساس، مؤشر للقيود والشروط التي تحكم تبنيهم لتأثيرات الثقافة المتبادلة. وعلينا، أيضاً عدم تضخيم الاحترام المتبادل بين البقارة والعرب. فالبقارة، للمفارقة، من المجموعات الأكثر اعتزازاً بهويتها العربية، والأسرع إشارة الى اصهارهم، الأكثر زنجية في الجنوب البعيد كـ"عبيد". وهذا قد يكون نتيجة لعدم الثقة في الشماليين الأقل عروبة أو للحقيقة الاجتماعية التي تقول أنه "كلما قويت العلاقة كلما عظم خطر الخصومة والسيطرة على الانتقام المدمر"(٤). فرغم ان الدينكا نقوك ينظرون للبقارة باعتبارهم أقرب اليهم من الشماليين الآخرين، إلا أنهم يزدرون ثقافتهم بشكل أكثر من ازدرائهم للثقافات العربية الشمالية الأخرى. وبالرغم من كل ذلك، فان التأثير الثقافي المتبادل لا يزال مستمراً حتى اليوم بين البقارة ونقوك، وفي بعض الاحيان قد ينتج ظاهرة ثقافية متميزة، لايمكن ربطها بالعرب أو الدينكا، رغم أنها تحمل عناصر من ثقافة الطرفين. فمن العادة، مثلاً، ان يستخدم نقوك والبقارة، في اتصالاتهم اليومية، كلمات يعتبرها كل طرف من لغة الطرف الآخر، ولكنها غريبة علي اللغتين، مثل كلمة شرشورChurchur، التي تعني المطر، وكلمة رونقو Rongo، التي تعني الشمس. وأي فرد من نقوك لا يتحدث العربية يمكنه أن يفهم جملة مثل "شرشور بيجي" أي أن المطر قد جاء ...وكلمة "بيجي" مشتقة من الكلمة العربية "يجيء".

يتحدث كثيرون من نقوك عربية البقارة بطلاقة، تماماً كما يتحدث الكثيرون من البقارة لغة الدينكا. ولكن أي فرد من نقوك لايتحدث العربية وأي بقاري لا

يتحدث لغة الدينكا، يمكنهما ادارة محادثة كرويل Creole عربية-دينكاوية، لها تركيبها ومنطقها الخاص.

ولكن الملمح، الأكثر وضوحاً، فى التبادل الثقافى السلمى، بين نقوك والحمر، يتمثل فى توافقهم وتعايشهم السياسى خلال العداوات العربية الافريقية المدمرة فى فترة ماقبل الحكم البريطانى. فالبرغم من أن مجموعات من الحمر كانت تتحالف مع الجلابة، التجار الشماليين، وتقوم بحملات استرقاق وسط الانقوك، إلا أن روابط التوافق والانسجام كانت تسيطر على معظم تاريخ علاقات الطرفين. وكان زعيم الانقوك يقوم بتحرير مجموعات الرقيق، من الدينكا والقبائل الجنوبية الأخرى، عن طريق علاقاته الودية مع عرب البقارة الحمر. أما زعيم الحمر، فقد كان يعكس روابط الود والصداقة فى منع أبناء قبيلته من القيام بحملات استرقاق وسط الانقوك، وفى اعادة المسترقين من الانقوك أو غيرهم. ففى أبيي، المركز الادارى للأنقوك، هناك منطقة تعرف بـ(متروك)، تعنى زريبة الحبس، كان يحفظ فيها الرقيق لحين تحريرهم. فالذين يعرفون أهلهم ويودون العودة، كانوا يجدون المساعدة اللازمة، والذين يريدون البقاء تحت حماية زعيم الانقوك، كانوا يجدون الحماية المطلوبة. وفى بعض الاحيان، كانت هناك تحالفات عسكرية بين الانقوك والحمر فى مواجهة القبائل الشمالية الأخرى، وبما أن أرض الحمر تعانى من نقص المياه، خلال مايقارب نصف السنة، فقد سمح لهم نقوك بالرعى فى مراعى منطقة "براليل".

وفى بدايات حركة الثورة المهدية، سافر أروب، زعيم الانقوك، ليعلن تأييده أمام قائدها. وكان معجباً بشخصية المهدى، ولكن عندما طلب منه المساهمة برجاله فى الحرب المقدسة اعتذر بأن موسم الجفاف لايساعد على سفرهم للشمال ووعد بإرسالهم فى موسم الخريف، إلا أنه لم يكن جاداً فى وعده، ومع ذلك سمح له المهدى بالعودة إلى أهله. وعندما سمع الخليفة عبدالله بذلك أرسل جنوده لملاحقته. وحسب رواية الاسطورة الدينكاوية، أن أروب نفسه كان رجلاً صالحاً تحرسه أرواح أسلافه، الذين أطلقوا رياحاً عاتية حجبته عن جنود الخليفة ومنعتهم من السير الى الأمام، ووفرت له الحماية والأمان حتى وصوله. وهكذا بدأ نقوك بتأييد الثورة المهدية، وعبروا عن ذلك بالترنيمة التى أوردناها فى صفحات سابقة، ولكنهم تراجعوا عندما لمسوا توجه النظام المهدوى لفرض هيمنة خارجية عليهم. والتعاون المبكر بين الدينكا والمهدى، ودور زعيم نقوك كوسيط بين الشماليين والدينكا، ثم تراجعهم وخيبة أملهم

في المهدية، كل ذلك وضعه الزعيم فيرديث فــي المقابلة، التى أشرنا إليها سابقاً، في الكلمات الآتية:-

... كثيرون من الدينكا لم يكن يعلمون ماكان يجرى ... لم نكن نعلم أى شيء... الانقوك فقط هم الذين عرفوا العرب. ومن جانبنا، هنا، لم نكن نعرف العرب. الاتراك، أيضاً، فاجأونا ...لم يكونوا مستعدين للتوقف والسؤال عن الزعماء ...لم يكونوا مهتمين بهم. أين كان سيجد الزعماء قوتهم؟ لم تكن عندهم قوة ...وحتى حقيقة أنه لايزال هناك دينكا موجودون حتى اليوم...الناس موجودون هنا بسبب جهود اسرتكم جدك الأكبر وجدك، هم الذين انقذوا الناس، المهدى جاء لتحرير الناس من سيطرة الاتراك ...هذا ماسمعناه من الشمال ...الكلمات أعلمتنا أن المهدى حرر الناس. لذلك، أعددنا مساهمتنا من الماشية والاغنام وارسلناها للمهدى عن طريق جدك الاكبر. وأرسلها للمهدى. والذى كان هنا يجمع الماشية من القبيلة ويرسلها إلى جدك الاكبر...يور ماير Yor Mayar، من جانبه، وأقوك Aguok أرسلوا مساهمتهم لجدك ...ماوين اريك Mawin Ariik جاء من منطقة لواك Lauc ...أكول اروب Akol Arob من كونقور Konggor، كل هؤلاء تجمعوا والتقوا بجدك الاكبر ...المهدى بدأ مُحَرِراً، لكن حكمه كان حكم قمع واضطهاد ...هدفه استعباد الناس...

والمهم، أن مقاومة الدينكا لحكم المهدية لم يتضمن أى مشاعر معادية للشمال والعرب ...بالعكس، فعندما امتنع الزعيم اروب عن مساعدة الثورة المهدية بجنود من نقوك، وجد تشجيعاً ودعماً لموقفه من الكلابنة، زعماء عموم الحمر فى ذلك الوقت، وكان قد منحهم مأوى فى دار نقوك بعيداً عن قوات المهدية[٥] وفى الجانب الآخر، كان على الجُلَّة، أحد كبار رجال الحمر، قد انضم للمهدية واصبح فى درجة ملازم للخليفة عبدالله. وهكذا، تمكن نقوك من الاصطفاف مع بعض القبائل الشمالية فى مواجهة القبائل الأخرى، وبذلك لم يكن موضوع المواجهة بينهم وبين الشماليين، عموماً، موضوعاً رئيسياً فى علاقاتهم.

(ب) فترة الحكم الثنائى:-

بعد وفاة الزعيم اروب، فى عام ١٩٠٥، خلفه ابنه كول Kwol، الذى ارتبط عهده بالمرحلة الثانية فى علاقات الحمر-نقوك. ومنذ البداية، تحرك كول الي الأبيض، مركز مديرية كردفان، وأكد هناك ولاءه للادارة الثنائية الانجليزية المصرية. وفى تحركه هذا، اتخذ الطريق الأطول، عن طريق ارض النوير، لأنه كانت لديه معلومات مؤكدة بأن بقايا قوات المهدية قد تعترضه.

وعند وصوله الى الأبيض أشار الى محاولات على الجلة ورجاله واستمرارهم في ارهاب ابناء قبيلته. وحسب الرواية الدينكاوية، أن على الجلة قد أُستدعى من قبل السلطات الحكومية وزجر بقسوة. ونتيجة لذلك تمت المصالحة بين الرجلين. واعتراف البريطانيين بالمهدويين كقيادات يمكن عن طريقها فرض نفوذهم على القبائل المحلية، خاصة فى مناطق الغرب، أدى الى تعيين على الجلة ناظراً للمسيرية الحمر، وبالتالى إنتزاع السلطة من أولاد كامل، الكلابنة، الذين قدموا زعماء بارزين فى الفترة السابقة. ومع أن أروب ظل مستمراً فى علاقته القوية مع أولاد كامل، إلا أنه قام ببناء علاقات جيدة مع نمر بن على الجلة. أنقوك يعتقدون أن أروب كان زعيماً للدينكا والحمر معاً، استناداً الى أن أحد فروع الحمر، الذين قدم لهم الأمان والمأوى فى وقت سابق، ظلوا يؤكدون ولاءهم له نتيجة لنزاعهم مع زعيمهم حول الزعامة. وجاء حفيد أروب، الزعيم دينق ماجوك Deng Majok، ليلعب، فى الفترة اللاحقة، دوراً رئيسياً فى المصالحة مع بابو نمر، الزعيم البارز الآن وسط قبيلته. وهكذا، استمر كول بن أروب، وابنه، دينق ماجوك، فى تقدير وتأكيد علاقات الود والصداقة التى جمعت بين زعماء القبيلتين، حيث إستمر الحمر فى رعى ماشيتهم فى أراضى نقوك، بل أن مناطق رعيهم قد وسعت إلى درجة مكنتهم من التحرك بحرية فى أرض نقوك، ومنح زعيم الحمر اراضى فى منطقة لو Leu الجيدة، لتأسيس مركز أدارى يقود منه نشاطه فى موسم الجفاف. ومن جانب آخر، تزوج بابو نمر ابنة أخت السيد عبدالرحمن[٦]، بهدف تقوية علاقاته مع أسرة المهدى. وأدى هذا الزواج، بدوره، إلى ربط زعيم نقوك بأسرة المهدى، ودفعه للأرتباط بحزب الامة فى وقت لاحق[٧]. والواقع ان الانقوك ظلوا، فى حالات كثيرة، يربطون انفسهم وانتماءهم بالشمال. فعندما حاول البريطانيون تنظيمهم تحت ادارة مديرية بحر الغزال واستعادتهم لبقية الدينكا فى الجنوب. رفض كول أروب ذلك بشدة. وفى ذلك يقول الزعيم قيرديث، الذى عاش تلك الفترة، مايلى:-

قد تحدثنا ...أحضرت الحكومة جدك ...جدك، كول العظيم، ابن أروب، وقالت له:- كول، انت تشبه العرب، ولكنك من الدينكا. أريدك ان تتوحد مع بقية الدينكا ، ويصبح مركزك قوقريال.." وجدك رفض بشدة."

وأروب، بالطبع، لم يكن غير دبلوماسي فى علاقاته مع أشقائه زعماء الدينكا الآخرين. فبعد أن رفض ضم قبيلته للجنوب، أنفرد كول مع قيرديث، حسب رواية الأخير، ودار بينهما مايلى:-

...ذهبنا وجلسنا بعيداً، ثم قال لي:- "يابن أبي، ماذا تقول لي، ليس هناك ما لا اعرفه ...اذا قدر لي أن ابتعد عن العرب، فانهم سيحطمون كل أشيائنا ...اذا اعطيتهم ظهري سيفسدون اشياءنا. لذلك أرجوك أن تتركني ...واذا ازداد اهلي في يوم ما، ويعلمون الطريقة التي تجري بها الأمور، ويعلمون انهم منكم، شعب واحد معكم، سيأتون اليكم ...لا أحد ينسى مكان انتمائه واهله ...سأتي اليكم، لكن، اذا قدر لي أن آتيكم وارتبط بواو، عاصمة بحر الغزال، سيدمر العرب اشياءنا ...حتى هذه الارض قد يقولون انها "أرضهم".

ان هذه النظرة والتقييم لها جذورها في التاريخ الذي أشرنا الى بعض جوانبه في صفحات سابقة، ولكن يجب فهم حديث "كول" كتفهم عميق لأهمية المصالحة وتوافق المصالح في مواجهة صراعات المصالح، منذ ان قام البريطانيون باستعادة الأمن والنظام العام وتأكيد حماية كل الناس. فالصداقة بين نقوك والحمر أصبحت حقيقة ماثلة للادارة الحكومية وللجنوبيين والشماليين، على السواء. وبالفعل، فرغم أن معظم الاداريين البريطانيين كانوا يفضلون ربط المنطقة بالجنوب، فقد كان بعضهم يري أهمية استراتيجية لنقوك في العلاقات العربية الافريقية الأوسع. وفي ذلك يقول هندرسون، الذي عمل مفتشاً لمركز المنطقة، وفي وقت لاحق صار حاكماً لمديرية دارفور، مشيراً الى الدور الذي يمكن أن يلعبه السودان كجسر بين العرب والافارقة، يقول...

...ان نقوك، في بحر العرب، قد ارتبطوا بمديرية كردفان في بداية الحكم الثنائي، ولعبوا، على الوجه الأكمل، دور الوسيط بين البقارة والحمر ودينكا بحر الغزال....(٨).

ومن المهم أن نشير هنا الى أن نقوك والحمر كانوا يقفون ككتلة موحدة، في كل الاجتماعات القبلية التي كانت تعقد سنوياً بين المديريات المتجاورة، في مواجهة القبائل الجنوبية الأخرى، بما في ذلك ابناء جلدتهم... قبيلة الدينكا. وفي عام ١٩٥١ عاودت الحكومة محاولة ربط المنطقة بالجنوب، وخيرت نقوك بين الانضمام لبحر الغزال أو أعالي النيل، واستند البريطانيون،في ذلك، إلى اختلاف نقوك العرقي والثقافي عن غالبية المجموعات التي كانوا يشاركونها في التبعية لمركز واحد ومديرية واحدة. لذلك اعتبر أن من الأفضل الارتباط بأبناء جلدتهم في الجنوب. وبعد تجربتهم الطويلة تحت إدارة مديرية كردفان، فان القرار لم يكن بالبساطة التي توقعها الاداريون البريطانيون. فالقبيلة لم تشعر بهيمنة تحت ظل النظام الذي كان سائداً طوال الفترة السابقة. وفك

الارتباط، فى الكثيـر من جوانبه، قد يؤدى الى مـخاطر عديدة محسـوبة وغير محـسوبة. وهى مـخاطر شـخصيـة وجماعية، مـن وجهة نظر الزعـيم دينق ماجوك. فـمن الناحية الشخـصية، كان يعلم أن زعـيم نقوك يتمتع بامـتيازات كبيرة مقارنة بزعماء الدينكا الآخـرين، لأنه كان يعامل، من عدة جوانب، كزعيم شمالى. فـمرتبه كان يفوق كثـيراً مرتب زملائه الجنوبيين، وكان يجد احـتراماً وتقديراً أكثر من السلطات الحكومية، وكـانت له سلطات أوسـع وأكثر استقلالاً فى ادارة قبيلـته. وبكلمات بسيطة، كـان يحتل موقعاً أعلى مـن مواقع زملائه، الأمر الذي كان يعتـبره امتيازاً للقبـيلة بشكل عام. ومع ذلك، فاننا لا يمكن أن نتجاهل نظرة نقوك الدونية لأقـربائهم الجنوبيين. وبالاضـافة الى كل ذلك، كان هناك رأى عـام واسع يعـتـقـد أن البـريطانيين يخطـطون لفـصل الجنوب عن الشـمال بهـدف الأبقاء على الادارة الاسـتعـمـارية فى الجنوب بعد اسـتقـلال الشمـال. ومع وصول تأثيرات ذلك الى أوسـاط المتعلمين من أبناء القبـيلة، قام بعضـهم بدفع الزعيم دينق مـاجوك فى إتجاه ابقـاء نقوك فى الشمـال، بهدف إفشال مناورات البريطانيين وضمان إستقلال الجنوب، فى نفس الوقت. وكانوا يرون ان موقف بعض الاداريين البريطانيين، الذين كـانوا يتعاطفون مع الدينكا ويستـاءون من هيمنة الحمـر على نقوك، يؤكد فـقط وجود مؤامـرة سياسـية كبرى تتستر خلف مـحاولة إعادة ربط نقوك بالجنوب. وهكذا، تجمعت كل هذه العوامل والأسباب لتجعل الزعيم دينق ماجوك يقرر البقاء فى الشمال ويرفض الانضمام للجنوب، وذلك رغم الضـغوط العديدة التى تعرض لها. فـحاكم بحر الغزال، الذى كان مفـتشاً لمركز غرب كردفان، وكان يجـد إعجاب نقوك، بشكل عام، وزعيمـهم، بشكل خاص، بذل جهداً كبيراً لاثناءهم عن البـقاء فى الشمال. وفى تلك الفتـرة، قام بتعبـئة معظم زعمـاء بحر الغزال ودفعـهم للضغط على زعيم نقـوك للارتباط بالجنوب. وفى هذا الاتجـاه، قامت مجـموعة من زعـماء مركـز قوقريال ببحـر الغزال بزيارة المنطقة، واسـتخدمت كل أسـاليب الضغط والاغراء الممكنة، بما فى ذلك قبولهم بزعامة زعيم الانقوك[٩]. وفى ذلك يقـول قيرديت:—

.. منذ عهد قريب، بعد ميلادك بسنوات قليلة، تحدثنا مع دينق ماجوك. ذهبنا وتحدثنا معه ...البريطانيون قالوا له (أهلك فى الجنوب يريدونك). تجمعنا كلنا أجونق Ajuong الذى أسس يور، بولديت Boldit، أسرة المطر، وآخرون... تحدثنا كثيراً قلت لوالدك دينق ماجوك... لقد ناقشنا الأمر مع والدك قبل وقت طويل... والدك حدثنى بالحقيقة. ولكن ماحدثنى به عمى لم

يعد قائماً... علينا الآن أن نتركه ونتوحد خلفك أنت... نجعلك درعنا، ولن تأخذ درعنا وتحولها للعرب... ذلك لا يمكن أن يحدث، عليك أن تأتي وتصبح درعنا... ناقشنا الأمر كثيراً.

أحد الشيوخ، يدعى دينق نيال، قال:

«دينق ماجوك... يجب أن تقبل ماقال به ابن ثيك Thiik حديثه طيب، انه يقول لك، يأتي يوم يرجع فيه الانسان الى بلده وأهله. وعندما يرجع من تلقاء نفسه، يسأله الناس عن كذا وكذا ومتى وصل؟ ولكن عندما يطلبه أهله، هؤلاء يعرفون وصوله، لا يسألونه بنفس الطريقة. دعنا نستمع الى هذه الحكمة، يا ابن كول».

تحدثنا كثيراً وبعدها تركت الامر علي امل ان نلتقي مرة اخري لمناقشة الامر.

لم يجتمعوا مرة أخرى، ولكن، عندما جاء القرار النهائى، قرر زعيم الانقوك البقاء مع الشمال، وغالبية أبناء الدينكا انقوك تبعوا قرار زعيمهم. وعلق أحد الشيوخ على ذلك بقوله (ان محاولة استعدال الرجل العرجاء تكسرها، وحتى اذا كان الانقوك قد ضلوا الطريق واختاروا كردفان، فان محاولة اصلاح هذا الخطأ ستكون مدمرة...) ولكن الرأى العام وسط القبيلة لم يكن غير منقسم، فأحد المقربين للزعيم دينق ماجوك، من المحاربين المعروفين، نظم أغنية ضد اختيار البقاء فى الشمال جاء فيها:

فى المستقبل... اذا دخلنا فى الحرب مع التويك
سأحمل درعى وسنكون فى المقدمة
وإذا دخلنا فى حرب الرك
سأحمل درعى وسنكون في المقدمة
وإذا دخلنا فى حرب مع النوير
سأحمل درعي وسنكون فى المقدمة
ولكن... إذا دخلنا فى حرب مع العرب
سأحمل قرعى وأنادى زوجتى:
"تعالى، دعينا نذهب"
تلك الحرب هي حرب أشويل ودنيق وكان دى داو
الرجال الذين شهدوا بهذا الطريق [١٠]

بعد اختيارهم البقاء فى مديرية كردفان، مباشرة، ربط نقوك بمركز دار المسيرية الذي كون حديثاً، ولاحقاً بمجلس ريفى المسيرية، ادارة الحكم المحلى فى المنطقة. ويمكننا أن نلاحظ هنا، بعض أوجه الشبه بين قرار الجنوبيين فى

مؤتمر جوبا إستعجال يوم الاستقلال من خلال التعاون مع الشمال، وموقف نقوك باختيار البقاء فى الشمال بدلاً من الانضمام للجنوب. فكما إعتمد نقوك علي عدم تحيز الحكومة البريطانية أولاً. ثم الحكومة السودانية، ولو بدرجة أقل، كذلك إعتمد الجنوبيون على إشراف البريطانيين فى علاقاتهم الشمالية-الجنوبية، حتى يتمكنوا من تطوير أنفسهم ومنطقتهم. ولكن قرار نقوك لم يكن نهائياً. والحكومة المركزية كانت تعلم أن نقوك لم يكونوا متفهمين لحقيقة نتائج قرارهم، إذا ما أخذنا فى الاعتبار أوضاعهم التقليدية وفقدانهم لأولويات التعامل مع السياسة فى دولة حديثة. لذلك منحوا فترة خمس سنوات يمكنهم بعدها إعادة النظر فى قرارهم إذا رغبوا فى ذلك. ولكن عندما حاول البعض الاستفادة من هذا الشرط، فى وقت لاحق، أبدى الشماليون انزعاجاً وقلقاً واسعاً.

لقد أدّى انضمام نقوك لمجلس ريفى المسيرية، وكانوا يمثلون ١٠٪ فقط من عضويته، الى إثارة التوتر والاحتكاك بينهم وبين الحمر. وجاءت المواجهة أولاً عندما اختير أحد الزعماء ليكون الزعيم الأعلي لكل قبائل المنطقة. وبجانب نقوك، والحمر، كانت هناك قبائل أخرى، تشمل قبائل النوبة، وهي مجموعة زنجية تختلف عرقياً وثقافياً عن القبائل الشمالية. هكذا، تم اختيار بابو نمر زعيماً أعلى ورئيساً إدارياً وقضائياً لكل زعماء قبائل المنطقة، ولكن زعيم نقوك إعترض بقوة، إستناداً إلى تميز قبيلته عرقياً وثقافياً، وأنها بالتالى يجب أخضاعها لسلطات الحكومة المركزية، وأعلن بوضوح أن ذلك يمثل شرط بقائه في مجلس واحد مع البقارة الحمر، ووجد دعم وتأييد الاداريين البريطانيين. وهكذا اصبح نقوك فى وضع إستقلال ذاتى في إطار وحدة ادارية مع الحمر. والمفارقة ان أسرة نمر لم تفهم تمتع الدينكا بحقوق أكثر من النوبة، حتى يظلوا خارج إدارة سلطتهم المحلية، وأن دينق ماجوك وأهله لم يفهموا كيف تفكر أسرة نمر في ضمهم تحت سلطتها. وبذلك بدأت التوترات تنمو وتتزايد وتظهر فى أشكال مختلفة، رغم اختفائها تحت مظاهر الاحترام المتبادل والعلاقات الودية. المهم مع إستمرار السلطة فى أيدي البريطانيين، وكان نقوك على ثقة بوجود حكم نزيه غير متحيز، قادر على الاشراف علي هذه العلاقة المتنوعة، عرقياً وثقافياً، وقد برهنت الادارة على أنها تستحق هذه الثقة بجدارة.

(ج) فترة مابعد الاستقلال

بانتهاء سودنة الوظائف واعلان الاستقلال بدأت المرحلة الأخيرة من تاريخ علاقات نقوك-الحمر. وكما كانوا في السابق، إستمر نقوك في الاعتماد علي

عدم تحـيز الحكومة ونزاهتـها. وهذا ماسـاعدهم علي المحـافظة على التوازن بشكل عام، ولكن الحكـومة فى هذه المرحلة كانت شـمالية، سـواء كان ذلك من وجهة نظر الحكومة نفـسها، أو كما يراها نقوك حقيقـة، وبالتالى فمن الصعب عليـهـا الالتزام بـعدم التـحـيـز والنزاهة. والتـدهور المتـسارع فى عـلاقـات نقوك-الحمر، تحت ظل ادارة موضـوعية، لكنها مهتمة اهتمامـاً كبيراً باوضاع المنطقـة، ظل يميز عـمليات الصـراع حول السلطة فى المنطقـة بشكل دائم منذ سودنة الادارة. ففى عام ١٩٥٤ انفجـرت الأوضاع خلال انتخابات أول برلمان سودانى. وكان الحمر ونقوك مشـتركين في دائرة انتخابية واحدة. ولذلك دعى بابو نمر والد زوجته من الخرطوم، السيـد الفاضل، للترشيح فى الدائرة باسم حزب الأمة، وهو الذى لم يشـهد هذه المنطقة من قبل. ومثل ذلك استفزازاً كبيراً لنقوك، ففسروا ماجرى بأنـه عبارة عن بيع لوطنهم مقابل مبلغ من المال. ومع ذلك كسب السيد الفاضل الانتخابـات دون صعوبات. المهم، المشاركة مع الحمر فى دائرة واحدة، من وجهة نظر نقوك، ودعوة السـيد الفاضل وانتخابه ممثلاً للدائرة، كل ذلك كان يمثل مؤشراً علي تغير السيـاسات لمصلحة البقارة الحمر -والمشكلة لم تنتـه عند ذلك الحد، فـفي المجلس الريفى، كـانت الأمور تسـير، بشكل عام، باتجاه شمالى تماماً... اللغة العربية كانت هى اللغة الرسمية، مع أن معظم الاعضاء الدينكا لايـفهمونها تماماً، ودينق ماجـوك هو الوحيد الذى كان يتحـدث بها. والمسائل الأخـرى، الخاصة بتـوزيع سيارات الحكومـة، وموظفى المجلس وغيرها، أكدت لنقوك حقيقة خضوعهم لهيمنة الحمر. ولذلك قام أروب كول، أصـغر أخوان دينق مـاجوك، بالتأسى علـى هذا التحول فى اغنيـة، جاء فيها:

كول الانقوكى العظيم نُهب وسلب
اصبحنا ضحية، ذبحنا مثل ثور
دينق الزعيم.... غزوه في أرضه
آه... ان أبى كان هنا، أبى ابن أروب الكبير
وانت... على نمر
تخلق الفوضى والاضطراب!
ماذا عن كسوة الشرف التى منحت لكول؟
دينق دى كول يلبس كسوة الشرف
إنه مثل الاله... الاله الاعظم
فى زمان على، على الايام السابقة

عندما نصبت انت، أروب، زعيماً لكل الديار
تلك كانت الديار
خلاص... ذهبت أيامنا بعيداً
خلاص... أصبحت أيامنا معدودة
عندما حدثت الفوضى
الرجل العظيم لبس كسوة الشرف الحمراء
وأرض النوير كانت أرض والده
كم كانت عظيمة قبيلة الأنقوك....
أنقوك أبى، كول أروب
على، وقتها، كان يملك زريبة أبقار
منها تخلى عن حصان
حتى يسترضى أروب
يتصالح مع والد والدى
وكلما سأل ماديبوك
يقال... سلطته تنتهى فى المجلد
الرجل الذي فقدناه كان حارسنا الذى حمانا من الموت
الحارس الذى حمانا من الموت
هل يكون العرب الاباعد، عرب النهود، الحارس
الذى يحمينا من الموت
هل يكون عرب المجلد الحارس الذي يحمينا من الموت
ياللمصائب التى وصلت ديارنا الآن...؟
على حارس القبيلة السمراء
مد نفوذه فى ديار أروب
والمصائب انتشرت الآن فى انحائها[١١].

لقد كان لتطورات مشكلة الشمال-الجنوب دور كبير فى توسيع وتعميق تدهور علاقات القبائل مع بعضها البعض. ففى عام ١٩٥٥ ظهر أول تعبير عن دخول العنف المسلح فى السياسة السودانية. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت "الفيدرالية" كلمة فضفاضة في سياسات العلاقة بين الشمال والجنوب. وبعد التمرد، والانتفاضة العامة، التى صاحبته، أصبح الشباب الجنوبي المتعلم، بشكل خاص ، قوة سياسية نشطة لها وزنها وتأثيرها. وفى هذا الإطار تكونت

جمعية شباب الدينكا في كل انحاء السودان، وكان من بين أهدافها توعية جماهير الدينكا بمشاكل السودان الحديث التى تواجههم. ورغم ان السياسة لم تكن مجال اهتمامها الوحيد، لكنها ظلت تحتل جزءاً هاماً من البرنامج الثقافى الذى وضعته الجمعية لنفسها. وتركز الاهتمام المباشر لاعضائها من ابناء نقوك، وكانوا كلهم من المتعلمين، على تقرير مصير المنطقة. ولتحديد أهداف الجمعية ونشاطاتها، عقد مؤتمر فى اكينهيال Akecnhial فى ديسمبر ١٩٥٥، تحت إشراف أحمد دينق، ابن الزعيم دينق ماجوك، الذي عين مساعد ضابط تنفيذى فى منطقة نقوك -وكان واضحاً أن الحمر قد أصيبوا بخيبة أمل من تعيينه، واعتبرو ذلك محاباة من البريطانيين للدينكا على حسابهم. وعند انعقاد المؤتمر كان أحمد، الذي تلقى تعليمه فى الشمال، وكان عضواً نشطاً فى تنظيم الأخوان المسلمين، قد غير موقفه تجاه الشماليين عموماً. وشارك هو وأبناء الدينكا المسلمين، الذين تقلوا تعليمهم فى الشمال، فى اتخاذ القرار الجماعى، الداعى الى دفع نقوك لاعادة النظر فى قرارهم السابق الخاص ببقائهم تحت ادارة مديرية كردفان، والارتباط بالجنوب، مع تأكيد أهمية ذلك فى ضوء احتمالات منح الجنوب حكماً فيدرالياً. وقام المؤتمر بارسال مندوبين منه لكل الزعماء والوجهاء لحثهم على الموافقة على هذا التوجه. وبالفعل وجد قرار المؤتمر موافقة زعيم الانقوك الأكبر وزعماء فروع القبيلة وزعماء الاقسام والعشائر وكل الوجهاء الكبار، وطلبوا التشاور مع مجموعاتهم. وبذلك وضح أن نقوك قد غيروا موقفهم السابق لمصلحة الارتباط بالجنوب. وكان لابد من التفكير فى كيفية ابلاغ الحكومة ردود الفعل المتوقعه، ولم يُستبعد إحتمال محاولة الحكومة الالتفاف حول القرار بالترغيب والترهيب. لذلك تقرر اختيار وفد من الشباب المتعلم لابلاغ القرار لحاكم المديرية عن طريق مفتش مركز دار المسيرية، وكان شمالياً فى ذلك الحين. وفى هذا الوقت كانت أخبار القرار قد وصلت رئاسة المديرية واستقبلها الشماليون كتطور خطير. فقد نشرت جريدة "كردفان" مقالاً افتتاحياً هاجمت فيه حركة نقوك واعتبرتها خطوة إنفصالية تهدد وحدة البلاد بشكل عام، ودعت إلي اتخاذ خطوات جادة ضد دعاة هذا الاتجاه الخطير والمضر بمصلحة البلاد. وعندما وصل الوفد الى رئاسة المركز والتقي بمفتش المركز، قامت السلطات باعتقال اعضائه جميعاً. ولم يُطلق سراحهم إلا بعد تدخل الزعيم دينق ماجوك، الذى واصل علاقاته الودية مع الحكومة المركزية وكبت مراراته ومشاعره تجاه الحمر. وفى نفس الوقت، تقريباً، تم حل جمعية شباب الدينكا. التى كان لها تأثير كبير فى أوساط

الدينكا، وبذلك توقفت نشاطات الشباب المتعلم فى المنطقة. ونفس المصير وجده موضوع الارتباط بالجنوب. ولكن الصراع بين زعيم نقوك والحمر ظل مستمراً. وفى وقت لاحق طُلب من الحكومة تكوين مجلس محلى منفصل لنقوك، لكن الطلب رُفض بإدعاء أن حجم السكان نقوك ليس كافياً لتكوين مجلس محلى، مع أن تعدادهم كان يفوق المئة ألف نسمة. وتضاعفت مرارات نقوك نتيجة وجود حزب الامة في السلطة، وهو حزب أصهار بابو نمر، ولأن رئيس الوزراء والوزراء الآخرين، وموظفي الخدمة المدنية فى الحكومة المركزية كانوا قد أبدوا تعاطفاً، جميعاً، مع مطالب زعيم نقوك بادارة ذاتية فى اطار مجلس محلي مشترك مع العرب. ومع ذلك، استمرت تبعية الزعيم لإشراف الحكومة المركزية، أكثر من بابو نمر، فى المسائل الادارية والقضائية وفى بعض الحالات، عندما تتهدد مصالح نقوك، بشكل واضح، كان كبار الموظفين يتدخلون فى قرارات الاغلبية الشمالية فى المجلس[١٢]. ورغم كل ذلك، كان يبدو أن حكومة حزب الامة تحابي مصالح الحمر بطرق مختلفة، إذا كان ذلك فى مصلحة الحزب[١٣].

فى عام ١٩٥٨ إستولى الجيش على السلطة في الخرطوم، بقيادة الفريق ابراهيم عبود. وجاء الانقلاب برداً وسلاماً على زعامة نقوك، لأنه جعل نقوك والحمر في وضع متساوٍ امام النظام الجديد. ولهذا السبب، بشكل عام، أعلن الزعيم دينق ماجوك تأييده للحكومة العسكرية، وظل ثابتاً على موقفه هذا طوال سنوات عمرها الست. ووجد فى المقابل سند الحكومة ودعمها فى مشاكله المحلية[١٤]. والواقع أن التعاون بين الطرفين لم يكن حدثاً فردياً طارئاً، بل تعاوناً جوهرياً ومنطقياً من وجهة نظر كل منهما. فالحكومة كانت فى حاجة لتأييد ودعم الزعيم، ووجدته بالفعل، وفى المقابل وجد الزعيم تأييد ودعم الحكومة فى صراعه حول السلطة فى المنطقة. ويتضح إخلاصه فى موقفه هذا في البرقية التى أرسلها للفريق عبود، رئيس المجلس الأعلي للقوات المسلحة ورئيس الوزراء حيث يقول فيها:

(أنا، دينق، زعيم الدينكا نقوك، أنا راضى ومسرور من قادتنا، الرئيس عبود وكل الوزراء... لقد حملتم أنتم إسم بلادنا عالياً حتى أصبحت بلادنا كبيرة بين بلدان العالم. وعندما يأتى وقت انتخاب رئيس الجمهورية، يجب أن لا تكون هناك شكوى من الوضع الحالي ... ليس لنا أى سبب يدفعنا للاختلاف مع رئيس الوزراء، الذى يطلق عليه الآن رئيس القوات المسلحة... انه رجل يتبع طريقاً مستقيماً، ليس معوجاً، لايفرق الناس بين جيد وردىء، كل

ابناء السودان سـواسية فى نظره. أتمني لكم أيهـا القادة العافيـة والسلام فى جهودكم لدفع اسمنا بين أمم العالم.. لكم تحياتى).

ان هذه البـرقيـة، التي أرسلت قـبل عـامين من سقـوط الحكم العـسكري بانتفـاضة شعـبية قـادها طلاب واساتذة الجامـعة، وشملـت كل مواقع القطاع الاقتصادي الحديث فى البلاد، تكشف لنا كيف يمكن أن تؤثر المصالح المتضمنة فى هذه الوضـعية فى تحـالفات زعـمائهـا مع الحكومة المركـزية... وتناقض السيـاسات المتضمنة فى هـذه الوضعية يوضـحه لنا تعايش تناقـضات الدينكا نقوك وعرب المسـيرية الحمر مع تأييد ودعم الدينكا نقوك لحكومـة تقود حرباً أهلية، عربية–دينكاوية فى ملامحها العامة[١٥]. وفيما يتعلق بصراعات الأنقوك والحمر، أبـدى الفريق عبود مـلاحظات هامة فى مصلحة دينق مـاجوك، ولكن حتي الحكومـة العسكرية كانت، فى بـعض الاحيان، تتحـالف مع بابو نمر على أسـس لا تعنى سوى التمييز والمحاباة[١٦].

وبشكل عام يمكـن القول، رغم تأييد الحكومـات المختلفـة والموظفين كان يخـتلف في الدرجة، إنهـا ظلت، بشكل ثابت، تحـافظ علي السلطة الشـخصـية لزعيم نقوك وعلى ذاتية قـبيلته فى مواجهة الحمر. ونتيـجة لذلك، ظلت مسألة الصراع العـربى الافريقى، فى إطار نقـوك، مسألة صـراع بين الحمـر ونقوك، بشكل أساسى، تـدخل في الحكومة كعنصـر هام، مع أن عدم تحـيزها لا يمكن افتراضه دائمـاً– ومن وجهة نظر نقوك، بشكل عام، كان لـهذا الصراع ارتباط وثيق ومتزايد مع المشكلة الاكبر، مشكلة علاقات الشمال والجنوب[١٧] وهكذا عندما تفاقمت الأوضاع في الجنوب، تدهورت أوضاع المنطقة حتى عام ١٩٦٥، حيـث تفجـرت صراعات دامـية وواسـعة، كـانت من بين الاحداث الأسـواء فى تاريخ العلاقات الشـمالية الجنوبية. ودخلت المنطقة فى الصراع بـانضمام عدد كـبيـر من شـباب نقـوك، بما في ذلك أبناء الاسـر الكبيـرة والقـائدة، لحركـة الانيـانيا، وأصـبح بعضـهم من القـيادات العـسكرية البـارزة وسط المقاومـة المسلحـة فى أدغال الجنوب، وبذلك لم تعـد المشكلة مـشكلة صراع مـحلى بين نقوك والحمـر، وإنما بين الجنوبيين والشماليين[١٨]، وحدد نقوك مـوقفهم فى الارتبـاط بالجنوب والهـوية الجنـوبيـة، ولكن الزعـيم دينق مـاجـوك، الملتـزم بالقـانون والنظام وربما الحكـومة، ظل مـسـتـمـراً فى تعـاونه مع السلطات الحكوميـة لاستعادة الأمن وتهـدئة الاحوال.. ولضمـان ذلك دعى قوات الأمن، لكنه اشتـرط عدم تدخلها فى السلـطات القبلية وتحـويل وجودها الطارىء الى احتـلال عسكرى وهيمنة على زعمـاء القبـيلة، كما هو الحـال فى الجنوب فى

بداية التمرد والانتفاضة.

ومجمل هذه الصعوبات أدت، سياسياً، الى تزايد قلقه وانزعاجه، ولكنه ظل صامداً وثابتاً، بل انهـا قد أدت عملياً الى تقوية مركزه البـارز وحولته الى قائد بطولى وسط نقـوك والقـبائل الاخـرى فى الجنوب البـعيـد. وكمـا أشار أحـد القيادات السياسية الجنوبية، قـائلا: فقد حقق دينق ماجوك المساواة المطلقة مع زعمـاء القبائل العربيـة، واصبح مقـبولاً من جانب الحكومـة المركزية على هذا الأساس... هذا الوضع بالنسبة لجنوبى يعتبـر معجزة، وكزعيم جنوبى، له هذه الوضعـية، كان فى الواقع قائداً أكـثر بروزاً من زملائه الشمـاليين المجاورين لمنطقته.

فى عام ١٩٦٩ توفى دينق مـاجوك، ومعه إنـتهى التوازن عندما ابتـعدت أرض نقـوك عن دور جسـر التفـاعل الآمن بين الجنوب والشـمال- وبالفـعل، تصادفت وفـاة دينق ماجوك مع اتســاع وتزايد نشاطات حركـة الانانيا، بشكل عام، وامتدادها الي المنطقة بقـيادة بعض أبناء نقوك. ومع أن جناح الانيانيا فى المنطقـة لم يكن قوياً بدرجـة تمكنه من الاسـتيـلاء على المنطقـة، لكن تنظيمـه المتحرك مكنه من فرض ضرائب على السكان، ومعـاقبة أى شـخص يشتبه فى تعاونه مع السلطات الحكومـية، وتهديد قـوات الأمن وتحويلها هي نفسـها الى مصدر للعنف والارهاب. وباستثناء مجموعة صغيرة من الانتهازيين المعروفين، الذين استفادوا من التعاون الوثيق مع قوات الحكومة، فقد أصبحت غالبية ابناء الدينكا مشكوكـاً فى ولائها ومتـهمة بالتعـاون مع الثوار والتورط فى اعـمال الشغب. ومشـاعر أبناء نقوك، العاجزين عن فـعل أى شىء تجاه هذه السيطرة العسكرية على قبيلتهم والهيمنة على زعمائهم، تعبر عنها هذه الأغنية:-

كيف جاء إفساد العالم وتخريبه...؟
ديارنا مقفولة ومحمية
العرب أفسدوا ديارنا وخربوها
خربوا ديارنا ببنادق لها لحى
بنادق تهدر وترعد، ثم تخرج صوتاً جميلاً
مثل الطبول القديمة، التى يروض بها الجاموس
حتى تمسك قرونه
هل اللون الاسود بهذا القبح؟
الذى يدفع الحكومة لأن توجه بنادقها نحوه؟
الشرطة تتحرك فى كل مكان

وحملة البنادق يثيرون الغبار
والجبناء يستسلمون خوفاً من السلاح...؟
ويتخلون عن ديار استعدناها من الاجانب
ديار رحارينا من أجلها سوياً
حتى أجبرنا الانجليز على الرحيل منها
هل، لكل هذا، نهاجم بالبنادق؟
هل نستحق ذلك؟
ما هكذا المعاملة Cieng(١٩)
آه... ماهكذا نعامل
ياجنوب دينق، ابن كول
ماتفعله هذه الحكومة
ليس شيئاً جميلاً
إنها تطلق النيران من بنادقها فى كل مكان
مثلما تنثر حبوب السمسم في الحقول
ثم تقوم بحساب الفوارغ
وتقول، بكل بجاحة... "مليون طلقة".
ومع ذلك، لم تخضع نقوك
قضيتنا مع هؤلاء الناس أمام المحكمة
المحكمة تعقد جلساتها بين الحشود
أكاى باجوك
ولحوم أجسادنا
لها قضية
أعقدوا المحكمة
ودعوا الله
ثم قالوا: ياالله... لماذ تفعل هذا؟
ألم ترى ماحدث للبشرة السوداء؟
المحكمة أدت القسم
وجاء أخوالنا،
مع بركات الآلهة في السماء
ولحوم أجسادنا
جلسوا على أرض أبناء بيونق

وانطلق أعصار من الغبار فى أبيى
حتى وصل السماء
أسرة أروب دى بيونق لا تستطيع فعل شيء
ولا أحد يعلم ماذا تحمل الحكومة في جعبتها..؟
حتى اذا اسقطتنا بنيران بنادقها الملتحية
فبمن نستنجد...؟
هذا مانفكر ونتأمل فيه دائماً[٢٠]

وهكذا كان توصل الرئيس نميرى الى حل لمشكلة العلاقة بين الشمال والجنوب، واستعادة السلام للسودان، حدثاً تاريخياً هاماً، استقبله نقوك، تماماً كبقية الجنوبيين، بتنفسهم الصعداء. وفى مفاوضات أديس أبابا، حيث تم التوصل إلى اتفاقية السلام عام ١٩٧٢، وجدت قضيتهم اهتماماً واضحاً، وتضمنت الاتفاقية فقرة خاصة بتعيين حدود الجنوب كانت تستهدف معالجة الوضع الشاذ لمنطقة الانقوك- فالفقرة ٢(iii) تعرِّف الجنوب بأنه ...مديريات بحر الغزال، الاستوائية وأعالى النيل، وفقاً لحدودها المعتمدة فى الأول من يناير ١٩٥٦، والمناطق الأخرى، التى ستقرر، من خلال استفتاء عام، اعتبارها ثقافياً وجغرافياً جزءاً من كيان الجنوب... المهم أن الاستفتاء لم يتم حتى الآن والوضع الشاذ لمنطقة نقوك لايزال مستمراً. وتاريخ هذه المنطقة يظل يمثل تجربة غنية فى امكانية بناء علاقات متطورة بين الجنوبيين والشماليين، ولكنها كشفت، أيضاً، الظروف التى مكنت الصراع حول السلطة من عرقلة الوحدة والتعايش والتفاعل الثقافى... فهل يستمر نقوك ليصبحوا نموذجاً لما يجب أن ينجز؟؟ هذا هو السؤال.

الهـــوامش

(١) K.D. D. Henderson, The Migration of the Missiria into South-west Kordofan, S. N. R. XXII. Part 1, (1939), pp. 49-77.

(٢) Muddathir Abdelrahim "Arabism, Africamism and Self-Identification in the Sudan" in Yusuf Fadl Hasan (ed). (Sudan in Africa) Kh. University Press, 1971. p. 320.

(٣) Henderson, The Sudan, (London, Ernest Benn, 1965), pp. 26-27.

(٤) Kuper and Kuper, Africa Law: Adaptation and Development. (Berkeley, Univ. of California Press, 1965), p.11.

(٥) سمح اروب لهذه المجـموعة المعادية للمهـدية بالاستقرار في مسـتنقعات باراليل، لأى فترة تقتضـيها ظروف مقاومتهم للمهدية. وحتى هذا اليـوم، لايزال عشيرة أولاد كامل، الذين قـاد أجدادهم عـشيـرة الكلابنة، يربطون انفســهم ويُعرفـون كاقـرباء لاسرة بـاجوك Pajok الحاكمة.

(٦) المقصــود السيـد الفاضل مـحمود عـبدالكريم تزوج عـائشة عـبدالرحـمن المهدي وأنجب آمنة زوجة بابو نمر أخت ســارة زوجة الصادق المهدي (الهامش تصـحيح المركز عن عون الشريف: موسوعة القبائل والانساب ص ١٧٤٥).

(٧) اهدى السيد عبدالرحـمن سيفاً للزعيم دينق ماجوك، فاعُتبـر السيف كرمز مقدس ولفـترة طويلة كـانت دائرة المهدى فى الخـرطوم توفر لزعـيم الانقوك السكن والراحـة فى زياراته للعاصمة.

(٨) Henderson, op.cit., p.164.

(٩) زعـيم الانقوك ومـرؤوسيـه نُظمت لهم رحلة لـبحـر الغزال لتنويـرهم بحقـيقـة الاوضـاع هناك قبل اتخاذ قرارهم.

(١٠) Francis M. Deng, The Dinka and their Songs, (Oxford, the Clarendon Press, 1973), p. 144.

(١١) Ibid, pp. 180-182.

(١٢) عندما قرر المجلس، مثلاً، بناء سوق ومنطقة حى ليو، حيث سمح الانقوك لزعيم الحمـر بإنشاء مركـز يقود منه نشاطه فى فـصل الجفاف، إعتـبر زعيم الانقـوك ذلك غزواً واضحاً لأراضــيه. وبالاضـافة الى ذلك فـقد كان المشروع يهدد مـدينة أبيى، المركز الادارى والتـجارى للأنقـوك. لذلك طلب الزعـيم من حاكم كـردفان عـدم تأييـد قرار المجلس، بعـد التحريات الضرورية، قام الحاكم بالغاء القرار.

(١٣) أحد الامثلة حدث فى عام ١٩٥٨، أثناء إنتخابات البرلمان الثانى، حيث قامت حكومة حزب الأمة باعادة تقسيم الدوائر الانتخابية بطريقة وزعت الأنقوك على دائرتين، أغلبهما من الحُمر، في البداية قرر زعماء الانقوك مقاطعة الانتخابات، ولكن الزعيم الأكبر أقنعهم بالمشاركة، استجابة لضغوط الحكومة المركزية، وكما كان متوقعاً، خسر المعركة مرشحا الدينكا الاثنان، ابن الزعيم وابن أخيه. والاسواء أن علي نمر، أحد زعماء الحمر، قد فاز ممثلاً للدائرة، وان أخيه انتخب فى مجلس الشيوخ، وأن ابنه، طالب ثانوى، عين زعيماً فى مكان والده.

(١٤) حدث واحد له مغزى فى هذا المجال، فى عام ١٩٦٤، نقل علي بلدو لمديرية كردفان، وهو الذى لعب دوراً كبير فى تاريخ العلاقة بين الشمال والجنوب. وفي كردفان وجد أن هناك متأخرات من ضريبة الدقنية على الانقوك، وذلك نتيجة لطلب خاص من زعيمهم بتجميد تحصيلها لمدة عامين بسبب عدم نجاح الموسم الزراعى والنقص فى الحبوب، لذلك تراكمت المتأخرات واصبحت فوق طاقة الانقوك. ولذلك طلب الزعيم بالغاءها كلية. ومع أن القرار قد أُجل لسنوات عديدة إلا أن كبار موظفى المجلس أكدوا للزعيم أن المتأخرات ستلغى. وأخيراً قرر المجلس عدم الالغاء، فطلب الزعيم من الحاكم الجديد، على بلدو، تغيير القرار. وبدلاً من ذلك طلب الحاكم دفع المتأخرات فوراً، وهدد بتجميد مرتبات كل زعماء الانقوك إذا لم يحدث ذلك. وفى حالة غضب أبلغ على بلدو الزعيم دينق ماجوك بأنه إذا أراد أن يلتحق باخوانه فى الجنوب عليه أن يقول ذلك صراحة، واضاف أنه لا يهتم إذا إرتبط الانقوك بالجنوب أم لا. وهذه لسوء الحظ ذلة لسان من جانب الحاكم تؤكد العوامل العرقية فى مشكلة الجنوب والشمال. وهو موقف لا يتماشى مع سياسة الحكومة، التى شارك الحاكم بنفسه، فى فرضها فى الجنوب. وذهب دينق ماجوك الى الخرطوم لعرض قضيته على الحكومة المركزية. وقررت الحكومة المركزية إلغاء المتأخرات وتوبيخ الحاكم، وفى نفس العام منح الزعيم كسوة الشرف من الدرجة الأولى. وليس واضحاً هل جاء ذلك بسبب دعم الحكومة للزعيم أم بسبب ذلة لسان الحاكم.

(١٥) وسط احداث العنف العرقى، اشار الفريق عبود الى الزعيم دينق ماجوك فى عام ١٩٦٤، بعبارات (أخى العزيز والمواطن السودانى المخلص) فى حديث خاص مع المؤلف.

(١٦) عندما أصبح بابو نمر مكروهاً وسط زعماء العرب والنوبة، أثناء توليه زعامة المنطقة، انتخبوا دينق ماجوك رئيساً للمجلس الريفى وهو أمر استغرب له أهل الشمال. وبحكم موقعه هذا، أصبح ماجوك عضواً فى مجلس المديرية، وتلقى نمر تلغرافاً بحضور اجتماع مجلس المديرية، بينما لم توجه الدعوة لدينق ماجوك. وعندما اشتكى ماجوك لاحقاً للوكيل الدائم، وعد الاخير باصلاح الخطأ عن طريق تعيين نمر، كعضو معين، وماجوك، كعضو منتخب.

(١٧) فى فبراير ١٩٦٥ أرسل الانقوك رسالة الى لجنة الانتخابات فى الخرطوم تقول أنهم سيقاطعون الانتخابات القادمة، اذا لم تُجرى الانتخابات فى الجنوب، وطلبوا، مرة أخرى، فكّ ارتباطهم بمديرية كردفان والحاقهم بادارة بحر الغزال فى الجنوب. "مُسك فى تلك الرسالة ووزعت بشكل واسع".

(١٨) فى رسالة خاصة برز التقرير التالى:-

ذهبت الى أبيى فى أواخر يونيو ١٩٦٥ وشاهدت الحالة هناك. كل الانقوك أحرقوا بواسطة البقارة وجنودهم، المنازل الوحيدة، التى تراها عند السفر بالمجلد هى أبيى نفسها. ليس هناك مايدل علي الحياة فى قوكهام، حتي الطيور تركتها -الذباب فقط هو الموجود فى المنطقة. الحبوب أحرقت كلها والحكومة أرسلت أربعة آلاف جوال- ولكنها بيعت كلها. معظم الناس ذهبوا الى تويل، معظمهم من أسرة الزعيم وآخرين من أبيور، هؤلاء هم الاشارة الوحيدة على وجود الانقوك.

(١٩) فى هذا الاطار Cieng تعني، بشكل عام، المعاملة، لكن المفهوم معقد ويتضمن عدة معانى- للمزيد من المناقشة الاوسع، انظر Infra, p. 86 وكذلك منشورات المؤلف Tradition and Modernization, pp. 24-30, The Dinka of the Sudan, pp. 13-14. The Dinka and their Songs, pp. 14-15.

(٢٠) Francis M. Deng, The Dinka of the Sudan, op. cit., 150-151

الفصـــل الخـــامس

اعادة بنـــاء الهــوية

خطوة نحو سلام دائم

(أ) أزمات الهوية الوطنية فى السودان:

إن مشهد عـلاقات الجنوب والشمال ليس مجرد مظهـر فقط لصراع ثابت ومســتمر- وذلك لأن إعادة تركـيب الهوية والبحث عن بدائل قـد ظلت تجرى، بصــبر وأناة، حــتى فى ظروف تفاقم الحــرب الأهلية. وبدأت الآن تعطى ثـمار نجاحها الملوس.. صـحيح أن العملية معقدة ودقيقة لا يمكن تحديدها بالملاحظات الخارجيــة، وان التماسك والمنطق الداخلى، الذى افـترضه فى هذه العملـية، قد يبدو تأمليــاً ومحفـوفاً بمخاطر الحــسابات الخاطئة. ولـكن كل ذلك يقوم على ملاحظات لصيقة بفعاليات علاقــات الشمال والجنوب خلال فترة تشمل مراحل تاريخيــة متــعددة ومتــداخلة، المرحلة الأولى تبدأ مع الاســتقــلال، الذي أكسب السودانيين الشماليين حـماسة وطاقة تبشيرية كانت تستــهدف أسلمة وتعريب الجنوب. وفى المرحلة الثانية، وفى وقت واحد تقريبــاً، بدأ الشماليون يناقشون، تكتيكياً، بأنه ليس هناك فروقات عرقية أساسية بين الجنوبيين والشماليين، وأن الفروقات الموجـودة هى فروقات واختلافــات ثقافية فقط. وفــي المرحلة الثالثة، بدأ الشمالــيون ينظرون الى أنفسهم ويلاحظون خـصائص انتمائهم العــرقية. وكما بدأ الشماليون فى ملاحظة اختلافــاتهم فيما بينهم، فقد أصبح الجنوبيون أكثر وعيــاً باختلافات الشماليين الداخلية، واصــبح من الممكن بناء تحالفات بين الجنوبيين والشماليين حول أهداف محددة مشتركة. لقد ظلت مشاعر وتطلعات الشماليين، منذ بداية نهوض حركتهم الوطنية ضد الاستعمار البريطانى، تتطلع نحو وحدة السودان. وبما أنهم عاشوا تجربة تعريب مرنة، فقد رأوا أن تعريب الجنوب يمكن أن يتم بسهولة، واعتبروا إصرار البريطانيين على تطويره بشكل مســتقل عن الشــمال جـريمة لاتغتفـر. ومع شروق شــمس الاستــقلال، ورثت الحكومات الشماليــة جنوباً، ليس فقط مختلفاً عن الشمــال فى النظم التقليدية، ولكنه، إيضــاً، تطور فى خطوط مسيـحيــة غربية، نتــيجــة لسياســات التفــرقة

البريطانية. وبما أن نتائج السياسات البريطانية قد أصبحت عقبات حقيقية فى طريق الوحدة الوطنية والتكامل الوطنى، فان تغيير هذه السياسات فى الاتجاه المعاكس سيكون فى مصلحة الاسلام والعروبة. ولذلك جاء التركيز على إلغاء السياسات والاستراتيجيات الانفصالية، التى وضعها البريطانيون، وعلى الوسائل الضرورية لصياغة سياسات معاكسة للسياسات القديمة ومتوافقة مع الأهداف الجديدة. وظل الشماليون يركزون علي الجانب الانفصالى فى السياسات البريطانية السابقة، والتركيز المبالغ فيه على تجارة الرقيق ومساعدات القوى الاجنبية الخارجية، وذلك حتى عندما كان الجنوب يخوض نضالاً شرساً فى حرب وطنية[1].

لقد كانوا يعتقدون أن التعريب والأسلمة سينتصران في المدى البعيد لتحقيق التكامل الوطنى فى البلاد- فكما يقول هندرسون:-

«إن الحل يجب أن يتجه الى نزع ورقة من كتاب الحكومة السابقة، ووضع سياسة جنوبية معكوسة، كما كانت... تأثير الانتلجسيا الموجودة الآن سيضعف عن طريق قطع صلتها بنظام تغذيتها، مدارس الارساليات التبشرية التى تقوم باعادة انتاجها. والبديل نظام تعليم اسلامى مُوحد مع النظام القائم فى الشمال، وخلال عقد واحد من الزمان سيتربى جيل جديد من الطلاب المستعربين والمتعاطفين مع الشمال، ليحل مكان الجيل الحالى غير الموثوق فيه، قادة الخمسينات»(٢).

إن الافتراض المتضمن فى سياسات الأسلمة والتعريب يتمثل فى خاصية مفهوم العروبة. ففى البداية لم ير الشماليون أى صعوبة فى ذلك، ولا حاجة للقول بأن الاسلام والثقافة العربية ظلا، باستمرار فى حالة ترابط قوى، وهما، في الواقع، لا ينفصلان فى عقول السودانيين ومؤسساتهم الاجتماعية، تماماً كما هو حال العرب الحديثين عموماً مسلمين أو مسيحين، فى أفريقيا أو فى آسيا"[3] ووفق مايرى أحد الشماليين، "فان التوجه التقسيمى لاعداء الوحدة هو الذى نظر الى هذه المسألة كمشكلة.... ان الفكرة المبتذلة التى تقول ان السودانيين الشماليين مسلمون وعرب، وان الجنوبيين أفارقة ووثنيون أو مسيحيون، مع انها قد تكون مفيدة فى إعطاء فكرة سريعة وعامة عن السودان، لكنها مضللة بافتراضها وجود حدودعرقية وثقافية واضحة بين الجنوب والشمال، ولأنها تعرف الافريقية والعروبة بتعبيرات مطلقة، وبالتالى فأنها تنطوى، بجانب أشياء أخرى، على إفتراض خاطىء يقول أن السودانيين ليسوا أفارقة حقيقيين،[4] وقد يشير الشماليون الى أجزاء مختلفة فى الشمال

ليؤكدوا مدى التنوع فى أوساطهم، ومدى إرتباط مجموعات عديدة منهم بجذور زنجية، ومدى التخلف، وفى بعض الأحيان أكثر من تخلف الجنوب، الذى تعيشه بعض مناطق الشمال. ومن هنا، فان الجنوب لايتميز بخصائص متفردة تبرر مطالبته بالانفصال أو حتى الفيدرالية. وتبرير مثل هذا الاتجاه سيؤدى، منطقياً، إلي تمزيق السودان لأن المناطق الشمالية المختلفة ستطالب، أيضاً، بالانفصال، وذلك لايكون. وبغض النظر عن الدوافع، سواء كانت لخلط الأوراق واضعاف مبررات الجنوب للتمايز أم لا، فان مثل هذه المناقشة تعكس السيولة التى تمت بها عملية تشكيل الانتماءات العرقية فى السودان، وحقيقة انها لم تكن، بدرجة كبيرة، مسألة بيولوجية، بقدر ما انها موقف مرتبط بادعاءات سلالية وتمثُّل ثقافى... وفى كل الأحوال، فانها لم تمنع الجنوبيين من استخدام العرقية، كموضوع فى الصراع، اذا كان فقط كموضوع موقف.

وهكذا، سرعان ماوجد الشماليون انفسهم في أزمة. فقد بدأوا التحقق من أن عوامل التعريب والأسلمة لم تكن تعمل، وان العوامل الأخرى، على أى حال، كانت تتحرك. فيقظة أفريقيا، وصعود العزة الوطنية فى الشخصية الافريقية "والزنوجة" خلال الستينات، ساهمت، أيضاً، فى ذلك، وربما، وليس أخيراً، تصميم الجنوبيين على القتال من أجل مايعتقدون أنه كرامتهم وعزتهم. وبدأ الشعراء يكتبون عن الوطنية الافريقية، وبدأ الشماليون يدعون انفسهم "أفارقة" و"سود"(٥). وكان سفر الشباب الشمالى الى الخارج من العوامل الهامة التى ساعدت على ذلك، فقد جربوا، لأول مرة، الاحتكاك مع الوطنيين الافارقة، الذين لايختلفون كثيراً عن السودانيين الشماليين، وفى القارة الافريقية وفى انجلترا والولايات المتحدة، بدأ السودانيون يحتكون بالامريكان السود والهنود الغربيين، وبدأوا يشعرون، كمجموعة مختلطة عرقياً، بأوجه الشبه بينهم وبين السودانيين الشماليين. وفى البلدان العربية حدث العكس، حيث بدأ الشماليون يلاحظون الاختلاف بينهم وبين بقية العرب. وفى الحالتين، فى البلدان العربية والبلدان الأخرى، أصبحوا يعرفون كزنوج وكسود، وفى البلدان العربية كعبيد، إلا اذا أبعدتهم هويتهم الأجنبية عن دوائر معينة. وبدأ الشماليون كذلك، يكتشفون، رغم اللغة والروابط الثقافية الأخرى المشتركة مع العرب، ان هناك اختلافات جوهرية في الشخصية والنظرة العامة. وفى العادة كان الشماليون، فى المدارس والمؤسسات الأخرى، فى الخارج، يجدون أنفسهم فى انسجام مع زملائهم الجنوبيين السودانيين أكثر من العرب، لاسباب أكثر من مجرد الانتماء لبلد واحد. ونتيجة اكتشاف الاختلاف بين العرب

والسودانيين كانت، فى الغالب، تتمثل فى رد فعل متطرف. فبعد انتهاء الصدمة يبدأ الشماليون فى رؤية هذه الحقائق كدليل على خصائصهم الثقافية والعرقية الحقيقية، وبالتالى التعرف على تعقيدات الشمال والسودان ككل. ويبدأ الشعور بالاختلافات الحقيقية فى الشمال، حتى التخلف لا يبقى مرتبطاً بالجنوب فقط، بل يتخذ، فى بعض الأحيان، أشكالاً أكثر بؤساً فى بعض مناطق الشمال. وبالفعل، بدأت مناطق معينة، تطالب بذاتيتها، أولاً كسخرية من مطالبة الجنوب، ثم بشكل جدّى وعملى. ونتيجة لهذه التطورات بدأت تحالفات عديدة بين الجنوبيين وبعض المجموعات الشمالية. وكشفت الحكومة محاولة تمرد ضد الوحدة الوطنية فى غرب البلاد واعتقلت بعض قياداتها، بينما هرب آخرون الى الخارج بهدف الانضمام للحركة الجنوبية المسلحة. ومع أن الحركة لم ترحب بهم، إلا أنهم ظلوا فى الخارج متمسكين بالدفاع عن زنجية السودان. ومن النتائج المنطقية لهذه التطورات أنها منحت الحكومة والقوى المسيطرة تبريرات إضافية لفرض نظام الدولة الموحدة على الجنوب، وأنها جعلت الجنوبى أكثر إحتراماً فى الأوساط الشمالية وأضعفت النظرة اليه "كعبد" و"زنجى". ومع تزايد هذا الاحترام، فى الاوساط الشمالية، تولد اعتراف، مصاحب لذلك، بقضيته ومطالبته بهوية منفصلة، يجب أن تكون في اطار السودان الموحد بتوفير الشروط اللازمة لذلك. ومنح الجنوب الحكم الذاتى الاقليمى فى الفترة الأخيرة يمثل قمة هذا التوجه المتغير. ولكن السؤال الأكثر أهمية لمستقبل السودان، هو إلى أى مدى ساعدت هذه التطورات على ادراك حقائق واقع بلادهم وتفرد هويتها، اذا أريد لها أن تبقى موحدة؟

لكن السودانيين الشماليين لايزالون فى وضع متأرجح ومتناقض، وبعضهم لايزال يركز علي التعريب، على حساب العناصر غير العربية فى شخصيته، فقد سمعت أحد السودانيين يحذر من مخاطر خضوع الشمال وتنازلاته الكبيرة لمطالب الجنوبيين ضد المصالح العربية فى الشمال. وحذرنى آخر من الاستخفاف بعمق جذور التعريب فى الشمال والتقليل من شأنها، ومن أن كل مايقال فى ذلك هو للتضليل فقط. وعلى كل حال، ليس من الممكن التأكد من الاتجاه الذى ستتجه اليه الرياح، ولكن من الواضح أن هناك تراجع متزايد من نهج التركيز على الاعتزاز بالطابع العربى، الاحادى الجانب، للهوية السودانية، وتزايد موازٍ فى التركيز على الطابع الافريقى، بالرغم من ارتفاع الاصوات المنادية بالوحدة والقومية العربية فى بعض المناسبات والظروف. وذلك لايستهدف مجرد تأمين وضع الجنوب وتسوية مشكلته، بل يمثل تعبيراً

عن اعتزاز السودانيين بهويتهم السودانية، التى تقبع فى أعماق عروبتهم وتشمل الأساس الذى قامت عليه.

لقد قام الشاعر السوداني صلاَح أحمد ابراهيم بوضع كل هذه التطورات في إطار تاريخي، وقدمها فى قصيدة موجهة لجنوبى، اسماه ملوال، نقتطف منها المقاطع التالية:-

وقبل آن تنكرنى اسمع قصة الجنوب والشمال
حكاية العداء والاخاء من قدَم

......

العربى حامل السوط المِشَلُّ للجمال
شكّال كل قارح، ملاعبَ السيوف والحراب
حلَّ على بادية السودان كالخريف بالسنة والكتاب
خرّب "سوبا" وأقام فى أنقاضها "سنار"، والاخرى التى سوارها "تيراب"
يحمل فى رحاله طموحه ولوحه وتمرتين فى جراب
وشجر الأنساب
لاقيتّه فى تَقلَى، فى الترعة الخضراء، فى كاكا وتيجان الأقار والعلياب

......

تفتحت حقيقة سمراء فى أحشاء كل أمٍّ ولدٍ منهن، من بنات جدك الأكبر،
مما بذرته نطف الأعراب
فكان منها الفور والفونج، وكل سحنة فاحمة، وشفة غليظة، وشعر مفلفل ذُرّ على إهاب
حقيقة كبيرة عارية كالفيل، كالتمساح، كالمنيف فوق كسلا، سليطة الجواب:-
كذاب الذى يقول فى السودان أنني الصريح، أننى النقى العرق، أننى المحض... أجل كذاب

......

ملوال صوت "رابح" يقول بلسانى، رابح زينة جانقيك، وفهد جورك الاباة، شبل نمنمك
"عبدالفضيل"، تمساح جزائر النيل، وقلب وطنى الجامد- ياملوال- ابن عمك
و"ثابت" الثابت حينما تحسس الردى ضلوعه فى طرف الخرطوم،

ربما كانت له قرابة بأمك
وإبن كبرياء هذا الشعب، عينه، لسانه، ضميره ويده،
" على " العظيم
فلذة من قومك
تحطم البيان غير أن نغمات منه لاتزال تفعم الاثير، لاتزال تفعم الاثير
أسمعها باذن " وولت ويتمن" تقول: عيشوا إخوة، برغم كل شىء إخوة،
وعمروا بالحب هذا البيت، هذا الوطن الكبير.
أصـداؤها تضج فى دمى: ياروضـة ازهارها شـتى، أشم فـيك عـبق المسـتقبل الجمـيل، حينمـا الجميع يلتـقون فى التقـاء الابيض الحليم بأخيـه الازرق المثير، انظر يوم يقـبلون عرباً، وبجـةً، ونوبةً، وفجلو، وباريا، وبرتةً، وبنقو، وزغـاوة، وامبررو، وانقسنا، ودينكا، وتـبوساً، وأشـولى، ونوير، ومسـاليت، وانواك، ولاتوكـا، وغيـرهم وغيـرهم، للبوش كل منهم يهدى، ولكن باعتزاز، شيئه الصغير
ويوم أن يسـود فى السـودان صوت العـقل، صـوت العدل، صـوت العلم، واحترام الآخرين
......
فكر معى ملوال أى مجد سوف ننشيه معاً، على ضفاف النيل،
أى مجد، لو صفت نياتنا الاثنين
يتيه فى مروجنا الخضراء مثل "أبيس" الاله يملأ العين، يسر القلب، يهمز السماء بالقرنين
فكر معى ملوال قبل أن تنتابنا قطيعة رعناء،
باسم عزة جوفاء او باسم سداد دين
يوغـرها الاعـداء بالذى مـر به الآباء فنقل بـراء- نحن منهـا، ننفض اليدين
تفتحى ياامنيات الشعب عن مستقبل نحن معانيه معاً،
وعن هناءة الشمال والجنوب
عن نضارة الاخاء فى هذين
يوم لاتقوم بيننا السدود والحدود، يوم لايعـذب الجدود فى قبورهم حاضـرنا، لا الدين، لا الأصل ولاسعـاية الغريب، لا جناية الـغبى، لا وشاية الواشى تدب
كالصِلال فى القلبين
فكر معي ملوال!

ولقد اقتطعنا هذا الجزء الطويل من القصيدة لانها تمسك بجوهر تاريخ العلاقة بين الشمال والجنوب، وتكشف تعقيدات الهوية فى السودان، وتحدد التحديات التى تواجه السودانيين الان فى عملية البناء الوطنى.

(ب) ديناميات صراع الأجيال وبدايات إعادة الاصطفاف عبر الخط الفاصل بين الشمال والجنوب:-

لقد ارتبطت عملية البحث عن أسس جديدة للهوية الوطنية، كما أشرنا من قبل، بتقدير أكثر واقعية للتعقيد الثقافى الوطنى والاعتراف بالهوية الجنوبية. وذلك كنتاج لمواجهة سياسية بين كبار السن، قادة الشمال الأكثر محافظة، الذين يعتقدون فى العروبة والاسلام كأسس للهوية الوطنية، من جهة، والشباب، القوى الأكثر حداثة، ذوى الاتجاه الأكثر علمانية وتقدمية، من جهة أخري، وبانتصار القوى الثانية على الأولى، سقط حاجز العمر بالنسبة للقيادات السياسية وتقدمت قوى التغيير وبدأ تجسير الفجوة بين الشمال والجنوب. ولأجل إدراك طبيعة تنافس الأجيال المختلفة حول السلطة، من الضرورى اعطاء صورة عامة عن القيم الاساسية التى يقوم عليها النظام السياسى والاجتماعي السودانى- لقد تركت الطبيعة التقليدية للسودان، والطريقة التى تطورت بها ، البلاد فى وضع يقوم على الاعتزاز بالنسب والسلالة. وذلك ليس فقط لتكييف اوضاع المشاركين فى كل المستويات على هذا الأساس، وانما، ايضاً، لنشر وتوسيع نفوذ المبادىء، التى تحكم العلاقات الأسرية وفوق الأسرية، الى دوائر أوسع. وهذه المبادىء تعمل على تقسيم الناس وترتيبهم على أساس خطوط النسب والعمر، مع قدرة ذاتية على الاستمرارية الثقافية. وقيم الاعتزاز بالنسب والسلالة هي قيم جماعية وفردية فى نفس الوقت، تجعل كل فرد يتجه الى إستدامة هويته ونفوذه، وبالتالى تقسيم المجتمع الى سلاسل نسب صاعدة أو هابطة، ومجموعات مرتبطة بمصالح محددة، تعيش فى حالة إنسجام ثابتة. ولضمان حالة الهدوء والاستقرار، لايركز المجتمع التقليدى على قيم الوحدة والانسجام، فقط، لكنه، يوفر، أيضاً، طرقاً وأساليب لتعويض المتضررين من عمل النظام بشكل عام. ومن بين هذه الأساليب، استغلال طاقات الشباب من خلال نظام مليشيات عسكرية. ومشاركة الشباب فى العملية السياسية، وبهذه الطريقة، تصل مداها الأقصى، في العادة، فى مواجهة من يعتبرون أجانباً، انطلاقاً من أن كل قبيلة لها سمعتها العسكرية المحسوبة لها. وفى الاطار الحديث تطبق مبادىء

التقسيم والترتيب الاجتماعي هذه في وضع يتطلع فيه الشباب الى الامام، وتبرز فيه الى الوجود أجيال ممزقة ثقافياً. والواقع أن حقيقة تشكيل السلطة الحديثة على خطوط تقليدية، تركز على الروابط الاسرية والعمر، وتعرقل عملية التحديث، قد تركت هذه الأجيال في حالة حرمان شديدة الوطأة لا وجود لآليات تساعد على تخفيفها مثل الآليات الموجودة في المجتمعات التقليدية، التي أشرنا اليها قبل قليل. وقد يكون الدور الذي يقوم به العمل السياسي الحديث شبيهاً بالدور الذي يقوم به العمل العسكري وسط الشباب في المجتمعات التقليدية، لذلك يلاحظ انغماس الشباب السوداني، بنشاط وحيوية، في العمل السياسي ابتداء من مرحلة التعليم الثانوي. هذا النشاط هو الذي بذر البذور الأولى للحركة الوطنية ضد الاستعمار البريطاني في ثورة ١٩٢٤، تحت شعار وحدة وادي النيل، كرمز للهوية وبهدف كسب التأييد والدعم المصري. ونمو هذه القوى "الحديثة"، بشكل متسارع، لم يكن محسوباً في خطة السياسة الاستعمارية، التي ارادت تطوير مجتمع حديث، بخطوات بطيئة، في اطار البنيان التقليدي للمجتمع. ولذلك....

> *حذّر حاكم مديرية بربر زملاءه الآخرين، قبل أربع سنوات من تفجر تمرد عام ١٩٢٤، في مؤتمرهم السنوي عام ١٩٢٠، من النتائج التي سيواجهها الحكم البريطاني في السودان من تكرار الأخطاء التي حدثت في الهند ومصر، وذلك من خلال خلق طبقة متعلمة من السودانيين ساخطة ورافضة للأوضاع القائمة بالضرورة. وفي تقريره الختامي للتطورات السياسية، التي أدت الى ثورة ١٩٢٤، أشار مدير المخابرات الى ملاحظات مشابهة، حيث كتب يقول "يجب أن نعترف ان هناك الآن في السودان طبقة صغيرة، لكنها معبرة بصوت واضح ولها تأثير كبير لايتناسب مع حجمها الحقيقي، وتحمل أفكاراً وتطلعات أخذت تشق طريقها بقوة، الى حد انها الآن في مرحلة قد تكتمل خلال جيل من النمو فوق العادي... نمو قسري من جذور سطحية... لاينتج نباتاً جيداً... لكن الادارة البريطانية هي التي بذرت البذرة بتعمد، وهي التي تتحمل مسؤلية خاصة في ذلك(٦).*

لقد قامت الادارة البريطانية، بذكاء واضح، بتسليم قيادة الحركة الوطنية للقوى التقليدية، واصبح (موقفها تجاه المتعلمين موقفاً عدائياً)(٧) ولكنها تراجعت لتعترف بدور المتعلمين وتخصيص دوائر "للخريجين" في الهيئات التشريعية المنتخبة. وقد إستمر هذا التقليد لفترة طويلة بعد الاستقلال حتى أدى الصراع مع القوى التقليدية الى إلغائه بشكل نهائي. والواقع أن الشباب

الشماليين، كانوا على وعى كبير بتناقض المصالح بينهم وبين القوى التقليدية. وكانوا، باستمرار، في موقف المعارض لكل الحكومات تقريباً، لمصلحة الأفكار والوسائل الثورية[٨]. فالحزب الشيوعى والأخوان المسلمون في الشمال ظلوا يعارضون القوى التقليدية، وظلوا ينتزعون إعجاب وولاء غالبية الشباب ، ورغم أنهم كانوا يتراجعون عن هذا الموقف عند الارتباط بالمؤسسة الحاكمة. أما موقف الشباب المتعلمين الجنوبيين، فقد كان معقداً بسبب الصراع العرقى الثقافى بين الشمال والجنوب. لذلك كانت معارضتهم مختلفة ومستقلة عن أحزاب الشباب الشماليين. فمع أن الحزب الشيوعى كان يطرح شعار الحكم الذاتى، إلا أن الجنوبيين فضلوا التحالف حول قضايا محددة وابتعدوا عن الايديولوجيات. وكان طبيعياً أن يفشل الأخوان المسلمون في خلق أى تحالف مع الجنوب، خاصة نخبه المسيحية. وعندما ظهر الشباب الجنوبيون كقيادة معترف بها للجنوب على المستوى الوطنى ، بدأ الشباب الشماليون يختبرون امكانياتهم للقيادة الحقيقية. وبما أن مشكلة الجنوب كانت تمثل المشكلة الأكثر خطورة من بين مشاكل البلاد، فقد أصبحت المنبر المشترك لكل قوى المعارضة السياسية. وفى الوقت الذي كان فيه الجناح العسكرى فى الخارج يركز جهوده في تصعيد العمليات العسكرية ضد الحكومة، كان الجنوبيون المتعلمون يركزون على العمل السياسى فى اطار النظام السياسى فى البلاد. وخلال فترة حكم الفريق ابراهيم عبود بدأ السودانيون يحسون بأهمية مشكلة الجنوب وعظمة تأثيرها على أوضاع البلاد– وهكذا، بدأ الاعضاء الشباب فى المجلس المركزى، من الجنوبيين والشماليين على السواء، فى مارس ١٩٦٤ مناقشات جادة حول المشكلة، تعرضت بالنقد العنيف لكل جوانب السياسات الحكومية فى الجنوب[٩]. وفى سبتمبر من نفس العام، كونت الحكومة العسكرية لجنة لدراسة "أسباب مشكلة الجنوب" وتقديم توصيات لحل المشكلة، فى اطار وحدة البلاد ونظامها السياسى، ودعت الحكومة كافة المواطنين لتقديم آرائهم للجنة المذكورة، ووعدت بتوفير الحرية الكاملة للجميع للتعبير عن وجهات نظرهم، وانتهز طلاب جامعة الخرطوم واستاتنتها الفرصة وأقاموا ندوات مفتوحة ربطت بين مشكلة الجنوب ومشكلة الحريات والديمقراطية فى البلاد وأكدت أن مشكلة الجنوب لايمكن حلها الا بزوال النظام العسكرى الديكتاتورى وإقامة نظام ديمقراطى مكانه... ومن جامعة الخرطوم انطلقت الشرارة، وبدأ الشماليون يعلنون معارضتهم للسياسات الحكومية، بشكل عام، وفى الجنوب بشكل خاص. ومع اتساع المعارضة لم تكن الحكومة العسكرية قادرة على

مواجـهتهـا. وخلال اسبوع واحـد فقط تمكنت الانتـفاضة الشعـبية من إجـبار الطغمة العسكرية على تقديم استقالتها في اكتوبر ١٩٦٤، وفتح الطريق للعودة للحياة السياسية المدنية فى ظل نظام ديمقراطى برلماني يحكمه دستور انتقالى، هو دستور ١٩٦٥ المعدّل.

كـانت الحكومة الانتـقاليـة، التى أعقـبت الحكم العـسكرى، تتكون بشكل رئيسى، من المثـقفين الشماليين والجنـوبيين، ويقودها سرالختم الخليـفة، وهو معلم له خبـرة واسعة بجنوب السودان. وتم اختـيار شخصيـات جنوبية لتولي وزارة الداخليـة، بأهمـيتـها المعـروفـة، ووزارتين أخـريتين. ولأول مـرة منذ الاستقلال وجد المثـقفون السودانيون، الشماليون والجنوبيـون، انفسـهم يقفون موقفاً سيـاسياً موحداً، أساسه الثقـة والاحترام المتبادل(١٠). وبدأت إشـارات المصالحـة تظهر الى العـيان، رغم الاصطدامـات التى حدثت فى الخـرطوم بين الشماليين والجنوبيـين، وبين دينكا نقوك والمسيرية الحمـر فى كردفان، والتى راح ضحيتها عدة مئات من المواطنين. فـقد اعترفت الحكومة الانتقالية بمشكلة الجنوب وتعهـدت بالعمل على حلهـا عن طريق الوسائل السلمـية، وذلك بعكس التوجهات السابقة عندما كـان الاعتقاد بأنه ليست هناك مشكلة فى الجنوب، أو عندما اعتبرت المشكلة نتاجاً للسيـاسات الامبريالية يمكن حلها بكل سهولة عن طريق تغيير تلك السياسات. ورغم ان رئيس الوزراء لم يسحب القوات المسلحة من الجنوب ولم يرفع حـالة الطوارىء، إلا أنه أعلن خطوة هامة فـى اتجاه حل المشكلة بالدعـوة لعقـد مؤتمر، تشـارك فيه كل القـوى السيـاسيـة، الشمـالية والجنوبية، ومشاركة الحكومة بصفة غير رسمية، فى مارس ١٩٦٥، وذلك....

.. لمناقشة مشكلة الجنوب بهدف الوصول الى حل يلبى المصالح الاقليمية لجنوب السودان والمصالح الوطنية للسودان فى نفس الوقت.. وعند مخاطبته للمؤتمر، حمل رئيس الوزراء مسئولية المشكلة للسياسات البريطانية السابقة والحكومات الوطنية المتعاقبة. منذ الاستقلال، وخاصة حكومة عبود العسكرية، وأضاف:—

..أن حلاً مناسباً يجب أن يقوم على أسس ثابتة من النوايا الحسنة، والايمان الصادق بالطرق الديمقراطية، والمعرفة الصريحة بالاخطاء السابقة، والاعتراف الكامل بالاختلافات العرقية والثقافية الموجودة بين الشمال والجنوب، نتيجة للعوامل التاريخية والجغرافية التى أشرنا اليها(١١)

وجاء في كلمة البروفسير النذير دفع الله، مدير جامعة الخرطوم، ورئيس المؤتمر...

..أنني لا أتجاوز الحقيقة عندما أقول أن التجربة التى عشناها منذ الاستقلال، وخاصة خلال الست سنوات الأخيرة، قد خلقت موقفاً جديداً، وان هذا الموقف هو الذى يجمعنا معاً اليوم. وأنني على ثقة، أيضاً، أن المندوبين الذين يجلسون فى هذه المائدة المستديرة يعلمون أن الجلوس بهذه الطريقة يعنى أنه ليس هناك أفضلية فى الترتيب، علاوة على ذلك، وهو أمر له مغزاه، أننا نجلس كفريقين، لكننا فى مساواة ولهدف واحد.. هو..مصلحة السودان... (١٢)

لقد لخص الناطق باسم الجنوبيين وجهة نظرهم فى أربع نقاط:-

الأولى: أنهم يرون أن العلاقة القائمة الآن بين الشمال والجنوب فرضتها إرادة خارجية، وأن رغبات وتطلعات سكان الجنوب لم تؤخذ فى الاعتبار...

الثانية: أن هذه العلاقة قد تعرضت لتوترات حادة بسبب أفعال الحكومات الوطنية والافراد الشماليين والمجموعات المؤثرة، خلال السنوات العشر الأخيرة، لدرجة أنها تتطلب اعادة نظر من قبل السودانيين الجنوبيين أنفسهم...

الثالثة: أن الجنوب ظل متخلفاً فى مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ليس فقط بالمقارنة مع بقية أجزاء السودان، بل وبالمقارنة مع أى منطقة في افريقيا... وشعب الجنوب لايمكنهم أن ينتظروا أكثر ليقوم الآخرون بالتخطيط لتنميتهم وتطويرهم... وهى مسألة ضرورية ....لتكسبهم مكانة لائقة فى أفريقيا المعاصرة، حيث تمثل مشاركتهم الكاملة فى تشكيلها، بشكل عام، ومساهمتهم فى إعلاء القيم الانسانية، واجباً أساسياً وحاجة ملحة....

الرابعة:- ان مشكلة الجنوب لا يمكن حلها بعد اليوم عن طريق خليط من الأفكار، بل يمكن حلها، فقط، بوحدة القلوب... الشماليون يريدون وحدة (حسب شروطهم الخاصة)، ومن واجب المؤتمر (التأكد من مايريده الجنوبيون) (١٣).

وفى ضوء التأثير الذى حاولته العناصر الاكثر تقليدية، من خلال ممثلى احزابها، من السهل تحديد الفجوة التى ظهرت، بالرغم من النوايا الطيبة للحكومة، فموقف العناصر التقليدية وتمحورها حول الاستمرارية السلالية، كمظهر للشعور العرقى، عبر عنه، بشكل واضح، السيد اسماعيل الأزهرى فى الكلمات التالية:-

(...أشعر فى هذا المنعطف بأننى مضطر لأعلن اننا نعتز بأصلنا العربى، بعروبتنا، وبكوننا مسلمون... العرب جاءوا الى هذه القارة، كرواد، لنشر ثقافة أصلية، واعزاز مبادىء سامية، أشاعت العلم والحضارة فى كل بقاع أفريقيا، فى وقت كانت فيه أوربا غارقة فى دياجير الظلام والجهل والكهنوت والتخلف

المربع... أن أجدادنا هم الذين حملوا المشعل عالياً وقادوا قافلة التحرر والتقدم...وهم الذين وفروا لثقافات اليونايين والفرس والهنود بوتقة سامية، منحتها فرصة التفاعل مع كل ماهو سام ونبيل فى الثقافة العربية، وقدموها مرة أخرى لبقية العالم كدليل لكل الذين يرغبون فى توسيع آفاق العلم والمعرفة...) (١٤).

المهم، أن الأحزاب الشمالية اقترحت نظام "حكم اقليمى" (١٥)، ورفضه الجنوبيون، واعتبروه معادلاً موضوعياً لـ"وحدة غير مشروطة" (١٦). وقدموا إقتراحاتهم الخاصة، التى تقوم على فيدرالية واسعة السلطات أو كونفدرالية. ورغم كل هذه الاختلافات، توصل المؤتمر الى عدة قرارات لتحسين الأوضاع فى الجنوب (١٧) وتوصل، أيضاً، الى:..أن المؤتمر ناقش بعض أشكال الحكم المناسبة للسودان، لكنه لم يتوصل الى قرار جماعى، كما تنص أحكامه، لذلك عين المؤتمر لجنة من اثنى عشر عضواً للتداول حول موضوع البناء الدستورى والادارى، الذى يحمى مصالح الجنوب، ومصالح البلاد بشكل عام... (١٨).

وبعد شهرين من نهاية المؤتمر، تدهورت أوضاع البلاد وتراجعت علاقات الشمال والجنوب الى ماضيها الأسود- فقد أدت مثالية الانتلجنسيا، التى كانت تمسك بمقاليد الحكم، الى أعادة الديمقراطية البرلمانية واجراء إنتخابات عامة، كسبتها القوى التقليدية وجاءت حكومة جديدة، ترأسها محمد أحمد محجوب، الشخصية البارزة فى الحكومات التقليدية السابقة. واعلن المحجوب سياسة حكومته تجاه الجنوب فى ٢٥ يونيو ١٩٦٥، حددها فى الآتى:-

... ان حكومتى ستواجه مشكلة الجنوب، الموروثة من فترة الحكم الاستعمارى، بتبنى سياسة واضحة وصارمة، لتأكيد وحدة البلاد ورفاهية شعبها، دون تمييز بين المواطنين، ولن نسمح لأى تدخل اجنبى وسنعمل على تصفية المنظمات الارهابية والتكتلات غير المشروعة عن طريق منع حمل السلاح غير المشروع وجمعه... وقوات الأمن مخولة تخويلاً كاملاً للتعامل مع كل من يحاول تهديد أمن المواطنين وعرقلة تقدمهم... (١٩)

وفى وقت لاحق أكد، مرة أخرى، أن حكومته (ستقوم بالسيطرة الكاملة على السلاح قبل الوصول الى حل للمشكلة السياسية فى جنوب البلاد....) وكان رد فعل الجنوبيين قوياً وسريعاً، حيث نشرت صحيفة The Vigilant مقالاً افتتاحياً جاء فيه ...

...هناك عدد كبير من الجنوبيين لايعتقدون أنه قد حدث تغيير فى النوايا من جانب الشماليين، وان الحديث الكثير والمتكرر عن الحل السلمى ليس أكثر

من كلام. قاموا بتوضيح وجهة نظرهم هذه بشكل واضح. ونأسف جداً لنبلغ رئيس الوزراء أن فرص الحل الدائم لمشكلة الجنوب عن طريق القوة العسكرية لاتزال بعيدة جداً... تحدث رئيس الوزراء عن الحل السلمى بعد سحق المقاومة!! لكن الحل السلمي يعني، كما نفهمه، حلاً يجنبنا سفك المزيد من الدماء...[٢٠].

(ج) الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب وظهور مشاعر الوحدة الوطنية:-

لقد جاء انتصار قوى التغيير والأمل في المصالحة بين الشمال والجنوب فى مايو ١٩٦٩، عندما قام صغار الضباط، بقيادة العقيد جعفر نميرى، بالاستيلاء على السلطة واعلان برنامج اشتراكى لكل السودان وحكم ذاتى اقليمى للجنوب. وبدأ صغار الضباط تحالفاً مع القوى الثورية، وخاصة الحزب الشيوعى. وعندما تحركت دوائر المعارضة من مواقع طائفة الانصار، واجهتها الحكومة الجديدة بقوة وشراسة، أدت الى سحقها. وفى التشكيل الوزارى الجديد استحدثت وزارة لشئون الجنوب، تحت اشراف جوزيف قرنق، الشيوعى الجنوبى البارز، الذي أعلن ...أن أسباب مشكلة الجنوب تتمثل فى عدم المساواة القائمة بين الشمال والجنوب، الناتجه من التطور غير المتكافىء فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. وكل توترات العلاقة بين الشمال والجنوب تنبع من هذه الوضعية...[٢١] ونتيجة لذلك يرى جوزيق قرنق أن الحل يتركز فى التنمية وردم الفجوة القائمة بين المنطقتين[٢٢]، ولتقوية مركز وزارته قام بتعيين مجموعة من العناصر الراديكالية فى المناصب الرئيسية ونقل بعضها الى الجنوب نفسه. وأعاد أعداداً من اللاجئين الذين جذبهم شعار الحكم الذاتى الاقليمى. ولكن التطبيق الكامل للبرنامج المطروح لم يتم، بسبب عدم الاتفاق على تفاصيله، ولأن قرنق كان يفضل إجراء خطوات عملية فى اتجاه التسوية الدستورية. ومن جانب أخر، كان الجنوبيون يعتقدون فى خطأ موقفه الأساسى من قضية الجنوب، فاتهمه بعضهم بأنه يجرى وراء السلطة بدوافع شخصية، معادية لمصلحة الجنوب ومعارضة لتطبيق برنامج الحكم الذاتى الاقليمى. ومع أن الجنوبيين قد رحبوا باعلان البرنامج الجديد بحماس شديد، واعلنوا تأييدهم للحكومة الانقلابية، إلا أن مرور الوقت دون حدوث أى تغيير جدّى فى أرض الواقع أعادهم الى موقف التشكيك فى نوايا الحكومة.

وفى هذا الوقت كانت أوضاع التحالف بين الحكومة والشيوعيين تتدهور في اتجاه الصدام بينهما. ومع أن بعض الشيوعيين، بما في ذلك قرنق

نفسه،ظلوا فى مواقعهم بمجلس الوزراء، فقد انفجر صراع مفتوح بين الحزب الشيوعى والسلطة الانقلابية، قاد الى ابعاد معظم المرتبطين به من مواقع الحكم. ووصل هذا الصراع نهايته بمحاولة انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١، التى انتهت بعودة نميرى الى السلطة، بعد ثلاثة أيام، واعدام الذين قاموا بالمحاولة، بما فى ذلك جوزيف قرنق نفسه. وفى أول تشكيل وزارى بعد القضاء على المحاولة، عين ابيل الير فى وزارة شئون الجنوب، وهو من الشباب الجنوبيين، الذين لعبوا دوراً بارزاً فى السياسة الجنوبية، وكسب ثقة الجنوبيين المتواجدين فى الداخل، وثقة قسم كبير من المتواجدين فى الخارج. وتخوف الجنوبيون وعدم ثقتهم فى الحزب الشيوعى، من خلال عدم ثقتهم في جوزيف قرنق، عكست نفسها أولاً في وقوفهم خلف نميرى، وبشكل خاص لان انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١ اتهم نميرى باحتضان العناصر الجنوبية الانفصالية. وبعد القضاء على الانقلاب الشيوعى، قدم نميري نفسه للشعب السودانى فى استفتاء شعبى، تم فيه إختياره رئيساً للجمهورية باغلبية ساحقة، وعين أبيل ألير نائباً للرئيس بجانب مسؤليته عن وزارة شئون الجنوب. وفى هذا الوقت عمل أبيل ألير على دفع الرئيس للتفاوض مع الحركة الجنوبية المسلحة كطريق وحيد لايقاف الحرب واستعادة السلام، وهي الاستراتيجية التى كان يرفضها جوزيف قرنق. وبمجرد أن بدأت المفاوضات، ظهرت أمام الطرفين المتحاربين فرص واسعة للوصول الى تسوية عادلة، وبذلت الوفود المشاركة فى المفاوضات جهوداً مضنية، كانت نتيجتها التوصل الى وثيقة مُنح بموجبها الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب. وبعد التوقيع على الاتفاقية من قبل الطرفين، حولها نميرى الى قانون، هو قانون الحكم الذاتى الاقليمى للمديريات الجنوبية لسنة ١٩٧٢. وفى الثالث من مارس من نفس العام بدأ تطبيقه في الواقع العملى. وفى ذلك اليوم وجه نميرى خطاباً هاماً للشعب، جاء فيه:-

(.. لقد صدر إعلان التاسع من يونيو بعد شهر واحد فقط من قيام الثورة، وطرح الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب فى اطار السودان الموحد.. ولكن خيانة وغدر الذين وثقنا فيهم لتنفيذ هذه السياسة فى الجنوب، تماماً كرفاقهم فى الشمال، ظلوا يعملون على عرقلة أى تقدم عملى لبرنامج الحكم الذاتى الاقليمى... هؤلاء، وتعرفونهم جيداً، قد استغلوا مواقعهم الرسمية لمصلحة رغباتهم ومصالحهم الحزبية الضيقة.. واعاقة السياسات الثورية الخاصة بالجنوب.. واكتسب التخريب أبعاداً واسعة جعلت الجنوبيين يشكون فى صدق نوايانا وان مانقوله هو مجرد وعود كاذبة... ولكن الموجة الثورية التى

اكتسحت البلاد بعد فشل انقلاب الشيوعيين، الخونه والعملاء، تلك التى صاحبت معركة الاستفتاء، قد فتحت آفاقا جديده لبلادنا... فقد أصبح من الممكن الوصول الى تسوية تصون وحدة البلاد وتحافظ عليها... وتلبى تطلعات الجنوب في نفس الوقت... لقد بذلت وزارة شئون الجنوب جهوداً مضنية، تحت اشراف الاخ أبيل ألير، نائب رئيس الجمهورية، وهو رجل أعرفه منذ ثلاث سنوات ويعجبنى فيه تسامحه وبراعته واخلاصه، وكان ذراعى اليمين فى كل الخطوات المتعلقة بذلك الجزء العزيز من بلادنا، الجنوب...)[٢٣].

ينص قانون الحكم الذاتى الاقليمى على انشاء مجلس شعب اقليمى منتخب ومجلس تنفيذى عالى معين، يكون رئيسه رئيساً للاقليم. والمجلس الاقليمى مخول بالتشريع الخاص بصيانة وضبط النظام العام والأمن الداخلى، والادارة الكفؤة وتنمية الاقليم الجنوبى اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وتفاصيل هذه المجالات حددت لتشمل :- تنمية واستغلال الموارد المالية للاقليم لتنميته وادارته... تنظيم الجهاز الادارى الاقليمى والمحلى... الاعتماد في التشريع على العادات والاعراف المحلية التقليدية فى إطار القوانين الوطنية.... انشاء وصيانة وادارة السجون والمؤسسات الاصلاحية... انشاء وصيانة وادارة المدارس العامة في كل المستويات وفقاً للخطط الوطنية فى مجالات التعليم والتنمية الاقتصادية والاجتماعية... تنمية اللغات والثقافات المحلية... تخطيط القرى والمدن وتشييد الطرق وفقاً للخطط والبرانج الوطنية... تنمية التجارة... انشاء الصناعات والاسواق المحلية... اصدار الرخص التجارية وتكوين الجمعيات التعاونية.. انشاء وصيانة وادارة المستشفيات العامة... ادارة خدمات الصحة والبيئة ورعاية الأمومة والاطفا ورفاهيتهم... الاشراف على الاسواق... مكافحة الأمراض الوبائية... تدريب المساعدين الطبيين والقابلات الريفيات... انشاء المراكز الصحية والشفخانات... وتنمية صحة الحيوان ومكافحة الامراض الوبائية وتطوير الانتاج الحيوانى وتجارته... تطوير السياحة... انشاء حدائق الحيوان والمتاحف وتنظيم المعارض التجارية والثقافية ... التعدين والتحجير دون إخلال بحقوق الحكومة المركزية فى الغاز الطبيعى والمعادن المكتشفة...إستخدام وتنظيم وادارة خدمات الشرطة والسجون وفقاً للخطط والمستويات الوطنية... استخدام الاراضى حسب الخطط الوطنية... مكافحة الحشرات ووقاية النباتات... تنمية واستغلال وحماية منتجات الغابات والمراعي وفقاً للقانون الوطنى العام... تنمية وتشجيع مشاريع العون الذاتى... وكل المسائل الاخري التى قد يخولها رئيس الجمهوية للمجلس الاقليمى.

أما المجلس التنفيذى العالى، فهـو يعمل بالنيابة عن رئيس الجمهورية، هو مسؤل امام الرئيس والمجلس الاقليمى فى ادارة الاقليم بطريقة كفؤة، ومخول بتحديد واجبات واختصاصات المصالح الحكومية المختلفة فى الاقليم الجنوبى، ماعـدا المسائل المرتبـطة بوزارات ومصالح الـوزارات المركزية، إلا بموافـقة من رئيس الجمهورية.

والمسائل المستبعدة من اخـتصاصات وسلطات المجلس الاقليمى والمجلس التنفيذى العالى تشمل الدفاع الوطنى، الشئون الخارجية، النقد والعملة المعدنية، المواصـلات النهرية والـطيران، الاتصـالات والمواصـلات، الجمـارك والتجـارة الخارجـية باسـتثناء تجـارة الحدود وبعض السلع التـى قد تحددها الحـكومة الاقليميـة بموافقة الحكومة المركـزية، الجنسية والجوازات والهجـرة، التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، التخطيط التربوى والمراجع العام.

فى جـديثه بمناسـبة أعـلان قانون الحكـم الذاتى الاقليمى، أشـار الرئيس نميرى، بتركيز خاص، الى الفقرات المتـعلقة بالقوات المسلحة واللغة، ويقال انها خضعت الى مناقشة واسعة أثناء المفاوضـات. فموضـوع القوات المسلحة يتعلق بتمثيل الجنوب، حـسب نسبة سكانه، السيطرة الاقليميـة على القوات المتواجدة فى الجنوب، والاجراءات المؤقـتة لاسـتـيعاب عناصـر جيش الانانيا- والفـقرات الخاصة باللغة تجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للسودان..

...وهذه ليست خاضعة للتفاوض.. اخواننا فى الجنوب وافقوا عليها فى الاتفـاقيـة الأصليـة.. وعلى أي حال، لقـد وافـقنا، بعد أن أخـذنا فى الاعتـبار عناصر عمليـة معينة، على أن نسـتخدم اللغة الانجليـزية كلغة عمل فى الاقليم الجنوبى، بجـانب اللغات المحلية الأخـرى، التى قد تكون مفيدة لترقية العمل الادارى أو تحت ظروف معينة...(٢٤)

والفقـرات الاخرى، ذات الاهتمـام الخاص، تشمل حـرية الحركة وضـمان فرص التعليم المتساوية،... الأولى تؤكد على حرية كل المواطنين فى الحركة وإن تقييـد الحركة أو منعهـا يمكن أن يشمل مواطناً محـدداً، أو عدداً من المواطنين، على أسس تتعلق بالصـحة العامة والنظام العام. والـفقرة الثانية تؤكـد ضمان المسـاواة فى فرص التـعليم لكل المواطنين في الاقلـيم الجنوبى، بالاضافـة إلى الاستخدام والتجارة وممارسة أى مهنة مشروعة. وحقوق المواطنين بهذا المعنى يجب أن تصان ولاتتـعرض للضرر بسبب العرق أو القـبيلة أو الاصل أو الدين أو مكان الميلاد أو الجنس -وأخيراً، هناك فقرة تقول

...أن المجلس الاقليمـى سيعـمل بكل طاقته لتـدعيم وتعـزيز وحدة السودان واحترام الدستور..(٢٥)

وفى إشارة الى الاهمية التى يعلقها على التسوية، أعلن رئيس الجمهورية... (...تقديراً لهذا اليوم البارز فى تاريخنا الوطنى، رأيت من المناسب أن يكون يوم الثالث من مارس، فى كل عام، يوماً نحتفل فيه ونقيم المهرجانات احتفالاً بيوم وطنى، نسميه، من الآن فصاعداً، "يوم الوحدة الوطنية"...إنه باسم عظمة هذا اليوم، أدعو كل وطنى، فى عموم أرجاء البلاد، أن يعتبر هذا اليوم بداية عهد جديد لوحدة التراب السوداني، وأن ينظر اليه كرمز لسلام دائم وازدهار وتقدم اقتصادى لسودان جديد...)[٢٦].

وإذا كانت الاتفاقية لم تتحدث عن السياسة الدولية، الا أن حديث الرئيس نميرى، الذى وضعت كلماته بدقة واضحة، جاء، كما يبدو، ليوضح لماذا لم يتبع اعلانه الاصلى الخاص بانضمام السودان لاتحاد الجمهوريات العربية. فقد قادت المعارضة الداخلية الى تأخير انضمام السودان للاتحاد، ودفعت الرئيس الى القول بأن مثل هذه الخطوة يجب أن تنبع من جماهير الشعب، وأن السودان سينضم للاتحاد عندما يعبر الشعب عن رغبته واستعداده لذلك. ويبدو أنه كان يشير الى هذا الموقف، بارتباطه الوثيق بالجنوب، عندما أكد أن...

...سياستنا الخارجية ثابتة في مبادئها واهدافها... لقد دخلنا فى هذا الطريق لمصلحة السودان ولتأكيد وحدته... سرنا فى هذا الطريق لمواجهة مسؤلياتنا النابعة من كوننا جزءاً من العالم العربى، ومن معرفتنا بحقائق واقعنا... سرنا فى هذا الطريق، أيضاً، لأننا جزء من أفريقيا، لتحسين علاقات الجوار، وايضاً حركة التحرر الافريقى، لنقف به من أجل السلام والحرية لكل الشعوب...[٢٧].

وأشار رئيس الجمهورية، أيضاً، الى أهمية التسوية لأفريقيا بشكل عام، لأن...

...اتفاقية أديس أبابا انتصار للسودان ولأفريقيا بأجمعها.. كل أجهزة الإعلام أشادت بها... أن التنوع الثقافى والعرقى يمثل سمه مشتركة فى كل الاقطار الافريقية، وليس هناك قطر أفريقى واحد بعيد عن مثل هذه الصعوبات التى يعانى منها السودان، نتيجة للسياسات الاستعمارية... ونجاحاً فى تسوية هذه المشكلة انتصاراً لقارتنا بأجمعها، ستمنحها أملاً جديداً وايماناً جديداً بالوحدة الوطنية، رغم الاختلافات الثقافية والعرقية وغيرها...(٢٨).

وفى المقابلة، التى أشرنا اليها سابقاً، رأينا أن الزعيم الدينكاوى قد وصف، باسهاب، تاريخ تجارة الرقيق، معاناة الدينكا من بطش ونهب الاتراك والعرب، والخسائر الباهظة فى الماشية ووسائل الحياة الاخرى والخوف الدائم من القتل، ثم أضاف:

...هذا ماحدث تقريباً مرة أخرى، واذا لم يحقق نميرى هذا السلام، كنتم ستـرون وضعاً أكثر سوءاً... نميرى هذا رجل عظيم لأنه حقق السلام، وحتى اذا لم يستمر هذا السلام، يكفى أنه فعل مافى وسعه....

وكمـا يحدث فى كل انحـاء السودان، حيث يسـتقبـل الناس إى حدث هام بالاغانى، والأناشـيد، رحـبت الأوساط التقـليدية والحديثـة فى الجنوب بالحكم الذاتى الاقليمى الذى منحته الاتفاقيـة للجنوب، والمقاطع التالية من أغنية رددها ابناء قبيلة الدينكا ترحيباً بهذا الحدث الهام:-

لقد أرسل القادة
أرسل القادة إلى اثيوبيا
أبيل ألير هو رئيس فريق المفاوضات
أبيل ألير سأل رئيس البلاد:-
كيف تعيد الأمن والسلام لبلادنا؟
كيف نعيد توحيد بلادنا؟
كيف تعيد الاستقرار للسودان؟
كيف نعيد الاستقرار للجنوب؟
رئيس البلاد أجاب بصوت واضح:-
"الاحقاد لن تفيدنا فى شىء
لن نعيش أكثر من ذلك مع الاحقاد
لن نعيش معها في بلادنا، السودان"
لقد رفعت الراية
راية السودان الجديدة رفعت
من هو رئيس الثورة؟
نميرى هو رئيس الثورة
هو رئيس الحكومة
هو الذى يقود بلادنا
هو زعيم الجنوب والشمال
بلادنا، السودان، أصبحت بلادنا
بلادنا تتطلع الآن لمستقبل زاهر
سننتظر ونرى
سننتظر قائدنا
لنرى... هل سيكون مثل القادة السابقين؟
لن يكون مثلهم

الهــوامــش

(١) يقول مــدثر عبدالرحــيم «لقد أصبـحت تجارة الرقيق اليـوم مجرد ذكـرى لحدث تاريخى بعيد، ولكن ذلك لم يمنع اسـتخدامها بواسطة أعداء وحدة السـودان، كسلاح دعائى مؤثر- والسياسة البريطانية، من جهة أخرى، حملّت السودان المستقل باكثر مشاكله صعوبة من خلال خلق شـكل من الوطنية المحلية فــى الجنوب، تتحدث باسم الاقليـم فى مجمـوعه، رغم أنهـا لم تجد قبـولاً عالميـاً، وتواجه السلـطة الحكوميـة بالعنف المسلح، كدولة جنوبـية منفصلة، مدعومة من قبل اسرائيل ودول أجنبية أخـرى»، ص٨ ، كتاب الامبريالية والقومية في السودان، مصدر سابق

(٢) K. D. D. Henderson, op.cit.,p. 183

(٣) Muddathir, op.cit.,p. 6.

(٤) Arabism, Africanism and Sel-indentification in the Sudan, in Yusuf Fadl Hasan, ed, Sudan in Africa, p. 237.

(٥) بينما كان السـودانيون الشماليون، قبل أربعـة أو خمسة عقود، يعرّفـون أنفسـهم كمـسلمين وعرب فـقط، هناك الآن، على الأقل، بعض الشمـاليين، بالاضافـة الى الجنوبيين، الذين أصبحوا، فى عصر القومية الافريقية والجامعة الافريقية السائد الآن، يعرفون انفسـهم بهوية أفريقية صافية تسـتبعد أى تأثير عربى أو إسلامى. Muddathir Abdel-Rahim, op. cit, p.235.

(٦) Muddathir, Imperialism and Nationalismm , op. cit,p. 109

(٧) Ibid, p. 110.

(٨) Their Finest Hours, op.cit.

(٩) فى كـتاب بعنوان (مـسألة جنوب السـودان) أشار الصـادق المهدى الى أن اللـغة العربية والاسـلام هما لغة غالبية السـودانيين، وبالتالى، هما اللغة الرسمـية والدين الرسمى للسودان، وركز على أهمية التنميـة الاقتصادية في الجنوب كخطوة فى اتجاه خلق نوع من العدالة والتوازن بين الشمال والجنوب، وبالتالى تقوية وتعزيز المشاعر الوطنية المشتركة بين الطرفين، وأشـار أيضـاً، الى أن المشكلة، فى بعض جـوانبهـا، ترجع الى فـشل الاداريين فى الجنوب. لذلك اقـترح ضـرورة الاهتمـام باختـيار الاداريـين المرشحين للعـمل فى الجنوب، وفضل الجنوبيين أنفسهم اذا ماتوفرت المؤهلات اللازمة.

(١٠) فى مخـاطبته للجنوبيين، فى إحـدى زياراته للجنوب، أكد كلمنت أمـبورو، وزير الداخلية وقتها، فى كلمته على الآتى:-

ان حكومتكم الجديدة، يقودها رجال يتميزون بالنوايا الطيبة والايمان بالديمقراطية لكل السودان، بما فى ذلك انتم، وسـاهموا فى اسقـاط الديكتاتورية العسكرية بسـلاح الاضراب السيـاسى... حكومتكم اعتـرفت، لأول مرة في تاريخ هذه البـلاد، بان هناك اختلافـات أثنية

وثقافية وجغرافية بين الشماليين والجنوبيين... وإن مشكلة الجنوب، كما يقول رئيس الوزراء "هى الاكثر أهمية وألحاحاً فى هذا الوقت... لذلك يجب مواجهتها بسرعة وفعالية عالية"...وإن إستخدام القوة لايمكنه أن يحل هذه المشكلة المعقدة... إن الجنوب لم يكن يملك خياراً، في مواجهة الحكم العسكرى، سوى مواجهة القوة بالقوة. ولكن كل الاشياء السيئة تصل الى نهاية، وأمل أن تكون هذه بداية لنهاية كل معاناتنا فى هذا الجزء من بلادنا... ان المشاكل لا يمكن حلها بالحقد والكراهية... يجب ألا نكره الشماليين الابرياء فى الجنوب ولانحقد عليهم... ذلك لا يخلق أمة... لذلك أدعوكم، اخوانى الجنوبيين، اينما كنتم، لتوفروا اليوم مناخاً تختبر فيه سياسات الحكومة الجديدة، التى أمثلكم فيها، وآمل أن أرى ذلك اليوم، انه ليس ببعيد، حيث يعود الجميع للحياة الطبيعية.

(١١) فى الخطاب الافتتاحى لرئيس الوزراء، السيد سرالختم الخليفة، ٥-٦.

(١٢) ١ - ٢

(١٣) كلمة جبهة الجنوب، ١٠.

(١٤) كلمة الازهرى ٢-٤.

(١٥) مقترحات الاحزاب الشمالية.

(١٦) متضمن فى وثيقة من الجنوبيين فى ردهم على مقترحات الشماليين.

(١٧) الخطوات المباشرة التى تقرر اتخاذها شملت تنفيذ اجراءات خاصة باعادة وتوطين اللاجئين، بالاضافة الي المتواجدين الذين دمرت منازلهم وممتلكاتهم، ومواجهة ظروف المجاعة فى بعض اجزاء الجنوب التى تأثرت بالحرب، واعادة كل المدارس الجنوبية، التى حولت الى الشمال بسبب ظروف الحرب، للجنوب. واقترح المؤتمر، ايضاً، خطوطاً معينه للسياسة التى يجب ان تتبع، وشملت: اختيار المزيد من الجنوبيين للتدريب كضباط شرطة، وسجون، واداريين وضباط في القوات المسلحة، وضباط صحة عامة، ومساعدين طبيين، وضباط غابات، وضباط صيد واسماك، وجنوبة الادارة والشرطة والسجون والاعلام، حيثما توفر الجنوبيون المؤهلون لذلك أو باتخاذ خطوات لتدريبهم وترقيتهم اذا لم يتوفر الجنوبيون المؤهلون، المساواة فى فرص الاستخدام والاجور دون تمييز على أساس الدين أو اللغة أو العرق، ضمان حرية الاديان والنشاط التبشيرى فى اطار القوانين السارية، السماح للأفراد والمؤسسات الخاصة بفتح المدارس بشرط الالتزام بقوانين البلاد، فتح مدارس ثانوية للبنات ومدرسة زراعية، اعادة تأسيس مدرسة زراعية ومركز تدريب ومركز خدمات بيطرية، توقفت كلها بسبب ظروف الحرب، وكل المدارس الجنوبية يجب ان يديرها جنوبيون أكفاء مع عدم اشتراط معرفة اللغة العربية لوظيفة ناظر المدرسة، ايجاد وظائف للشباب الجنوبى، أنشاء مجلس قومى للتنمية الاقتصادية مع وكاله اقليميه فى الجنوب، اعطاء أولوية للسكان المحليين في استغلال الاراضى مع التسهيلات الضرورية Press Release No. 12, March 23, 1965.

(١٨) Press Release cited (Supra) for more on the conference and southern Problem,

كذلك M. O. Beshir, The Southern Sudan Background to Conflict,

Oxford Univ. Press.

(١٩) The Vigilant, 27/6/1965.

(٢٠) Ibid

(٢١) Revolution in Action, Speeches by Joseph Garang, 1970, 8.

(٢٢) ان ألتزام جوزيف قرنـق بالتنمية كحل حقيـقى لمشكلة الجنوب توضحه لنا هذه الفـقرة المقـتطفـة من خطاب القاه فى مـجلس العـموم البـريطانى، في ابريل ١٩٧٠، أمـام مجمـوعة من البرلمانيين والاعلاميين والنقـابيين والكتاب، حيث يقول (...أما بـالنسبة لمشكلة ثوارنا فى الغـابة أو يـوغندا، الذين يهـددون باثارة اضطرابات، والـذين يتـصلون بمنمـات وحكومات اجنبـية معينة، فـان كل مانقوله لهم هو هذا... سنبـنى نحن ودمروا انتم، سنبنى المدارس فاحـرقوها انتم، سنبنى المدارس فقـوموا بتحطيـمها... سنشـيد الطرق، وعليكم ان تحرقوها وتحطموا الجسور... شـعب الجنوب هو الذى سيقرر ويعرف من يبنى ومن يدمر؟ وفى النهـاية شعب الجنـوب هو الذى سيـحدد من هـم قادته؟ الذين يدمـرون كل شىء؟ أم الذيـن يبـنون؟....) Ibid., 25 وفى وقت لاحق اصبح قـرنق ينتقد الحكومة لانهـا لم تتبع منهجه فى العمل فى الجنوب بالسرعة المطلوبة، فـفى مؤتمر صحفى عقده فى الخرطوم فى نفس الشهر والسنة، أكد أنه... (...صحيح أننا أعلنا سياسة واضحة تجاه الجنوب، لكن المهم هو تطبيق هذه السيـاسة... المهم هو ماذا فعلت كل وزارة للوفاء بالتزامـها فى تنفيذ الخطط والمشروعات المتفق عليها... العـمل لم يجرى بالسرعة المطلوبة... بالانجازات فقط، التى يراها الدينكا والنوير العـاديون أمـام عيـونهم، نسـتطيع مواجـهة دعـايات الامـبرياليـة... الخطر الحقيـقى الذى يواجه الثورة، سيندلع من الجنوب، وليس من الجـزيرة أبا، حيث هزم تحرك الامام الهادى بكل سهولة....) Id., 34

(٢٣) D.R. of the Sudan, Permanent Mission to the U, N., Settlement of the Problem of the Southern Sudan, 102

(٢٤) Ibid, p. 506

(٢٥) Article 30

(٢٦) خطاب الرئيس، ٨.

(٢٧) Ibid., pp. 9-10.

(٢٨) Ibid., p. 6.

(٢٩) Permanent Mission to U. N., Press Release, Joseph Lagu Back in Khartoum, 1972

الفصل السادس

الثقافات الجنوبية

جذور الهوية:

لقد رأينا، فى وقت سابق، كيف تم تشكيل الشماليين عن طريق عملية تعريب وأسلمة، قامت علي متن النظم التقليدية السابقة، وكيف أن هذه النظم التقليدية قد قادت، في الفترة الأخيرة، إلي ظهور حركة معارضة مركبة، قادتها قوى الشباب، القوى الأكثر حداثة فى المجتمع، وتمكنت من أحداث تغييرات معينة فى رموز الهوية، ووفرت، نتيجة لذلك، أرضية مناسبة للاعتراف بالهوية الجنوبية ومنحها الحكم الذاتى الاقليمى. رأينا، أيضاً، كيف قاوم الجنوب عملية التعريب والاسلمة، بسبب الطرق والاساليب العدوانية التى استخدمت لاستيعابهم... فهل يعني ذلك أن الثقافات الجنوبية مختلفة عن الثقافات الشمالية فى ديناميـاتها لاعادة بناء الهوية؟ وألى أى مدى سيهىء التركيب الداخلى للجنوب نفسه، عن طريق انقسامه بين التقليدية والحداثة، لنوع من أعادة تقييم الهوية، مثل الذى ظل يجرى فى الشمال؟ هذه الاسئلة تمثل مدخلاً هاماً لأجل الوصول إلى فهم أفضل لمشاكل الماضى، وأهلية الحاضر واستحقاقاته وامكانيات المستقبل.

فى دراستنا للثقافات التقليدية فى الجنوب، ومساراتها الحاضرة والمستقبلية، سنركز على ثقافات القبائل النيلية Nilotics وخاصة ثقافة الدينكا، ليس فقط لتعميق تحليلنا، ولكن، أيضاً، لأن هذه القبائل تمثل الأغلبية الساحقة لسكان الجنوب. وقبيلة الدينكا، وحدها، تمثل أكبر مجموعة أثنية في السودان، ولغة الدينكا هى اللغة الثانية فى البلاد، بعد اللغة العربية حسب نسبة السكان الذين يتحدثون بها.

(أ) نظام القيم عند القبائل النيلية:

لقد كانت حياة القبائل النيلية، ولاتزال، تتمحور، بشكل كبير، حول قيم أساسية بجانب النسل والانجاب كأساس ومقياس للتقسيم والترتيب الاجتماعى. وبما أنها تهدف الى الخلود والبقاء البيولوجى والاجتماعى، من

خلال الذكور، فان النسل والانجاب يمنح الاسلاف وعالمهم الروحي سيادة وتفوقاً مطلقاً على كل المخلوقات الفانية، التى تقسم وترتب وفقاً للعمر والجنس، حيث يقف الذكور في قمة الهرم والنساء فى قاعدته الدنيا- والنسل والانجاب، أيضاً، يقسم المجتمع على طول خطوط نسب وسلالات، الى عامة وارستقراطية تتركز فيها الزعامة القبلية، ولكن النسل والانجاب هو نقطة بداية، فقط، لمركب مجموعة قيم ومؤسسات، تضبط وتوازن بعضها البعض وتقوم بتعويض المتضررين من عمل النظام الاجتماعى. وفى هذا المركب، تقف قيم الحب والعواطف والاحترام والاستقامة، والقدرة على التأثير والاقناع، فى مكان أعلى من موقع القيم المادية مثل: الثروة، المعرفة العلمية، المهارة الفنية ،الصحة الجسدية. وفى قلب قيم الطاعة والاحترام يقف مايسميه الدينكا cieng، كمفهوم للعلاقات الانسانية الرفيعة، فمهما كانت درجة عدم الاحترام المتضمن في تراتبيه العمر والجنس والنسب والسلالةو فأن مبادىء الـcieng، مدعومة من قبل مثل الكرامة الانسانية، المعبر عنها فى لغة الدينكا بكلمة dheeng تقوم بأعطاء كل شخص، ليس فقط الحق فى التقدير والاحترام، ولكنها تعطيه، أيضاً، مسالك بديلة للكرامة والاحترام والتقدير. إذ أن جمال قطعان الماشية وقيم الغناء والرقص الحسية، والاعجاب بالقوة المادية والشجاعة، وتوقع أى شخص أن يكبر فى يوم ما؛ تجعل الشباب يتطلع إلي قطف ثمار الكهولة والشيخوخة، ولكنهم يحصرون انفسهم فى مسرات وملذات الحاضر. وتقوم النساء بحفظ وصيانة هذا النظام القيمى، فيتقبلن التراتبية، ويبجلن فى اعتزازهن بأنفسهن كزوجات وأمهات للرجال. أما العامة والفقراء، فأنهم لايرون أي فجوة بينهم وبين الأثرياء أو الزعماء، لأن قيمة الوعى الاجتماعى المسيطرة تقوم بمواجهة أى معاملات مهينة مرتبطة بالتقسيم والتراتب الاجتماعى.

إن الحرمان التقليدى له، بالطبع، تأثيراته السلبية، التى قد تتمثل في الروح العدوانية والعنف، مشاكل الابقار والشباب والحسد والغيرة، الشقاق والخلاف، الاستحواذ بواسطة أرواح النساء غالباً بسبب تعدد الزوجات ولكن، مع أن هذه الجوانب تعكس الاستياء وعدم الرضى، إلا أنها لاتهدد، بأى حال، النظام أو التوازن القائمين في المجتمع.

(ب) التمركز حول العرق والاستمرارية والذاتية المرتبطة بالنظام القيمى:

أن تحليل نظام القيم النيلى يكشف عدد من المعاني والاشارات المتضمنة

فى داخله ويتمثل أكثرها وضوحاً فى: التركز حول العرق والثقافة، مقاومة التغيير، والتجزؤ التلقائى. فاذا أردت أن تهجر تقليداً معيناً، عليك أن تنكر وجود الاسلاف ومساهتهم في ثقافة ذريتهم. لذلك فأن أي محاولة لالغاء عادة عتيقة تقابل برد فعل سريع يؤكد (أن كلماتك صحيحة، لكن، أنها عادة أجدادنا منذ زمن بعيد...) وربطها بالاسلاف، هكذا، يقصد به تأكيد شرعيتها وثباتها غير القابل للنقاش.

فى كتابه (الكنيسة المسيحية فى سودان مابعد الحرب العالمية) وضع ترمنجهام الملاحظات التالية فى عام ١٩٤٨، حيث أشار إلى أن:-

«أحد محّددات سرعة أو بطء انتشار المسيحية في جنوب السودان يوفرها لنا التناقض بين شبه الرعويين، رعاة الأبقار، وسط القبائل النيلية (الشلك، الدينكا، النوير)، والمزارعين المستقرين. فحياة المجموعة الأولى ترتبط باقتصاد الابقار، حيث تحول هذا الحيوان إلى إله حقيقى.... وهم محافظون بدرجة عالية وفخورون بحضارتهم... وظلوا يمثلون حصناً منيعاً ضد تغلغل الاسلام، وأكدوا بالفعل صمودهم فى وجه كل المحاولات.. لذلك تطلب العمل المسيحى فى أوساطهم، منذ البداية، معاملة خاصة. ومع ذلك، فقد بدأوا الآن فقط الاستجابة، بدرجة أو أخرى، لكنوز رسالة المسيح... وبالتالى، من المهم، الآن مع بداية تحطم الحواجز، بالنسبة لتغلغل أفكار وطرق حياة جديدة، ان الجهود التبشيرية يجب أن تكثف فى أوساطهم، لأنه، مع نشر المسيحية فى حضارتهم، يمكنهم المحافظة على خصائصهم الأثنية المتفردة، ويمكنهم أن يجدوا مكانة حقيقية فى اطار تركيب السودان الأوسع»[١]

والواقع ان ملاحظات ترمنجهام يشاركه فيها عدد كبير من المراقبين الذين احتكوا بالقبائل النيلية. فقد كتب اودري بت يقول:-

«ان القبائل النيلية تعتبر منطقتها هى الأفضل والأحسن فى العالم، وتنظر الى كل الآخرين باعتبارهم أدنى منها. ولهذا السبب... احتقروا ثقافات العرب والأوربيين... وموقفهم تجاه أى سلطة تحاول أن تبطش بهم وتقمعهم، يتميز بالحساسية المفرطة، وبالاحتقار والازدراء والكراهية العمياء لهيمنة الغرباء، مع استعداد دائم للدفاع عن انفسهم وممتلكاتهم من غزوات الآخرين... ويتميزون، أيضاً، بالاعتماد على انفسهم، وبأنهم محاربون شجعان، ومتمردون ومغامرون شرسون، ومحافظون فى بغضهم الشديد للتجديد والتدخل»[٢]، ويلازم كل ذلك، شعور قوى بالتفرد والتفوق الثقافى، ومقاومة التمثُّل والاستيعاب. فالدينكاوى التقليدى من الصعوبة أن يقتنع بأن غير الدينكاوى يمكن أن يصبح

والحياة لن تكون مثلهم
والحياة لن تكون كما كانت
سوداننا اصبح بلادنا
بلادنا كلنا، جميعنا، معاً
سنبني سوداننا ونرفع اسمه معاً
شهر مايو، مايو عزة السودان

ان الجانب الاكثر أهمية فى ظهور الجنوب الجديد، جنوب الحكم الذاتى الاقليمى، تمثل فى تأثيره الكبير فى تعزيز مشاعر الوحدة الوطنية فى السودان، بعكس توقعات معظم الشماليين في الماضى -فقد تركزت مخاوف المناوئين لحقوق الجنوب، بشكل عام، فى أن الحكم الذاتى، وبالتأكيد الحكم الفيدرالى، سيمثل خطوة فقط فى طريق الانفصال- ولكن المراقب لا يمكن أن يتجاهل اليوم مايسود الجنوب من مشاعر طاغية وتوجهات صادقة لتدعيم وحدته مع الشمال، تحت قيادة نميرى، ورغبة جارفة لصيانة الوحدة الوطنية. وهذه الروح الجديدة، المتناقضة، بشكل حاد، مع موقف الجنوب خلال فترة ماقبل التسوية، عبر عنها، بصدق ووضح، جوزيق لاقو، القائد العسكرى لحركة تحرير جنوب السودان، عندما أكد، فور عودته للسودان، بعد توقيع الاتفاقية مباشرة:-

..لم أكن انفصالياً فى يوم من الايام... لم أكن أومن قط بانفصال الجنوب عن الشمال، ولاأزال اتمسك بهذا الموقف... هدفى الوحيد تمثل فى انتزاع الاعتراف بحقوق الجنوب. ومثل هذا الهدف كنت أرى امكانية تحقيقه عن طريق العمل المسلح، ولكن لم أفكر فى استخدام القوة لتحقيق الانفصال. لقد لجأت للقوة لانى لمست أن حكومات الخرطوم المتعاقبة لم تكن راغبة فى التسليم بهذه المسألة...(٢٩)

ويبدو أن هذا الفهم سيدعم الافتراض القائل بأن الجنوب يمكن أن يطور فهماً متحمساً للوحدة والارتباط مع الشمال، على أساس خطوط توحيد جديدة تؤكد التوزيع الاقليمى المتكافىء للسلطة الوطنية وترك قنوات الاتصال والتفاعل بين الطرفين مفتوحة على مصراعيها.

والآن ننتقل الى مناقشة بعض الجوانب الخاصة للثقافة الجنوبية، فى محالة لاكتشاف الجذور الثقافية للعقبات التى تعترض الوحدة الوطنية، والتطورات التى أحدثها الآن الحكم الذاتى الاقليمى، والبحث عن فرض أفضل لتدعيم الوحدة الوطنية والتكامل بين شقى الوطن فى المستقبل.

دينكاوياً، ولايتردد فى مقاومة أى محاولة لاستيعابه فى هوية أخرى، مهما كانت الضغوط. وفي هذا الاطار تمضى احدى الاغانى هكذا:-

أبقارى لم تخطف قط
وأنا لم اندمج قط فى قبائل أخري
أنا ... لوال.... رفضت ذلك
هذا أمر يعرفه جيداً أجانق
حتى اذا قام انسان بتقطيع أوصالى
وترك قلبى ينبض
سيرى بأم عينيه
أن عقلى وذاكرتى لم تنزع مني.

وكما يرونها هم، بكلمات زعيم دينكاوى:-

«انتم الدينكا تسكنون فى هذه المنطقة الواسعة، الغنية بالاعشاب، رعاة البقر... والجور يسكنون المناطق الصخرية... انتم تعيشون في معسكرات الأبقار، مع أبقاركم، بينما يعيش الجور وسط الجبال... الفرق الرئيسى... انكم تعيشون مع الأبقار وهم يعيشون بدون أبقار».

مع ان القبائل النيلية تمارس الزواج من الاباعد وتحظر زواج القرابات والمصاهرة، إلا أن مقاومة التمثل والاستيعاب تتضمن مناهضة التزاوج المختلط مع القبائل والاعراق الاخرى.

وهناك أهمية أخرى للأساس السلالى لثقافات القبائل النيلية، يتمثل فى أن المجتمع، فى موازاة مع الطبيعة الحصرية والشاملة لنظام النسب والسلالة، يقوم على اللامركزية وتعمل وظائفه من خلال عملية تعارضات هرمية متوازنة ومعقدة- وبما أن التفاصيل تشجع على التعميمات، فان الدينكا يميلون الى الوقوع فى مايمكن تسميته (نظام النسب التجزيئى)[٣] ونتيجة للتركيز الشديد على الاسرة، كوحدة اجتماعية، فقد تميز تنظيم مجتمعهم بالوحدة فى التنوع والتعدد. وهذا التفكير فى جوهره، هو توجه فردانى، بمعنى أنه يولد عن طريق أفراد مكيفين بأهمية تقوية واستدامة الذات. وفى مثل هذا الوضع تتركز المشاعر والافعال الموحدة فى الدوائر المباشرة. وأى شخص لايرتبط بهذه الدوائر يعتبر شخصاً غريباً أو أجنبياً، وبالتالى تتقلص الهويات الشاملة بشكل متزايد، نتيجة لتزايد عدد الهويات الوسيطة، وهذا النظام التجزيئى ينطبق على التنظيم الاجتماعى الكلى يقويه ويعززه، بتركيزه على ذاتية أجزائه المتعددة في اطار وحدتها المجزأة. وفى ذلك يقول قودفرى لينهارت Godfrey Lienhardt

«ان الدينكا يقدرون، إيجابياً، وحدة قبائلهم ومجموعاتهم السلالية، وفى الوقت نفسه يقدرون ذاتية مجموعاتهم الأساسي، التى قد تقود الى تجزئة القبيلة... وأساس تناقض القيم العرضى هذا يتواجد فى مطامح كل دينكاوى... كل شخص يرغب فى الانتماء إلى قبيلة أو قبيلة فرعية موحدة وكبيرة... وفى الجانب الآخر، يريد أن يرتبط بمجموعته السلالية الخاصة، الجزء الرسمى من العشيرة الفرعية التى يمكن تذكرها لفترة طويلة باسمه فقط»(٤).

وفي مجتمعات تجزيئية، مثل هذا المجتمع:- «تعتبر علاقات المجموعات المحلية بمثابة توازن قوى، تساعد على استمراره المنافسة بين هذه المجموعات. وقد يجرى تنظيم عدد من المجموعات فى اطار مشترك، بطريقة هرمية فى مستويات متعددة... كل مجموعة لها أهمية خاصة في الظروف المختلفة وفي العلاقة مع النشاطات الاجتماعية المختلفة، الاقتصادية والروحية والحكومية. وفى كل مستوى تكون العلاقات تنافسية فى حالة معينة، لكن، فى حالة أخرى، تتحول المجموعات المتنافسة الى التضامن المشترك فى مواجهة مجموعة غريبة أو أجنبية. وكل مجموعة فى أى مستوى لها علاقات تنافسية مع المجموعات الأخرى، بهدف ضمان حماية هويتها الخاصة والحقوق التى تخصها كمؤسسة، وقد يكون لها علاقات ادارية داخلية تضمن تماسك عناصر مكوناتها... والكتل الكبيرة التى تنشأ كوحدات في اطار واحد تدمج، هى الاخرى، فى كتل اكبر مع اخرى، الى حد ان مجموعة معينة مستقلة فى بعض الحالات تجد انها قد دمجت مع المجموعات المنافسة لها، كأجزاء تابعة في التنظيم الادارى الداخلى لمجموعة أكبر وأوسع، تضمها جميعاً. وهذه المجموعة الأكبر والأوسع تجد نفسها فى علاقات تنافس خارجية مع مجموعات مشابهة، وقد تكون هناك سلسلة كاملة من هذه المجموعات... والمجموعات المرتبطة مع بعضها فى مثل هذا الاطار تكون في حالة مقابلة تكاملية»(٥).

واهم نتائج هذا النظام تشمل احترام حرية الفرد، كوحدة صغرى فى التركيبة العامة، واحترام المجموع فى مكوناته المختلفة التى يمثلها الزعماء. وبينما ظل الانثربولوجيون يركزون علي الروح الديمقراطية للفرد النيلى، إلا أنهم اتجهوا الي القليل من أهمية القيادة والسلطة كنقيض لديمقراطية النظام- وهذا التعارض، علي إى حال، غريب فى نظام يشترط علي القيادة تقدير الفرد والنظر الى السلطة كخدمة عامة مطبوعة بحب الخير، بشكل رئيسى، أكثر منها ديكتاتورية متجبرة. وفي ذلك يقول الزعيم قيرديت:-

«ما يقال الآن ان هذا وذاك كله هراء في الماضى كانت هناك قيادة

وزعامة. الزعامة ليست أمراً جديداً... ليست كلمة ظهرت اليوم- الزعيم هو رجل يتبعه الناس... من أجله يسافرون. مثلاً، كان هناك أروب بيونق... من أجله هو كنا نسافر حتي نصل إلى أرض العرب، أرضه، أرض أجداده... وعندما ذهب أروب بعيداً (مات) بقى ولده كول، وكنا نسافر من أجله... هل رأيت، الزعامة أمر قديم، ليست شيئاً جديداً، البلد تعيش من أجل زعيم»

وهذا شيء هام سواء فى مايتعلق بالاحترام الذى تظهره القبائل النيلية لسلطة الحكومة الحديثة، معبرة عنه فى أغانيها وأناشيدها الخاصة بمدح وتمجيد زعمائها، أو مايتعلق بما تتوقعه من الحكومة في شكل تقدير واحترام لذاتيتها وحمايتها وتحسين وتطوير ظروف معيشتها.

ان درجة الاستمرارية الثقافية للقبائل النيلية، ونظرتهم المتمركزة حول الداخل، ومقاومتهم للتمثُّل والاستيعاب، وحرصهم الشديد على حماية ذاتيهم واستقلالهم... كل ذلك ينعكس، بوضوح بارز، فى تراثهم الشعبى، وخاصة حكاياتهم الشعبية. وبحكم أن هذه الحكايات تدعى القدم، فأنها تبدأ دائما بـ (...هذه القصة أو حكاية قديمة...) ولكن محتواها يعكس حقائق وقضايا معاصرة. وبالاضافة إلي ذلك، فبينما تقود أساطير الزعامة، التى تتميز بأهمية تاريخية، دائماً، إلى حروب مقاومة تدخل الاجانب الغرباء، فان حكايات واساطير الليل، التى تمثل أدوات تأهيل وتثقيف، نادراً ماتشير إلى هؤلاء. بحكم أن هذه الحكايات والأساطير تجسد مؤسسة تعليمية ديناميكية، لها تأثير بارز فى تكوين الشخصية، فان تحاشيها الاشارة الى الغرباء، بأى شكل من الأشكال، لابد أن تكون له دلالاته وتأثيراته في نظرة الفرد لهؤلاء الغرباء والأجانب. وهكذا، لن يكون استنتاجاً بعيداً، اذا قلنا أن التعامل الدائم مع الحيوانات، وخاصة الاسود، التى تملك شخصية مزدوجة، انسانية وحيوانية، قادرة على التغيير من الواحدة الى الاخرى، يمكن أن يكون طريقة، يستهدف النيليون، من خلالها، تكييف نظرة أطفالهم للغرباء فى تعبيرات أخلاقية. واذا سمينا الاشياء باسمائها،فذلك يعنى أن غرباء الأخلاق هم كل الذين يخرقون اساسيات المبادىء الاخلاقية، وقد يكونون من النيليين انفسهم، أما الغزاة الغرباء، والغرباء الذين يخرقون مبادىء الأخلاق، فانهم أكثر من ذلك، أنهم أشبه بالحيوانات.

ان الغرباء ينظر إليهم كمخلوقات وضيعة، أقل من الانسان، بمعنى ان النيليين ينظرون الى الجانب الانسانى، وقيام الغرباء فى بعض الاحيان بـ (أنسنة الحيوانات)، وبالتالى صورة الغريب فى حكايات واساطير الليل، يتفق

مع الممارسة الدينية وسط النيليين، التى يحاولون من خلالها تدجين المخلوقات الشريرة، عن طريق تحويلهم، رمزياً، إلى أقرباء ودمجهم فى نظامهم القيمى.

إما إحترامهم وتقديرهم للزعماء، واعتمادهم عليهم، فانه يظهر، أيضاً، فى تلك القصص والحكايات. فمجرد ان يقتل زعيم بواسطة أحد الغزاة الغرباء الاجانب، ينظر الى شعبه كأنه قد شتت لغياب الزعامة والقيادة. ويصور المشهد، عادة، كأنه مرتبك ومشوش، الناس تجيء وتذهب دون هدف، كل منهم يطلب من الآخر (انتظرنى)، ويرد عليه الآخر، بشكل ثابت، (كيف انتظرك فى بلد قتل زعيمها...) وهناك، بالطبع، استمرارية في النظام، حيث يختلط تشييع الزعيم المقتول، فى العادة، مع احتفالات تنصيب خلفه التى يجب أن تتم فى وقت واحد مع مراسم الدفن. ومع ذلك تحول الحكايات الشعبية كارثة موت الزعيم الى دراما حقيقية، خاصة اذا ارتبط موته بهيمنة خارجية.

(ج) العادات والتقاليد وتأثير عملية التحديث:-

ان مقاومة النيليين للتغيير، وتمركزهم حول عرقيتهم وثقافتهم، وانعزاليتهم، قد ضُخمت، بشكل كبير، فمن الواضح ان المسألة أكثر من مجرد القيام بسرد مجموعة من البدع والاساطير لاقناع أى شخص ليتخلي عن نظام القيم المرتبط به. وبالتالى، فان مزايا التغيير يجب أن تكون واضحة ومحددة، بشكل يسمح بقبولها وقبول التغيير -ويبدو أن تاريخ القبائل النيلية يؤكد، بهذا الشكل أو ذاك، أن (وسائط) التغيير لم يقدموا أي مزايا تذكر ولم يمنحوا هذه القبائل أى أمل فى ذلك. فأرضهم كانت، بالنسبة لهؤلاء الغرباء، مجرد مسرح لصيد الرقيق أو لتوسيع السيطرة الخارجية. ومع ذلك، لم يكن هناك رفض مطلق للثقافات الخارجية. فقد رأينا كيف أن مفاهيم مهدوية متعددة قد تم تبنيها ودمجها فى الثقافة الدينكاوية، حتى عندما تحولوا الي مقاومة حكم المهدية. وفى أثناء جمعى وتسجيلى للتراث الشعبى الدينكاوي، إندهشت، ولم أصدق هذا العدد الكبير من الكلمات العربية التى دمجت فى اطار لغة الدينكا. وقد توصل البعض الى أن عادة الدينكا لتقويس قرون الثور، حسب رغبة المالك، قد ترجع جذورها الى الحضارة المصرية القديمة. وعادة الختان، التى تمارسها بعض قبائل الدينكا، يعتقد أنهم تبنوها من العرب. وهكذا، فالتغيير، اذن، ليس شيئاً غريباً على القبائل النيلية، بل أنهم ظلوا يتعرضون للتأثيرات الخارجية لقرون عديدة، وقاموا بتمثل واستيعاب بعض عناصرها الثقافية وتبنيها، وحولوها الى جزء لايتجزأ من ثقافتهم ولم تعد لها علاقة بجذورها

الخارجية. صحيح أن المقاومة النيلية للتأثير الخارجي قد تعززت نتيجة للسياسات الاستعمارية، التي سجنت هذه القبائل في مناطق مقفولة ومعزولة، وحافظت على الثقافات التقليدية. والغاء تلك السياسات قاد الآن الى تفاعلات ثقافية متبادلة مكثفة. ونتيجة لهذه التفاعلات، وانتشار نظام التعليم الحديث، أكدت القبائل النيلية قدرة عالية فى التكيف مع التغيير لم تكن متوقعة قط. وبدأت ديناميات التغيير تظهر فى التراث الشعبي. ومع أن هذا الجانب واضح وجلى فى الأغانى الحديثة، إلا أن الأغانى والحكايات الشعبية لا تخلو منه. وكما قلنا سابقاً، بأن الحكايات الشعبية نادراً ماتشير الى الغرباء، فقد وقفنا على استثناء واحد، من بين حوالى الستين التى تم تسجيلها، هي حكاية طاعمة ومحمد. ومحمد هذا[٦]، قاضى له أهميته ومن المفترض أن يكون عربياً، ظل يطارد طاعمة، البنت السوداء، ذات الأصول السامية النيلية. وكانت معروفة بصعوبة اغرائها، الامر الذى جعل محمد أكثر إصراراً على كسبها. ومع تمنعها وهيامه بها وإصراره على ملاحقتها، دبرت له خديعة، جعلته يتصور أنه عاشرها فى ليلة من الليالى. ولكن ذلك لم يحدث، بل دفعت له خادمتها وظن أنها طاعمة. وعند معرفة الحقيقة اغتاظ غيظاً شديداً. وزاد اصراره، حتى نجح فى زواجها مقابل دفع عدد كبير من الابقار لاسرتها، ولكنه فى النهاية، تنازل عنها لعبده الاسود ثأراً وانتقاماً لكرامته. ولكن طاعمة اقنعت العبد بأن لايلمسها، عن طريق تعريفه بأصلها وأنها جاءت الى هناك كزوجة لمحمد. وفى النهاية دبرت خديعة أخرى، حيث احضرت زوجة محمد، مع هدايا ثمينة لتنام مع العبد، بينما ذهبت هى لتنام مع محمد دون أن يعرف ذلك - وحدث ان حملت المرأتان، وولدت زوجة محمد ولداً اسوداً و بينما ولدت طاعمة ولداً اسمراً جميلاً- وعندما شرحت المسألة لمحمد، تنازل عن زوجته لعبده واتخذ طاعمة زوجة له.

إن هذه القصة تلقى بعض الاضواء على نظرة الدينكا التقليدية للغرباء، وعلى تجارب مجتمعهم المتغير فى الوقت الحاضر فى نفس الوقت -وكما سبق ان اشرنا من قبل، فانه حتى مجيء البريطانيين، ليضعوا حداً لتجارة الرقيق وحملاتها المتكررة، كان احتكاك الدينكا بالغرباء ، فى معظم الاحيان، احتكاكاً عدائياً لدرجة انهم لايعتبرونهم بشراً. والاغنية التالية التى ترجع أحداثها الى الفترة التى كان الدينكا يقاومون فيها الاتراك والعرب، تؤكد هذه الحقيقة، فقد واجهوا الاسلحة المتفوقة بشجاعة عالية، لأنها كانت خارج نطاق معرفتهم وفهمهم، لم يجدوا إلا أن يعزونها إلى غضب أرواح اسلافهم. وأتوت،

المجموعة القبلية التى تغني هذه الأغنية، خلافا لمجموعات قبلية اخري، لاتختن أبناءها وتحتقر عادة الختان بقدر مايحتقر الأخرون عادة عدم الختان، تقول الأغنية:-

الانسان المختون يقذف بندقيته بعيداً
الوضع سيء فى الجبل
لقد أتعبتنى الكلمات
كلمات الأجانب
ملوال... لقد نزل البلاء على قبيلتنا
لعنة أصغر أبناء غيرجوك، أبونا، أصابتنا
اين ذهب الخالق؟
ياالله... أنقذ ديارنا
من أين جاء العدو؟
العدو ذو العيون الغريبة؟ لا أدرى!
أبعد أسنانك عنى
صرخات الحرب وصلت حتي أغير
لقد قتلت الغرباء
وقتلت عبيدهم
حتي ينام الناس في سلام
الانسان المختون أزعجنا كثيراً
العدو ذو الاسنان المخيفة.... تحرك
عاد الى دياركم
ذو العيون الشريرة ازعجنا كثيراً
ذو الاسنان المخيفة... تحرك
عاد الى دياركم
عاد الى دياركم

ان نظرة الدينكا للغزاة لم تقف فى حدود رد الفعل على الحرمان والتخريب المادى والروحى الذى وجدوه منهم، وانما امتدت الى خصائصهم الجسدية، وحقيقتهم، كصورة مصغرة للأسود/الغرباء، ذوى الشخصية الانسانية/الحيوانية المزدوجة، لتبقي محفورة فى وجدان الدينكا... تأمل، مثلا، قصة (كير وكين ووالدهما المدمن)[٧] ورغم أن ممارسة بيع ابناء القبيلة كرقيق لم يعرفها مجتمع الدينكا، إلا أن محاولة رجل يائيس تسليم أطفاله لكسب

مادى مسألة ممكنة وواردة، خاصة فى ظروف المجاعات التى صاحبت تخريب الغزاة. وهذه المسألة أكدها لنا الزعيم قيرديت، فى مقابلتنا معه المشار اليها في صفحات سابقة، حيث تحدث عن عمليات النهب والتخريب، التي أحدثتها حملات جلب الرقيق، وسط الدينكا، وأشار ألى أنه (اذا كان لرجل أطفال... فقد يعطى العربى طفلاً أو طفلين بأمل أن يوفر حياته هو من موت محقق، وقد يوفر له ذلك بعض وسائل العيش... هكذا، كانت تسير الامور.) حقيقة ان الأب، في القصة المشار إليها أعلاه، كان مدمناً للتبغ يمكن أن تكون طريقة رمزية للتركيز علي الظروف الضاغطة في تلك الفترة. والملفت للانتباه أن كير وكين، قد عادا الى المنزل، بعد هزيمة الأسود، على ظهور ثيران، وهى ممارسة لاتزال موجودة وسط القبائل العربية. فرغم أن بعض الدينكا يركبون الثيران المدربة على الحمل، الا أن الدينكا لايستخدمون أبقارهم بهذه الطريقة. وبالتالى، فان ذلك يعني أن معسكر الأبقار، الذى استولوا عليه، يتبع لشماليين.

مع تدخل البريطانيين وتأسيس اطار سلمى للتفاعل مع الغرباء والأجانب، بدأت نظرة الدينكا تتغير حتي وصلت الى درجة لم يعد ينظر فيها للغرباء كأسود، والى درجة أن وصف عدم الالتزام الاخلاقى اصبح من الممكن أن يشمل الافراد الغرباء بنفس الطريقة التى قد يوصف بها الدينكا. وفى هذا الاطار يمكن توضيح حكاية محمد وطاعمة.

من الممكن أن تكون الحكاية، رغم أنها تحكي بواسطة الدينكا، حكاية شمالية، بحكم الحقائق التى تسردها، واهتمامها بعملية استيعاب بعض الجنوبيين الذين استرقوا واجبروا على العيش فى الشمال. وذلك لسبب هام، هو ان اسم Thaama (هكذا ورد الاسم فى الأصل ورأيت أنه أقرب الى اسم طاعمة، وهو اسم، عربى، ومن نوع الاسماء العربية التى يستخدمها الجنوبيون المهاجرون والنازحون للشمال -المترجم..)، رغم أنه قد لايبدو عربياً، لكنه ليس دينكاوياً، ومن جهة أخرى، نلاحظ أن الحكاية تروى بلسان بنت فى مدينة شمالية. وحتى الطريقة التى قدمت بها الحكاية (هذه حادثة قديمة، قصة كانت تروى فى الماضى عندما كان الناس يتسلون برواية القصص.) تشير، كما يبدو، إلى أنها انقطعت عن ممارسة رواية حكايات الليل، بسبب عيشها تحت ظروف الغربة وابتعادها عن موطنها الأصلى، وسواء كانت دينكاوية أصيلة أو مرتبطة بعمليات استيعاب الرقيق الجنوبيين فى الشمال، فان الحكاية تبدو وثيقة الصلة بالتغيير الاجتماعي الذى شهدته مجتمعات الدينكا وهجرتهم الى المدن الشمالية. أولاً وسط الشباب الذين رأوا في السوق الحديث فرصة

لتكوين ثروة مستقلة، وذلك لأنه لم تكن هناك أى فرص للعمل المأجور داخل اطار القبيلة، لأن الدينكا، بسبب كبريائهم واعتدادهم بأنفسهم، كانوا ينظرون للعمل المأجور كاذلال وخنوع، ويغتبرونه غير مناسب للشخص المحترم، لذلك يجب أن يمارس بعيداً عن بنات الدينكا، فى بلد بعيد، حيث لايهتم بك أحد. والقول المأثور يشير الى... أن (الكرامة تبقى، المذلة والمهانة هي التى دفعتنا لنذهب.)، وذلك يعنى أخفاء الكرامة والشرف فى بلد لايعرف عنك شيئاً. وتعنى، أيضاً، (...جنتلمان هذا المعسكر لايعرف جنتلمان المعسكر الآخر...) ولكن المسألة بالنسبة للدينكا، ان الموازنة بين المزايا المادية للمدينة وخسارة الشرف وكرامة مكانتهم التقليدية ينهى ازمات خطيرة. فى الفترة الاخيرة بدأت الهجرة تؤثر علي البنات والاسر، بشكل واضح. فالنساء يستخدمن، فى الغالب، داخل البيوت، تحت شروط عمل مريحة ومحترمة أكثر من زملائهن الرجال، وتسمح لهن بالتأقلم بسهولة أكثر مع البيئة الجديدة. ولكن الدينكا لاينظرون للنتيجة النهائية بهذا المنظار، فلبس الملابس الشمالية، وتعلم اللغة العربية، والاندماج الظاهرى فى الاسر المخدمة، وغياب الاشراف الكافى والكوابح الثقافية... كل ذلك، وغيره، يؤدى الى نمو البنات وتربيتهن فى مناخ متساهل، وربما مناخ اختلاط وأباحية. ولكن الضغوط الدافعة لمصلحة استخدامهن كخادمات في المنازل تبدو أقوى، وفي بعض الاحيان لايمكن مقاومتها. فقد جئن لجمع المال والثروة، بهدف مساعدة أسرهن، وربما لشراء بعض الأبقار، لكنهن يرجعن دون أمل في الزواج. وفى الغالب هناك (نوعهن) المستعد لزواجهن، لكن تلك زيجات عرجاء، غير سوية.

ومن هنا، فان حكاية (طاعمة) يمكن ان تكون انعكاساً للخصائص المعاصرة، رغم أنها لم تلتزم الشروط والمقاييس، التى يريد الدينكا من الشباب مراعاتها فى عملية التفاعل الثقافى المتبادل، وعملية التكامل التى لامفر منها فى المدى الطويل، فقد تكون طاعمة، أو الرقيق الذكور، من الدينكا، وقد يتزوجون، في النهاية، من دوائر طيبة في المجتمع الشمالى • ولذلك فان الحكاية تُسلم بالتكامل مع الشماليين، ولكن، فقط، على أساس المساواة الاجتماعية والثقافية بين الشماليين والدينكا أو الجنوبيين. وتاريخ الدينكا يوضح لنا أن ذلك قد حدث من قبل في اطار الدينكا. ففى سؤال حول: (هل خطف الدينكا أى عربى خلال حرب الاسترقاق هذه واستوعبوه ليصبح دينكاوياً؟...) أجاب الزعيم قيرديت (آه، نعم، كثيرون منهم متواجدون الان فى أرض الدينكا، عدد كبير من الدينكا هم أحفاد عرب... هناك كثيرون، بعضهم أسر فى معارك، رجال

ونساء... بعضهم أطفال، تركهم آباؤهم خلفهم، وجاء بعض الدينكا، فالتقطوهم وحملوهم).

إن تأثيرات التغيير وسط مجتمعات القبائل النيلية ليست مماثلة –فقد حدثت تغييرات راديكالية فى بعض الجوانب الثقافية، وفى جوانب أخرى كانت التغييرات بسيطة وظاهرية. والناس، أنفسهم، لم يتأثروا بشكل مماثل، وذلك لأن بعضهم قد تحول ثقافياً، بالكامل تقريباً، وآخرين تأثروا بشكل خفيف، ووجد المجتمع نفسه منقسماً، بشكل حاد، بين التقليدية والحداثة. يمثل التقليدي الزعماء وكبار السن والوجهاء، بينما يمثل الجانب الحديث المتعلمون والشباب الذين هاجروا الآن للعمل في المدن. ومن العادى، بالطبع، ان تظل هناك، دائماً، درجة من الاستمرارية فى التغيير. فالنيلى الحديث، إذن، عبارة عن مزيج من الماضى والحاضر. ولكن، بما أن الثقافات الجنوبية لاتحظى بدرجة عالية من الاحترام والتقدير من قبل الأوربيين، كما هو حال الثقافة العربية، فان البناء على متن النظم التقليدية قد ظل يعنى، في كثير من الاحيان، أما انه غير قابل للتغيير بشكل كلى، وأما أنه إستجاب للتغيير وفق خطوط مختلفة وحديثه، مهما كان تدنى مستوى الحداثة. وفى بعض الاحيان، قد تستخدم بعض المفاهيم التقليدية، مثل مقاييس العمر، الدور الحربى للشباب، والاسلحة (الحراب)، لكن فقط لتطوير افكار مختلفة وجديدة، ذات طبيعة ثورية فى الغالب. وهذا ماتؤكده لنا الاغنية الدينكاوية التالية، وهى من أغانى مدارس الأولاد خلال السنوات الأولى لادخال النظام التعليمى الغربى الحديث فى الجنوب. ويمكنني أن أضيف أن نظام المدارس الحديثة، فى ظل الحكم البريطانى، قد استخدم القدرة التوضيحية المفيدة للاغانى الدينكاوية لتوصيل رسالتها، أو الحرب المقدسة ضد تقاليد الدينكا، وديانتهم بشكل خاص، وذلك رغم استخفافها بالتقاليد وتصميمها علي استئصالها من جذورها – تقول الأغنية:–

أمسكت حرابى
ورددت أغنية الحرب بصوت عالٍ
قلمى تحرك ضد كتبى
لم أخطىء
الكتاب مع أولئك، الذين يكتبون الكلمة
الحكمة القديمة... حكمة أبناء آدم
يعرفها جيلنا ذو الملابس البيضاء، الذى يكتب

الجيل الذى يسجل، جاء بالكلمات
البقرة التي خطفت، لايمكن أن تراها
الطفل المفقود، لايمكن أن تراه
اذا كان من الممكن أن ترى،
فنحن الذين نكتب
الجيل الذي يكتب للزعيم
يكتب الرسالة
الرسالة التى سأكتبها
حاملها لايستطيع قراءتها
سيرانى الذى يقرأها
يرانى أنا وليس الكاهن الوثنى
كهنتكم، أننى لا احترمهم
أنا انسان كبير
الجيل ذو الملابس البيضاء يعرف الكلمات

إن استخدام مثل هذه الرموز، المجموعات العمرية، والروح القتالية لتلك المجموعات، واسلحتها، يمثل استمرارية ثقافية بارزة فى الاطار الراهن. فنشاطات الفئات العمرية كانت من ضمن الآليات التعويضية الهامة فى النظام التقليدى، ولكن هذه النشاطات، ومعظم الوسائل التقليدية الأخرى، لم تعد تعمل أو تؤدى أى وظيفة وسط الشباب المتعلم. وحقيقة أن السلطة الرسمية، فى المستوى القبلى، يسيطر عليها الزعماء، الذين يمثلون النظام التقليدى، تعنى استبعاد المتعلمين عن مؤسسات السلطة فى وقت كانوا فيه الاكثر تأهيلاً لقيادة عملية التحديث. ولكن النظم التقليدية، طاعة الوالدين واحترام الكبار، تمنع التطاول والاصطدام مع الزعماء التقليديين. والواقع، كما هو واضح فى الاغاني المشار إليها، ان معارضتهم للتقليديين تكشف، في الغالب تقديراً متناقضاً لكبارهم، وفقاً للقيم التقليدية. والهدف البديل الواضح كان يتمثل فى الحكومة، التي لاينظر إليها فقط كأجنبى، بل كمسؤل عن كل الظروف السائدة فى المستوي المحلى. والمعارضة علي المستوى الوطنى كانت تتخذ عدة اشكال، بعضها سياسى أو عسكرى، والبعض الآخر دعمته وعززته القوى التقليدية نفسها.

إن الانقسام القائم الآن بين الكبار الاجيال المرتبطة بتقاليد مجتمعات المجموعات النيلية، من جهة، وبين الشباب، الأجيال المتطلعة إلي الامام، من

جهة أخرى، يوضحه لنا، بشكل بارز، انقسام وجهة نظر الطرفين حول التزاوج بين المجموعات الاثنية المختلفة. وما لمسناه فى حكاية "طاعمة" اصبح الآن يظهر كحقيقة من حقائق المجتمع الراهن المتعدد الوجوه. فهناك عدد كبير من أبناء الدينكا المتعلمين يتزوجون الآن من خارج اطار مجتمعهم الخاص، ولكن كبارهم لم يقبلوا المسألة بشكل كامل. وذلك لأن الفرد في المجتمع التقليدى، إذا ذهب الى خارج قبيلته الخاصة وتزوج واستقر هناك فان ذلك يعنى أنه سيستمر، في خطه السلالى، فى منطقته الجديدة، وفى هذه الحالة فانه لاينظر للتزاوج المختلط كمهدد للهوية. وحول هذا الموضوع أشار أحد كبار السن الى ان (الناس من أصل واحد.. لنأخذ وضعك أنت مثلاً، من أين تزوجت زوجتك هذه؟ من قريب؟ اذا عشت هناك فى امريكا، بلد زوجتك، هل لن تلد أبناء؟ وهؤلاء.. هل لايكونون قبيلة؟ هل لن تكون هناك قبيلة تحمل اسمك؟).

إن التفاعل الواسع، الذى يجرى اليوم، بين مختلف المجموعات السودانية يطرح تحديات كبيرة أمام المتعلمين أكثر من ان يجد قبولاً بسهولة من كبار السن. وذلك لأن امكانية أن يقود مثل هذا التفاعل الى مزيد من التكامل الوطنى، على حساب تحلل المجموعات القبلية المنفصلة، يعتبر خارج اطار تفكيرهم ومعتقداتهم... ولكن الاجيال الشابة تتفهم ذلك، دون أدنى شك. وهذا الانقسام بين التقليديين والحديثين فيما يتعلق بمستقبل التبادل والتمازج الثقافى العرقى المتبادل فى السودان يتضح، بشكل بارز، من خلال المناقشة التالية بين الزعيم قيرديت، وشاب حضرى يدعى (أكول) وابن الزعيم، ويدعى (مو)، ومؤلف هذا الكتاب، حول امكانيات التكامل الوطني فى السودان، وتجدر الاشارة الى أن أحد أبناء الزعيم قيرديت متزوج من امرأة غير دينكاوية... من قبيلة الباريا وأنجب منها عدداً من الأطفال... لندخل الآن الى المناقشة:-

دينق: "كيف ترى ستكو ن نتيجة التفاعل بين الجنوبيين والشماليين؟ الآن انتهت الحرب.. هل من الممكن أن يتفاعل الجميع ويتمازجوا، ليصبحوا شعباً واحداً، ولايبقى هناك مجال للحديث عن الدينكا أو العرب، انما عن شعب سودانى واحد؟"

قيرديت: "لا يمكن أن يحدث، لا أري كيف سيحدث ذلك. يمكن أن يعيشوا فى سلام، لكنكم لن تتزاوجوا وتختلطوا لتصبحوا شعباً واحداً. لا استطيع أن أرى ذلك... من الصعوبة تخيل ذلك. ربما، اذا تركتم، انتم الدينكا، الابقار، وكل طرق حياتكم، يمكن ان يحدث ذلك، لكنى لا أرى كيف سيحدث ذلك. ستعيشون مع بعض، لكن سيكون هناك جنوب وشمال، حتي العيش معاً، مع بعضكم،

ممكن فقط اذا استطعتم معالجة الوضع بحكمة... هناك شعوب عديدة، تبدو موحدة، لكنها فى داخلها منقسمة الى شعبين.. اعتقد انكم ستعيشون هكذا... الانسان يملك رأساً واحداً ورقبة واحدة، لكنه يملك رجلين، عليهما يقف على الأرض".

دينق: "ماذا عن الدينكا والقبائل الأخرى فى الجنوب؟"

مو: "مثل الدور؟ (يقصد الزاندى)"

اكول: "حقيقة ليس هناك طريقة لمنع الناس من الاختلاط.. اللهم اذا قفلناهم فى الداخل، طالما الناس تذهب الى الخارج وتختلط مع بعضها، سيكون هناك شباب يلتقى ببنات العرب، وبنات القبائل الاخرى، ويتزاوجون، ويسيرون فى طريقهم، لا أحد، سوى الله، يستطيع ايقاف ذلك".

دينق: "ربما من الأفضل أن تميز بين الحالات الفردية للزواج المختلط وتوقع تغيير اجتماعى كلى يؤثر على المجتمع كله".

قيرديت: "لا نتحدث الآن عن الحالات الفردية... من أنت حتي تجيب عن مثل هذا السؤال؟" (التفت ليرى المتحدث الذى كان يقف خلفه).

اكول: "انا اكول"

قيرديت: "أكول، صهري"

مو: لا، "أكول كوين، اكول يوم"

قيرديت: "نعم، هناك دينكا فى كل بقاع الدنيا، الناس الذين يشبهونكم... هم دينكا، لكن تركوا بلدهم، كأفراد. مايريد أن يعرفه ابن دينق، ليس كيف يتصل الافراد مع بعض، انما كيف سيتغير المجتمع؟"

اكول: "نفس الشىء، أجابتى قائمة"

مو: "دعونا نرجع لموضع الدور.. كيف ستكون علاقاتهم مع الدينكا؟"

قيرديت: "هذا صحيح - كنا نتحدث عن كيف سيعيش الدينكا مع الدور؟"

اكول: "ما اريد ان اقوله هو الآتى... نحن الذين نضع حدوداً بيننا وبين الآخرين. اذا لم نقفل حدودنا مع الآخرين، لن تكون هناك مشكلة، اذا الآخرون لم يقفلوا داخل سياج منيع، لمنع الاتصال بالآخرين، سيكون هناك شاب صغير ذاهب لتلك المنطقة وآخر الى منطقة أخري... سيلتقون بالاخرين ويتزاوجون معهم. والآن ماذا يرى عمى فى هذا الحديث؟"

قيرديت: "ألم ترى؟ لقد حدث ذلك من قبل. البعض ذهب الى خارج حدودهم وتزوجوا، أنت تزوجت من العرب، لكن اعتقد ان موضوع الدور

سيكون أصعب... سيكون من الصعب عليكم ان تتزوجوا مع الدو ر، والواقع اذا لم يسمحوا لهم بمكان لائق فى مجتمعكم، أتوقع أن يبتعدوا عنكم في يوماً ما".

مو: "تقصد ان الدو ر ينظرون للدينكا، كأنهم عرب بالنسبة لهم؟"

قيرديت:" يرون الدينكا مختلفين عنهم، إذا نحن لم نمسكهم بلطف ونعالج الوضع بحكمة، سنفقدهم."

دينق: "ماذا عن الدينكا، هل ظلوا دائماً مجموعة عرقية متميزة؟ أم أن هناك أناس، لم يكونوا أصلاً من الدينكا، قد تم استيعابهم فى مجموعتنا العرقية؟"

قيدريت: "هناك أناس جاءوا الى أرضنا، وأصبحوا دينكا، لكن بالنسبة للدينكا، من الصعب عليهم ان يفقدوا إسمهم ويتحولوا الى إسم آخر. قد تنجحون في العيش معاً وفى سعادة، لكن كيف تختلطون بشكل كامل؟ هذا لا أعتقد أنه سيحدث."

دينق: "ماذا عن موقفنا من النوير؟"

قيرديت: "مشكلتكم مع النوير سهلة، لأنكم شعب واحد، النوير مثل الدينكا أتوت، النوير والدينكا ابناء أب واحد وأم واحدة، أما الشلك والجو ر كول، فهم أبناء أمو اذن هم اقرباؤنا من ناحية الام...)."

من الواضح ان قيرديت يمثل التقاليد، وأكول يمثل التغيير، ويبدو، أيضاً، أن قوى التغيير هى الغالبة، وأن معظم مايجرى الآن يدعم وجهة نظر اكول.

(د) آفاق للمستقبل:-

إن عدداً من الاستنتاجات يمكن ان يطرح هنا استناداً على تحليلنا السابق فيما يتعلق بمستقبل العلاقات بين الشمال والجنوب، نجملها فى الآتى:-

١- إن الجنوب يشارك الشمال الاعتزاز الشديد بالنفس فى ثقافاته التى تنزع الى التميز بالاستمرارية، ولكنها في نفس الوقت تفتح ابوابها لرياح التغيير، التى لاتهدد هويتها، بشكل واضح وصريح. وهكذا، فكما تحول الشمال، من خلال عملية تدريجية هادئة، فان تحول الجنوب، ايضاً، ممكن اذا ما توفرت الاستراتيجيات المناسبة.

٢- أن النيليين يمتلكون وعياً بالوحدة، تماماً كمسلمى الشمال، ولكنهم، أيضاً، يقدرون نظام النسب التجزيء بتركيبه السياسى الذاتى. وهذا يعنى أن نظاماً سياسياً مركزياً يسلب سلطات وحدات نظامهم الذاتى، سيتناقض حتماً

مع حسـهم الديمقراطى، ويواجه مقـاومة شديدة. وفي الجانب الايجـابى، فان ذلك يعني أن النظام الذاتى، باعـترافه بالمصـالح الخاصـة بالوحدات، سيـقوي الوعي بالانتماء والهوية فى اطار وحدة مع المجمـوعة الأوسـع، تماماً كما يفعل الحكم الذاتى فى الجنوب فى الوقت الحالى.

٣- ان اتجاه التـحديث، الذى خضع له الـشباب، الذى يشكل الان القـيادة السياسية للجنوب، قد أدى، بشكل رئيسى، الى تحرير هؤلاء الشباب من قيود الانتماءات السابقة، ووضعهم فى مـواجهة أسس أوسع لدولة سودانية حديثة. اذ بينما كان جوهر هذه القيود يتجه الى أعـاقة عملية الانتماء الأوسع للشمال، فقد أدى تفكيكها واضعاف علاقاتها مع الأوضاع التقليدية، وجهود الشباب فى البـحث عن اسس بديـلة لتـقـوية وتعـزيز الانتمـاءات الجـديدة، إلى تحـويل الجنوبيين المتـعلمين الى حلفـاء حقـيقين، أو مـحتـملين، مع القيـادات الحديثـة المتطلعـة للمستـقبل فى الشـمال. وهذا التطور الهـام، هو الذى وضع الأساس لامكانية الاصطفاف الجنـوبى/الشمالى، والذى أخذ ينمو ويتطور، وقـاد أخيراً الى تحقيق السـلام بين الشمال والجنوب. وظل هذا التطور الهـام يمثل مصدر قوة كـامنة فى عمليـة صياغـة وتنفيذ السـياسات الدينامـيكية، التى سـتؤدى، بالتأكـيد، الى تقـوية وتعزيز وحدة البـلاد وتقدمهـا وفق خطوط تكامل وطنى متدرج ومتصاعد.

٤- فى مشروع القيم النيلى لا تمثل السلطة هدفاً لتحقيق المصالح الذاتية للقوى الحـاكمة فـقط، بل تحمل هذه القوى مـسئوليـة رعاية وتقدير مـصالح المحكومين بشكل ايجابى، ليـصبح الزعيم دليلهم وحاميـهم، وسند المحتاجين للمساعدات المادية والروحية. ولذلـك، فان دعم أى حكومة، سواء على المستوى الاقليمي أو الوطنى، يظل، على الارجح، مـرتبطاً بانجازاتها الملموسـة في مجال رعاية وتقـدير مصالـح الناس. وذلك يفسر لنا لماذا وجـد النظام الحالى دعـماً وتأييداً أوسـع، بعد أن حقق الأمن والسـلام للجنوب، ولماذا حقق تضـامناً بين الجنوب والشمال أكثر وأكبر من ما كان متوقعاً من اكثر المراقبين تفاؤلاً.

أريد هنا أن أشير الى أنـنى قد تحدثت، بشكل موسع، عن القبـائل النيلية، وخـاصة الديـنكا، بسبـب الحرص على دقـة وتماسك المعلومـات، انطلاقـا من كتاباتى السابقة عن ثقافات هذه القـبائل. وعلى أى حال، لازلت اعتقد أن الكثير من مـاقلتـه حـولهـا، أن لم يكن كله، يـنطبق بهـذا القـدر أو ذاك، على بقـيـة المجموعات الجنوبية.

أن أحـد أهم مشـاكل عـلاقات الجـنوب والشمـال تمثلت، حـتى الآن، فى

الفشل فى فهم ثقافات الجنوبيين، مقارنة بوضع الثقافات الشمالية. وهذا الفشل، أو الجهل بثقافات الجنوب، يرجع في معظمه، الى لامبالاة ترتكز علي نوع من التعالى والازدراء، تمتد جذوره الى المواقف القديمة من الافريقي... صحيح، هناك من يجادل بأن ارتباط الكتاب والشعراء الشماليين، خلال فترة بدايات الحركة الوطنية الشمالية، بقيم الاسلام والثقافة العربية التقليدية، كل يمثل نوعاً من التعويض السايكلوجى للشعور بالدونية، المسيطر على السودانيين. جراء هزيمتهم النكراء أمام جيش الفتح الانجليزى المصرى فى نهاية القرن التاسع عشر، والتى لم يجدوا لها تعويضاً في ماضيهم الافريقى أو افريقيا المعاصرة(٨) فـ(بدلا من مساعدتهم لاستعادة ثقتهم فى انفسهم، فان أفريقيا ستؤكد شعورهم بالدونية فى مواجهة البريطانيين والمصريين. وهكذا، بطريقة لا إرادية تقريباً، حول السودانيون... انظارهم من افريقيا... وأصبحوا مرتبطين بشكل عاطفى انفعالى، بالعصر الذهبى للاسلام، الذي وفر، بجانب الثقافة العربية التقليدية الثرية، الدعم السايكلوجى الضرورى)(٩)، وهذا بالطبع، يمثل جزءاً من غسيل الدماغ العام، الذى صاحب التجربة الكولونيالية فى عموم افريقيا... وفى حالة السودان قد يعنى ذلك، فى بعض الأحيان، أن الشمالى كلما اصبح أكثر أفريقية كلما أصبح أكثر عروبة، وفى أحيان أخرى، كلما أصبح أكثر ازدراءا واحتقاراً لزملائه الجنوبيين.

ان تعزيز ثقافة ما، أو الاستخفاف بها، يمثل فى النهاية، وجهة نظر، يمكن الاتفاق أو الاختلاف معها. ولكن تفهم نظام القيم عند القبائل النيلية، ومعانيه ومواقفه، سيكشف لنا أين تتشابه القيم الشماليه مع القيم الجنوبية، وأين تختلف وبالتالى تستحق الاخيرة نفس المعاملة. وعلى ضوء ذلك يمكننا صياغة سياسات وطنيه استناداً الى تلك الخصائص المتفردة. وفي كل الاحوال، فان معرفة خصائص الوضع، كما هى، فقط، هى التى توصلنا الى سياسات أفضل، مؤسسة ومؤثرة بشكل أفضل.

الهوامش

(١) Trimingham, The Christian Church in Post-War Sudan, op. cit., p. 34.

(٢) Audery Butt, The Nilotes of the Anglo-Egyptian Sudan and Uganda, (Int. African Institute, 1951), p.41.

(٣) M. Fortes and E. E. Evans Pritchard, (eds), African Political Systems, London, Oxford Univ. Press, 1940, J. Middleton and David Tait, (eds.) Tribes without Rulers, (London, Routledge 1958).

(٤) Lienhardt, The Western Dinka, in,: Tribes Without Rulers ,p.177.

(٥) J. Middleton and Tait, op. cit., pp. 6-7

(٦) F. Deng, Dinka Folktales, (African Publishing Corporation, New York, 1973)

(٧) Ibid.

(٨) هذه النظرية طورها بروفسير محمد النويهي فى كتابه: (الاتجاهات الشعرية فى السودان: القاهرة، ١٩٥٧) ومع ان مدثر عبدالرحيم لا يختلف مع النويهى، فانه يقول ان التفسير السايكلوجى وحده لايفسر، بشكل كاف، (...ارتباط الشماليين، المسلمين والمتكلمين باللغة العربية، القوى بالقصص التاريخية للحضارة العربية الاسلامية) M. Abdel-Rahim, Arabism, Africanism and Self-identification in the Sudan, op. cit, p. 232.

(٩) Ibid

الفصل السابع

خلاصة واستنتاجات

إن اطار الجنوب/الشمال يمثل المسرح الذى ظلت تصطرع فيه حقائق التنوع والتعدد فى السودان مع مُثل الوحدة الوطنية... هناك، بالطبع، أوجه متعددة للمشكلة، لكن موضوع الهوية العرقية الثقافية يتقاطع مع كل هذه الأوجه، وتتمركز حوله قضايا التاريخ والسياسة والتنمية الاجتماعية الاقتصادية. والجوانب المختلفة للمشكلة، وتفاعلها مع بعضها البعض، عددتها وشرحتها لجنة خاصة، في عام ١٩٥٦، كقضايا يجب وضعها فى الاعتبار، بشكل دائم، من أجل فهم انتفاضة الجنوبيين فى عام ١٩٥٥، التى تولدت منها الحرب الاهلية وظلت مستمرة ومستعرة لأكثر من ستة عشر عاماً، ووضعت اللجنة القضايا في خمس مقولات، هى:-

١- هناك التقليل من العوامل المشتركة بين الشمال والجنوب... عرقياً الشمال عربى، والجنوب زنجي، ...دينياً الشمال مسلم والجنوب وثنى ...لغوياً الشمال يتكلم اللغة العربية والجنوب يتكلم أكثر من ثمانين لغة مختلفة... وذلك بعيداً عن الاختلافات الجغرافية والتاريخية والثقافية بين الطرفين.

٢- لأسباب تاريخية، يعتبر الجنوبيون الشماليين اعداءهم التقليديين.

٣- كانت السياسة البريطانية، حتى عام ١٩٤٧، تعمل على ترك الجنوبيين لأن (....يتطوروا فى خطوط أفريقية وزنجية...)، أيا كانت تعنى ذلك... وعن طريق استخدام قانون المناطق المقفولة وقانون السماح بالتجاره، منعت السودانيين من معرفة بعضهم والتعلم من بعضهم البعض. والارساليات التبشيرية، التى كانت تسيطر على معظم النشاط التعليمى، وتستغله لاغراضها الخاصة، قامت بفرض نفوذها وتوسيع تأثيرها لمصلحة هذه السياسة البريطانية فى الجنوب.

٤- لأسباب سياسية ومالية وجغرافية واقتصادية شهد شمال السودان تطوراً سريعاً فى مختلف المجالات مثل الحكم المحلى، مشروعات الرى، الصحة، التعليم العالى، التنمية الصناعية .....الخ، بينما ظل الجنوب فى تخلفه المزرى. وقد أدى ذلك الى تفاوت بارز فى التطور الاجتماعى الاقتصادي بين

مجموعتين مختلفتين تعيشان في قطر واحد وهذا ماخلق، بدوره ، شعوراً فى وسط المجموعة السكانية الأكثر تخلفاً، سواء ان هذا الشعور حقيقياً أو متوهماً، بأنها ضحية لعملية خداع واستغلال وهيمنة من قبل الشمال.

٥- كل العوامل السابقة، مجتمعة، لم تخلق وسط الجنوبيين شعوراً بالمواطنة المشتركة مع الشماليين، كما أنها لم تخلق شعوراً بالوطنية والانتماء للسودان ككل، وظل ولاؤهم، كما كان سابقاً، لمجموعاتهم القبلية الخاصة. وفى العام لأخير فقط، بدأ الوعي السياسى يتفتح في أوساط الجنوبيين المتوسطين، ولكن هذا الوعي السياسى، المحكوم بظروفه، هو وعى اقليمى وليس وعياً وطنياً[1].

- إن تركيز اللجنة على الاختلافات العرقية والثقافية يطلب بعض التوضيح. وذلك لأنه، على الرغم من أن عملية الاسلمة والتعريب فى الشمال قيد انتجت هوية مبالغاً فى تضخيم ارتباطها بالاسلام والحضارة العربية، إلا أن دخولها واستيعابها كانت تدريجياً وتوفيقياً مصاحباً لخطوط الأديان والثقافات والاثنيات الافريقية السابقة. وبالتالى يمكن أن نقول أن ناتج هذه العملية، المتمثل فى العرق والدين والثقافة العربية السائدة اليوم فى الشمال، هو سمات سوادنية متميزة.ان اعتقاد الشمال بأن مجرد عكس السياسة البريطانية، وفتح الطريق لتعريب وأسلمة الجنوب، سيحل مشكلة الجنوب، كانت تنقصه مقارنة واقعية كلية. لذلك لم يأخذ في الاعتبار الاطار الذي كان قائماً فى فترة ماقبل الحكم البريطانى (الطريقة التى تمت بها عملية الاسلمة والتعريب فى الشمال، تاريخ تجارة الرقيق والعداوات والتوترات الأخرى فى الجنوب)، ولم يضع اعتباراً لارتدادات واصداء التغيير المفاجىء فى سياسة غرست جذورها عميقاً فى الجنوب، خاصة وسط الطبقة المتعلمة[2].

لقد إتخذ جعفرنميرى أشجع خطوة بأتجاه حل المشكلة. وذلك ليس فقط لأنه تفاوض مع الثوار الجنوبيين، وهي خطوة فشلت فى اتخاذها كل الحكومات المتعاقبة السابقة، بل ولأنها، أيضاً، اتفقت معهم على نظام حكم يسمح بقدر كبير من الادارة الاقليمية وسارعت الى تحويل الاتفاق الي قانون، هو قانون الحكم الذاتي الاقليمى للمديريات الجنوبية لسنة ١٩٧٢، وبدئ في تنفيذه منذ الثالث من مارس ١٩٧٢. لكن قضايا الهوية السودانية، مع كل ذلك، قد تبقى في مكانها، وقد تتدهور لتقود الي توتر العلاقات الشمالية الجنوبية فى المستقبل. صحيح أن الحكم الذاتى الاقليمى يمثل حلاً لمشاكل العلاقة الشمالية الجنوبية فى المدى المتوسط، ولكن من الصعب ان يقتنع الجنوبيون

بالاكتفاء بالمشاركة الاقليمية ولايهتمون بقضايا كبري وطنية وعالمية، مثل قضية انتماء وهوية السودان، وكيف يمكن معالجتها. وهنا يمكننا فقط أن نقترح مدخلاً يوحد البلاد وشعبها فى مقابل المداخل التى تُقسم وتُشتت.

ـ ان المجادلة بأن العروبة والافريقية ليست مفاهيم ضيقة ومحصورة اصبحت تجد قبولاً واسعاً. وفي العلاقات الدولية، أصبحت الاقطار الافريقية تجد نفسها فى الدوائر العربية والافريقية على السواء. ومن بين العوامل التى تعمل لمصلحة هذا التوجه، تبرز الديناميات السياسية فى المقدمة. فحركة الوحدة والتضامن التى أفرزتها وحدة هذه الاقطار فى جبهة واسعة ضد الامبريالية الغربية، جنباً الى جنب مع حقيقة موقعها الجغرافى ومصالحها المشتركة، قد أدى الى افراغ فكرة الافريقية من ايحاءاتها العرقية. واستبعاد الافارقة البيض من هذه الهوية والانتماء الواسع يرجع، بشكل رئيسى، الى مواقفهم العرقية، وهو موقف سياسى يستند الى نفس الاسس التى تدخل الاقطار العربية فى المظلة الافريقية. ومن جهة أخرى، فقد وسعت العروبة، أيضاً، مظلتها على أسس سياسية، ولكن بجانب ابعاد ثقافية محددة واداعاءات عنصرية الى حدود معينة فتطابق الروابط العرقية والثقافية، سواء كانت حقيقية أو موهومة، هى التى تمنح، حتي السودانى الأسود، شعوراً واحساساً بالانتماء العربى. واذا قلنا أن العروبة هى انتماء ثقافى، اساساً، فسيعنى ذلك أن سودانياً جنوبياً، جذوره، دون شك، غير عربية، وقد يكون أهله وثنيين أو مسيحيين، ولا يتحدثون اللغة العربية، يمكن أن يعتبر عربياً، لأنه، بكل بساطة، يتحدث اللغة العربية، ومستعرب ثقافياً، وربما مسلم متزمت. ومثل هذا الادعاء لايعدو أن يكون توسيعاً لا معنى له لمفهوم محدد.

أن القضية، بالنسبة للسودان، ليست فى التنكر للعروبة أو رفضها، وأنما في التركيز على المداخل التى تُوحد البلاد وشعبها. ففى ظل مثل هذه المداخل، يمكن للعروبة ان تجد طريقها فى داخل مجمل مكونات الهوية السودانية، دون اعتبارها ممثلاً لمناطق معينة، بفعالية وتأثير المداخل الضيقة، التى تُقسم وتُهدد وحدة البلاد وشعبها. وأهمية واحتمالات تطور مثل هذا الانقسام الخطير بالنسبة للسودان أن تجاهله قد يؤدى الى نتائج وخيمة. وفى هذا الخصوص، يرجع مدثر عبدالرحيم جزءاً كبيراً من سوء الفهم، الذى يقف خلف تحليل مشكلة الجنوب، الى النظرة الخاطئة لمسألة العروبة والافريقية، حيث يقول:-

إن كلا النظريتين، حسب الفهم العام، تشيران الى مجموعات عرقية معينة، ولذلك أعتبرتا نظرات ضيقة، تُفرق ولاتُوحد. والواقع، على كل حال، أن

العروبة تمثل رابطة لغوية وثقافية تجمع فى اطارها مجموعات عرقية متعددة، تشمل السود والبيض والسمر على السواء- واذا كانت تعنى شيئاً آخر غير هذا ، لكان معظم العرب الحديثين، الافارقة أو الاسيويين، بما فى ذلك كل سكان شمال السودان، غير عرب على الاطلاق. وكما أن العروبة رابطة ثقافية، غير عرقية، فان الافريقية، هي الاخرى، ليست أكثر من رابطة جغرافية وسياسية وثقافية، غير عرقية، تجمع في اطارها مختلف شعوب القارة الافريقية، بمختلف أعراقهم وألوانهم ولغاتهم. ومن ثم، فأن الترابط الوثيق بين العروبة والافريقية لاينحصر فى حدود القارة الافريقية فقط، بل يمتد الى المستويات الاقليمية والدولية، أيضاً.

لقد اصبحت العروبة والافريقية مندمجتين، بشكل كبير، فى شمال السودان، لدرجة إنه لم يعد من الممكن التمييز بينهما ، حتى من الناحية النظرية المجردة، وان الغالبية العظمى من السكان تشعر، بشكل صحيح، أنهم عرب وأفارقة فى نفس الوقت، وبدرجة متساوية، دون أى احساس بالتردد أو التناقض... وحقيقة انهم، بشكل غالب، مسلمون وعرب، تميز، فى الواقع، الشماليين من مواطنيهم الجنوبيين، ولكنها لاتعنى أنهم غير أفارقة. وبما أن السودان يمثل القطر الوحيد فى القارة الافريقية، وربما في العالم، الذى لايجسد القارة، بتنوعها وتعددها العرقي والثقافى، فحسب، بل أنه قد قام بدمج هذا التنوع فى تركيب فريد، لانظير له، فانه من الممكن ان يوصف شمال السودان بانه الاكثر تمثيلاً للقارة الافريقية ككل، بالمقارنة مع أي قطر أو اقليم آخر، بما فى ذلك جنوب السودان نفسه[٣].

ان مقالة مدثر عبدالرحيم لرائعة واستنتاجها صحيحة، بدرجة كبيرة، ولكنها، مع كل ذلك، لم تلامس القضية الاساسية، فيما يتعلق بما يربط الشمال والجنوب معاً فى هوية وطنية متكاملة... وهنا أجد نفسى مختلفاً مع تجاهله الكامل لعنصر العرق، حقيقياً كان أم متوهماً، وأعتقد أن المسألة الرئيسية بالنسبة للسودان ليست فى أن الشمال عربى وأفريقي معاً، أو عربى أو أفريقى بشكل كامل. وذلك لأن المسألة الرئيسية هى:- اذا أخذنا في الاعتبار أن الجنوب ليس عربياً، فهل نعتمد العروبة كأساس للتكامل والهوية الوطنية؟ أم أن علينا اكتشاف مداخل توحيدية تصلح أساساً لهوية موحدة؟

أننى اتفق، بشكل كامل، مع استنتاج د. مدثر بأن الاعتراف بالاختلافات بين الشمال والجنوب يجب ألا يكون أساساً لانفصال الجنوب. صحيح «ان الشمال يختلف عن الجنوب في أنه، فى معظمه، عربى مسلم، بينما الجنوب

وثني، فى غالبه، بجانب أقليات مسيحية ومسلمة. ورغم أن ذلك يمكن اعتباره أساساً كافياً للمطالبة بوضع خاص للجنوب فى اطار سودان موحد، إلا أنه لا يشكل حجة مقنعة للمطالبة بتقسيم السودان الي دولتين مستقلتين. وذلك لأن الدولة الحديثة، خاصة فى افريقيا، لاتؤسس، ولاينبغى أن تؤسس، على التجانس الدينى أو العرقى أو حتي التجانس الثقافى، وانما تؤسس على المصالح والاهداف المشتركة بين الناس، الذين قد يكونون مختلفين فى بعض الجوانب، ولكنهم، فى الوقت الراهن، قد التقوا فى مكان واحد، جاؤه من مناطق مختلفة عبر الحدود الدولية، وليس فقط الحدود القبلية والاقليمية.»[٤].

ـ إن الاعتراف بإزدواجية تكوين السودان، والتركيز على عروبة الشمال، على أى حال، لاتشكل أسساً مساعدة لبناء وحدة وطنية راسخة. فالدول الأفريقية والآسيوية، العربية وغير العربية، ودول أخرى عديدة، تتعاون وتتوحد تحت ظل مداخل وأسس تحافظ على مصالحها وتعمل على تطويرها. وفى ظل هذه المداخل والأسس، سيسارع الجنوب، بقناعة وإندفاع، للاصطفاف مع العرب لتأييد ودعم وحدة السودان مع أقطار أخرى بهدف تقوية وتعزيز الانتماءات الأوسع، التى تتطلبها الظروف الراهنة في افريقيا والعالم على سواء. ولأجل أن يصبح ذلك أمراً ممكناً، على السودان أن يطور مداخل وأسس وحدته الوطنية. وهناك الكثير المشترك بين الشمال والجنوب، ينتظر، فقط، من يكتشفه. بل أن المسألة أكثر من مجرد مداخل وأسس، وذلك لأن السياسات الوطنية للتنمية، مثل السياسات المتعلقة بمحتوي السياسة التعليمية، يحددها المفهوم المتفق عليه للشخصية الوطنية. فقد رأينا كيف أن السياسات الحكومية، الكولونيالية، حول الهوية الوطنية للشمال والجنوب، قد حددت بشكل واضح، خطط هذه الحكومات وأدت الى الوضع الراهن بسماته المحددة. ولاعادة تحديد الهوية الوطنية السودانية، بطريقة تساعد على تكامله ووحدته الوطنية وتعكس، في الوقت نفسه، حقائق الواقع السودانى، فمن الضروري النظر الى القطر، بكل بساطه كـ"سودان" وليس وفق شروط ثقافية أو دينية أو عرقية، وتطوير نظام حكم يقوم على أساس الحكم الذاتى ويعمل، في الوقت نفسه،على تنمية الرموز الايجابية للوحدة الوطنية والارتباط مع القطر بشكل أوسع. فتاريخ السودان، خاصة تاريخ عمليات تعريب الشمال، يكشف لنا أنه، فى ظل نظام يتمتع فيه الناس بذاتيتهم المحلية، ولكنهم يواصلون تفاعلهم مع الآخرين، ... فى ظل مثل هذه الظروف يمكن لعملية التكامل الوطنى أن تجرى وتتطور من خلال سير الاحداث اليومية العادية، وتؤدى، في النهاية، الى تحويل المجتمع. وهكذا، فاذا توفرت حرية الاتصال والارتباط بين الشمال والجنوب، ونظام تعليمى واعلامى يقوم، من خلال أجهزة الاعلام الجماهيرى، على

مجموع التنوع الثقافى للسودان، بشكل حقيقى وواقعى، فان الناتج النهائى سيتمثل، دون أدنى شك، فى ثقافة وهوية سودانية متكاملة وحقيقية..

ان الدينكا نقوك، الذين يعيشون في الجنوب الغربي، بجوار قبيلة البقارة الحمر، يقدمون للشمال والجنوب نموذجاً فـي العلاقات المتآلفة والمنسجمة وخطوط التكامل الممكنة. فمع أن بعض القبائل العربية من الشمال البعيد كانت تقوم بغزو قبيلة الدينكا انقوك، من وقت لآخر، إلا أن ذلك لم يمنعها من الاستمرار في علاقاتها الطيبة، نسبياً، مع البقارة. والعلاقات الدبلوماسية بين زعامات القبيلتين، ساعدت على تأكيد التعايش السلمى وتوقف البقارة عن القيام بغزو منطقة الانقوك. وكان زعيمهم يقوم باعادة تسليم أي دينكاوي اختطفه رجال القبيلة بغرض الاسترقاق، ونتيجة لذلك، شهدت المنطقة تأثيرات ثقافية متبادلة واسعة. أفرزها تفاعل البشر الى درجة تشير فيها السجلات الرسمية الى عدد من الزعماء الدينكا المستعربين، وفى فترة الزعيم كول أروب، مرة أخرى فى عام ١٩٥١، في فترة الزعيم دينق ماجوك، إختار الانقوك البقاء فى الشمال بدلاً من الارتباط بالجنوب، رغم أن الادارة البريطانية كانت تفضل الخيار الأخير. ولكن، عندما أصبحوا في مجلس محلى واحد مع البقارة بدأ الصراع حول السلطة يؤثر سلباً علي علاقات الطرفين، التي ظلت مستمرة بين زعماء القبيلتين، وأدى ذلك الي توترات، عمّقها تجدد اعمال العنف المسلح فى الجنوب. وفى عام ١٩٦٥، إنفجر صراع بين القبيلتين، راح ضحيته عدة مئات من المواطنين، ووضع علاقاتهما في اطار حالة الصراع بين الشمال والجنوب. وفى إشارة الى تطور أزمة العلاقات بين الأنقوك والحمر، كتب أحد الانثربولوجيين، الذين قاموا بأبحاث هامة وسط البقارة، :- «ان الاضطرابات بدأت منذ خريف عام ١٩٦٤، ويقال أنها ترتبط بنشاطات ثوار جنوب السودان، وهي اضطرابات تراجيدية لأن مجلس ريفي المسيرية كان يمثل مسرحاً لتعاون مثمر وودى بين شمال وجنوب القطر»[٥] ومن الواضح أن مشكلة علاقات الشمال والجنوب وصراع الانقوك والحمر يلتقيان فى العديد من الجوانب المشتركة. فالمشكلتان تغطيان مراحل، كان المتغير الحاسم فيها يتمثل فى محاولة قوي معينة توسيع سيطرتها على حساب قوى أخري ورد فعل الاخيرة لايقافها عند حدها. وفى نفس الوقت فان المشكلتين لاتشيران فقط إلى أهمية الاسس الممكنة لحل المشكلة، بل تطرحان، أيضاً، قضية كيفية اعادة صياغة الهوية والانتماء فى ظروف ملائمة. إن تاريخ علاقات الشمال والجنوب قد شهد، هو الآخر، مراحل من التعاون والانسجام، وكان لها تأثيرها فى توسيع تأثيرات التفاعل الثقافى المتبادل وتقوية وتعزيز الشعور بالوحدة الوطنية. فبعد إستعادة الامن والسلام وحرية الحركة والاتصال، فى بداية

الحكم البريطاني، مباشرة، بدأت مرحلة أصبح فيها الجنوب يتقبل فيها التأثيرات الشمالية. وكان مؤتمر جوبا في عام ٤٧، واعلان الاستقلال بداية عام ١٩٥٦، مناسبات عبر فيها الجنوب عن تأييده ودعمه للارتباط مع الشمال. وفي كل هذه المناسبات كانت العوامل الحاسمة تتمثل فى غياب الخوف من هيمنة الآخر، أو الأمل فى حل لمشكلات الصراع حول السلطة. وفي السنوات الاخيرة، يبدو ان تاريخ التعاون والانسجام، بين الشمال والجنوب، يكرر نفسه بصدور قانون الحكم الذاتي، الذى منح الجنوب سلطات واسعة فى ادارة شئونه، وفتح قنوات عملية التفاعل الثقافى المتبادل، وعزز الرموز الايجابية للتكامل والوحدة الوطنية. ونتيجة لذلك، يعكس الجنوب اليوم عزة وطنية وروحاً وحدوية في السودان، بدرجة لم يشهد الاقليم مثلها قط.

لإعطاء الاعتراف بالاختلافات الثقافية، المتضمنة في منح الجنوب الحكم الذاتى، معناه الحقيقى، بالاضافة الي الاستفادة القصوى، وطنياً، من هذا الاعتراف، فان تجاهل ثقافات الجنوب، الذى ميز العلاقات الشمالية–الجنوبية فى الفترة السابقة، يتطلب معالجة خاصة لتصحيحه وتطوير الاهتمام بهذه الثقافات. وذلك لأنه ليس المهم، فقط، الاعتراف بثقافات والعمل على تطويرها، بل من المهم، أيضاً، ان يتعرف الشمال على هذه الثقافات، تماماً كما هو مهم أن يتعرف الجنوب على ثقافات الشمال، بطريقة تتناسب مع أهميتها فى الحياة الوطنية. وأشير فى هذا الخصوص إلي أن أحد كبار القضاة الشماليين قد حدثني مرة بأن «تخلف أخواننا في الجنوب أمر مؤسف، حتى أنه ليس لهم دين» ولكن، منذ سنوات عديدة، كتب الانثروبولوجيان، بروفيسر ومسز سليجمان وأشارا إلى أنهما في تجربتهما قد توصلا إلى أن النوير والدينكا هم الاكثر تديناً فى السودان[1] .. فاذا كان القاضى المشار اليه يعرف هذه الحقيقة، لكان قد عبر عن تقديره واحترامه الكبير للثقافات الجنوبية، بدلاً من أن يأسف لاخوانه الجنوبيين.

ان دراسة كريولية، مثل عربى الجنوب، واشكال الاتصال اللغوي الاخرى، بين الجنوبيين والشماليين، مثل الشكل السائد بين الانقوك والحمر، يمكن أن تسلط ضوءاً كاشفاً علي تعقيدات الاطار الثقافى السودانى، وقد يوفر بعض الأسس لتخطيط التكامل اللغوى • وكذلك الفلكلور والاغانى والحكايات الشعبية وغيرها، يمكن أن تكون أدوات جد مؤثرة لتنمية وتطوير التكامل الثقافى. وقد لاحظ د. مدثر الدور الخاص للفولكلور فى السودان، حيث يقول:

«ان الشكل الغالب للتعبير الأدبى، فى الفترة التى أعقبت ثورة ١٩٢٤ مباشرة، تمثل فى القصائد الوطنية، التي لا يعرف شاعرها، والأغانى، التي تحمل إشارات وتلميحات لمصر، مثل المحبوبة التى أبعدت عن حبيبها، ولكنها تعبر،

في العادة عن مشاعر القوة والرجولة. وهذه القصائد يجب أن تكون الأداة المعبرة عن المشاعر الوطنية في بلد يتكلم اللغة العربية، حيث لعب الشعر تقليدياً، دوراً اجتماعياً، قريباً من دور الصحف في المجتمعات الحديثة، وحيث ان كل شيء تقريباً، من افتتاح بنك تجاري وطني الى الاحتفال السنوي بالمولد النبوي، قد حظي بفيض من الشعر. لذلك ليس غريباً ان تكون مثل هذه القصائد أداة للتعبير عن المشاعر الوطنية ...فالمغنى الأكثر شعبية في تلك الفترة، خليل فرح، الذى لاتزال ذكراه راسخة في وجدان السودانيين، لم يتلقى أى شكل من التعليم العالى ...هذه الملكة، مع معرفة معقولة بالقراءة والكتابة وحب الشعر العربى القديم، مكنته من التعامل المريح مع "الخريجين" وعامة الجمهور فى نفس الوقت. والقصيدة الوطنية، التى نشرها، كانت تجمع بين اللغة الفصيحة والعامية فى أسلوبها، "وصُمِّمت"، اساساً، لربط الأولى بالأخيرة. وهو إبداع له أهميته الكبيرة، في مجتمع تغلب فيه الأمية. وبحكم تأهله وتمكنه للعب هذا الدور، أصبح خليل فرح مطرب الأغانى الوطنية بدرجة امتياز. ومعظم القطائد المعادية لبريطانيا والمليئة بتلميحات "الحب" للشقيقة مصر، عُبر عن إغراضها بطريقة مجازية تسمح بتفسيرها بأكثر من طريقة واحدة» (٧).

إن قدرة ونفوذ الاغاني فى تقوية وتعزيز الهوية وتنمية السياسات الوطنية، يمكن ملاحظتها في الطريقة الايجابية، التي يتفاعل بها السكان المحليون، عامة الناس والزعماء، مع أغنية من الاذاعة بلغتهم المحلية، خاصة اذا كان مضمونها مناسباً للمستمعين. وبعض الأغاني والحكايات الشعبية، التى أشرنا إليها فى هذا الكتاب، كشفت، أيضاً، أهمية مؤسسات الفولكلور فى شرح وتوضيح، ليس التغييرات فقط، وإنما، أيضاً، مشاعر المشاركين المختلفين تجاه مايجرى فى المجتمع فى مراحل التحول المختلفة. وفى مقدمتهم لكتاب The Dinka of the Sudan، كتب جورج ولويسي سبندلر عن أغانى الدينكا، مايجب أن يقوم الشماليون بأكثر منه، كأساس للاحترام والتفهم الثقافي المتبادل. «من هذه الاغانى نستطيع، بشكل أولى على الاقل، أن نحس بالاختلاف الكيفى الحقيقى بين تجارب وأنماط تفكير الغربيين والدينكا... وفى نفس الوقت، نستطيع أن نشعر بالخاصية الانسانية المشتركة للعواطف والدوافع ذات العلاقة» (٨).

وكذلك القصص، فهى ليست أقل قدرة وتأثيراً، أو أقل قابلية للتكيف، من أشكال التعبير الأدبي الأخري، ورغم أن مضامين الحكايات والقصص الشعبية الدينكاوية قد تختلف عن الأدب العربى، لكن ذلك قد لا يشكل عائقاً للفهم والادراك. وبما أنى قد قمت بترجمة وتحرير حكايات شعبية، فقد كنت قادراً

على رؤية درجة قدرتها على شرح وتوضيح جوانب من التجربة الانسانية في عموميتها الاساسية، رغم الاختلافات البارزة. ولكي نقدم الشمالى للأدب الجنوبى علينا أن نفتح عيونه وضميره على مثل هذه العمومية الجوهرية، وان نتمّنى الفهم والادراك المتبادل بعيداً عن قوانين وتقاليد الزواج. هذه الاستراتيجية المقترحة للتكامل الوطنى، هي بالضرورة، ذات اهتمام متعدد الوظائف. فالتاجر كان عاملاً هاماً في عملية التعريب، تماماً كما كانت السياسات التى أعطت هويته امتيازات عديدة على حساب الهوية الزنجية الوثنية والمسيحية. والارساليات التبشيرية كانت عاملاً هاماً فى نشر المسيحية في الجنوب، تماماً كما كانت القوانين التى منحتها "مجالات نفوذ" محددة. ولكن القانون، كمنظم ومنسق لتدفق قرارات السيطرة السلطوية الكفؤة، سواء كان ذلك فى شكل موجهات سياسية عامة، أو قرارات يومية، تؤثر في تخصيص القيم المادية والاخلاقية والروحية، أو فرض أعباء على الناس، يبدو أنه سيكون فى قلب التغيير المُرشّد.

ـــ إن تاريخ السودان يكشف لنا أنه، حيثما أُستبعدت أسباب الصراع على السلطة ومهددات الاستيعاب الطائش غير الرشيد، من خلال ضمان توسيع اللامركزية وحرية التفاعل الاجتماعى، فإن رموز الهوية والوحدة الوطنية يمكن أن تُقبل أو تُرفض على أساس ميزاتها وقدرة توجهاتها الجديدة علي الاقناع. والقضية بالنسبة للسودان، كما يبدو، ستكون فى البحث عن، وتشكيل، الرموز، التى توحد أكثر من أن تشتت وتقسم، دون تهديد المشاركين، الذين يشكل دعمهم وتأييدهم شرطاً جوهرياً للاستقرار السياسى والاقتصادى. وبهذه الرموز، التى تقود التنمية، والحكم الذاتي، الذى يؤكد ويضمن أمن وسلامة أولئك الذين يشكل دعمهم شرطاً جوهرياً، وحرية التفاعل بين مختلف أجزاء القطر، والعمل المحسوب فى كل المستويات لتعظيم الناتج النهائى، بكل ذلك، يمكننا ان نقول ان هناك أسباباً قوية للاعتقاد بأنه من الممكن أن ينمو وعي صادق بسودان أوسع، كأساس لوحدة وهوية وطنية مشتركة. وفى هذا الطريق اتخذت خطوات ايجابية عديدة، وستتخذ خطوات أكثر، ومع ذلك هناك الكثير الكثير الذي يجب أن يعمل.

الهــوامـش

(١) تقرير لجنة التحقيق فى لحداث ١٩٥٥، مصدر سابق، ص ٨١.

(٢) هذه الطبـقـة هي التى قـادت الحرب ضــد الشـمـال، لمعرفـة المزيد عن أغـانيـهم العسكرية أنظر Deng, The Dinka Songs, op.cit., p. 139.

(٣) Arabism, Africanism and Self-identification, op. cit. pp.237-238.

(٤) Ibid, p. 238.

(٥) I.G. Cunnison, The Baggara Arabs, (London Oxford Uni. Press, 1966)vii

(٦) I. G. Seligman and B. F. Seligman, Pagan Tribes of Nilotic Sudan, (London, Routledge Kegan Paul, 1932), p. 178.

(٧) M. Abdel-Rahim, Imperialism and Nationalism,pp.110-111

(٨) Deng, The Dinka of the Sudan, viii